■ إدوارد سعيد ■

تغطية الإسلام

كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم

ترجمة وتقديم الدكتور

محمد عنانى

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب
Covering Islam :
How the Media and the Experts
Determine How We See the Rest
of the World
By Edward Said
الصادر عن دار
Routledge & Kegan Paul, London, 1981



تغطية الإسلام

مرايا الكتاب

الكتاب : تغطية الإسلام
الكاتب : إدوارد سعيد
الترجمة : د. محمد عناني
المدير المسؤول : رضا عوض
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة ٣٥٢٩٦٢٨/ ٠١٢
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : ٠٥٧٥٢٨٥٤٠
الإخراج الداخلى : جوبى
جمع وتنفيذ : الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر
الطبعة الأولى ٢٠٠٥
رقم الإيداع : ١١٥٢٧/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولى : I.S. B. N.
977- 6174 - 00 - 0

رؤية
للنشر والتوزيع
2006

■ تصدير ■

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب **تغطية الإسلام : كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء فى رؤيتنا لسائر بلدان العالم** الذى أبدعه قلم الناقد الفذ إدوارد سعيد ، وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨١ عن دار نشر Routledge & Kegan Paul فى سلسلة كتب Pantheon ثم ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب نفسه عام ١٩٩٧ عن دار نشر Random House فى سلسلة كتب Vintage، وأضاف المؤلف إليها مقدمة ثانية مسهبة يعرض فيها لبعض الأحداث والكتابات التى تؤكد ما انتهى إليه فى الطبعة الأولى وتقتصر على هذا التأكيد، وقد استندت فى الترجمة على الطبعة الأولى ثم راجعتها على الطبعة الثانية المنقحة ، فرأيت الاكتفاء بالصورة الأخيرة دون إضافة المقدمة الجديدة ، وفى ظنى أن إدوارد سعيد لو امتد به

العمر ليصدر طبعة ثالثة بعد غزو العراق (بعد غزو أفغانستان وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١) لأضاف مقدمة ثالثة تزيد من تأكيد صحة النتائج التى توصل إليها البحث فى الكتاب . وأما أهم ما جاء فى المقدمة الثانية فسوف أعرض له بإيجاز فى هذا التصدير .

يعرض إدوارد سعيد فى مقدمته الجديدة للتحولات التى طرأت على العالم بعد تفكك الاتحاد السوڤييتى وانهياره ، قائلاً إن التقسيم المبسط (الساذج) القديم للعالم فى عيون الولايات المتحدة إلى معسكرين: معسكر يناصر الشيوعية ومعسكر يناهضها، قد تحول إلى تقسيم لا يقل تبسيطًا وسذاجة، أى تقسيم العالم كله إلى معسكرين من نوع آخر : معسكر يناصر الإرهاب ومعسكر يناهضه ، ويدلل على صدق ذلك القول بأحداث وكتابات شتى ، ثم يعرض بعض الأفكار الرئيسية التى سبق له

عرضها فى متن الكتاب ، وبعض الكتب التى صدرت منذ مطلع الثمانينيات فى هذا الصدد ، ومعظمها يردد الأغلوطة نفسها عن ''الصدام'' المحتوم بين الحضارات ، مع استثناء كتاب واحد كتبه أستاذ فى جامعة چورچتاون اسمه جون اسبوزيتو ، وعنوان الكتاب ''**التهديد الإسلامى : خرافة أم حقيقة واقعة ؟**'' فى عام ١٩٩٢ ، وبعد ذلك يعرض لمشاركة إسرائيل فى الحملة على الإسلام ، بمساعدة المجلات والصحف والكتب الموالية لها فى أمريكا ، ''على أمل زيادة عدد الأمريكيين والأوروبيين الذين يرون أن إسرائيل من ضحايا العنف الإسلامى''. (ص ٢١). ويأتى بنماذج من الكتابات الصحفية الأمريكية التى تفصح عن التعصب العرقى والتحيز البغيض واللاعقلانى، ثم يخصص الصفحات الباقية من المقدمة للهجوم على الكتاب الذى أصدرته صحفية تدعى چوديث ميلر بعنوان **رحلة صحفية فى الشرق الأوسط المقاتل** الصادر عام ١٩٩٦ ، وتزعم فيه المعرفة الفياضة بالمنطقة وشعوبها وهى لا تعرف أيًّا من لغاتها ، بل وتخطئ حتى فى كتابة الأسماء العربية أخطاءً فاحشة . ولابد لى الآن من أن أشير بإيجاز إلى موقع المفكر إدوارد سعيد وأهميته فى ميدان الأدب والنقد أولاً، فهذا هو تخصصه الأول ، ثم إلى ما ساهم به فى الفكر العالمى المعاصر .

ولد إدوارد سعيد فى القدس ؛ فى فلسطين ، عام ١٩٣٥ ، وتوفى عام ٢٠٠٣، وقد التحق بالمدارس الابتدائية والثانوية فى

القدس وفى القاهرة ، ثـم تخرج متخصـصًا فى الأدب الانجليزى فى جامـعة برنسـتـون عام ١٩٥٧ ، وحصـل على الماجستيـر عام ١٩٦٠ من جامـعة هارڤارد والدكتـوراه من الجامعـة نفسهـا عام ١٩٦٤، حيث فاز بجائزة أفضل ناقد فبدأ نجمه يسطع. وبدأ حياته العملية أستاذًا يتنقل بين الجامعات الأمريكية الكبرى حتى استقر به المقام فى جـامعـة كولمبيـا أسـتـاذًا للغة الانجليـزية وآدابها والأدب المقارن. ومـنذ نشر كتـابه الأول عام ١٩٦٦ عن الروائـى جوزيف كونراد وكتبه تحوز الإعـجاب وتفوز بالجوائز ، الأمر الذى أكسب آراءه مصداقيـة وحقق لها الانتشار واتساع التأثير، وخـصوصًا بعد ذيوع المذهب النقـدى الذى ارتبط باسمـه، والذى يشار إليـه عادة باسم نظرية ما بعد الاستعـمار، وهو المذهب الذى ساهم مع غيره من المذاهب النقدية الحديثة (مثل التاريخية الجديدة - فى أمريكا - والمادية الثـقافـية ، فى بريطانيـا) فى تأكيـد ' العودة' إلى النظرة التكاملية أو الكلية للأدب باعتباره نشاطًا إنسانيًا 'ثقافيًّا' بمعنى أنه ينبع من الثقـافة الخاصة لكل مجـتمع ويصب فيهـا ، ولذلك فقد اقـترن اسـمه كـذلك بالنظرة الجديدة إلى الاسـتشـراق وما فـعله المستشرقون من رسم الصـورة التى يريدها الغرب للشرق حتى بدا أنها صورة حقيقية ، على زيفها ، وهو الذى دعا سعيد إلى إعادة النظر فى كتـاباتهم ، على نحو ما يعيـد النظر فى هذا الكتاب فى كتابات الغـربيين عن الإسلام ، والتنبيه إلـى أوجه الانحراف عن الصواب ، وإلى التعصب المقيت الذى تمليه المصالح المادية المحضة

للرأسمالية المتضافرة مع نظم الحكم فى الغرب عمومًا ، وفى الولايات المتحدة بوجه خاص.

وإذا كان صحيحًا أن أهم تأثير لإدوارد سعيد فى الحياة الأكاديمية الأمريكية ، فى رأى تيرى جولدى ، هو أنه كان من أبرز الذين قدموا نظرية النقد الأوروبية المعاصرة إلى الدارسين ، باعتباره من مؤيدى فوكوه ومن معارضى دريدا ، فإن إسهامه الأصيل فى النقد الأدبى الإنجليزى لا يقل أهمية عن آرائه النقدية فى أصحاب هذه النظرية ، ولا تزال نظرية ما بعد الاستعمار ، بمعنى تحليل العلاقات القائمة بين الدول الكبرى التى كانت لها مستعمرات ، والدول الصغرى التى تحررت من الاستعمار ، نظرية متماسكة يهتدى بها دارسو آداب هذه الدول التى تحررت ، وينظرون من خلالها إلى تركة الأفكار الخاصة التى خلّفها الاستعمار ولا تزال تتحكم فى مسيرة هذه العلاقات على المسرح الدولى. وسوف ألخص معنى هذه النظرية (أو النظريات) فيما يلى:

أهم أعمدة هذه النظرية هو التشكيك فى عدد من الأفكار الأساسية التى خلفتها التركة الاستعمارية ، ومن بينها الإيحاء بأن الاستعمار أفاد البلدان التى تعرضت له ، من حيث 'النهوض' بها صناعيًا ، و'تحديثها' ، بمعنى مساعدتها على الأخذ بأساليب الحياة 'الحديثة' سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ، حتى تلحق بركب

'الحضارة' ، والمقصود هو الحضارة الغربيــة الحديثة ، كأنما تقتصر الحضارة البشرية على نسق الحياة فى مجـتمعات الغرب الرأسمالية وحده ، ومن حيث الإيحاء 'بتفوق' التراث الأدبى الأوروبى وما بُنى على افـتراض هذا التـفـوق من مناهج لدراسة الأدب المقـارن تقول بالتأثيـر المحتوم لما هو ' متفوق' على ما هو ' متخلف' ، وعمومًا من حيث الإيحاء بتفوق ثقافة القوة المستعمرة (بكسر الميم) على نحو ما يصر عليه البـعض مثل برنارد لويس وأضرابه ، كما إن من عمد هذه الأفكار إثارة قضايا مهـمة تتعلق بالانتماء العرقى والتعصب العنصرى ، والاستـغلال بشتى صوره ، حتى بعد زوال الاستعمار . ويقول چوناثان هارت إن من أهم عناصر هذه النظرة موقع 'أفراد الرعـية' فى البلدان التى تحـررت من الاستعـمار ، ويقصد بذلك مـا أورثه الاستعمـار للفرد فى هذه البلدان من نظرة دونيَّة إلى ذاته ، وهى نظرة تتـصل بالتصوير المتسق لـه ولأمته فى كتابات المستشرقين وأدب الأدباء ، وهو ما يركز عليه إدوارد سعيد تركيزًا خاصًا فى كتابه **الاستشراق** *(Orientalism)* . ويقول سعيد فى هذا الكتـاب الذى سـاهم به فى إرسـاء أسس نظرية مـا بعـد الاستعمار إن الصور التى تمثل الشرق فى الكتابات المذكورة تؤثر لا فى الدراسـات الأكاديمية فـحسب بل فى رؤيـة أبناء البلدان التى تحررت من الاسـتعـمار لذواتهم ، ويؤكد أن هـذه الصور لا تمثل الحقـيقـة الباطـنة للثقـافة وإن كـانت ترسم الهيكل القـائم الذى ساعـدت على إقامته ظروف الإمـبريالية والعنصـرية . وهكذا فإن

نظرية إدوارد سعيد قد ساهمت بصورة مباشرة فى تدعيم أسس النقد الثقافى الذى أتى بالدراسات الثقافية الخالصة إلى ميدان النقد الأدبى ، وأتى إليه كذلك بنظريات النقد النسوى ، وخصوصًا 'النظرة' التى تقول بضرورة تحرير المرأة فى البلدان التى تحررت من الاستعمار من الصورة النمطية التى رسّخها الغرب لها أو دأب على محاولة ترسيخها ، وهى صورة الأَمَة التى لا حول لها ولا طول ، فى بلدان الشرق عمومًا ، وفى بلدان إفريقيا وآسيا بصفة خاصة ، فهى صورة قد تمثل بعض حقائق الواقع 'القديم' ولكنها لا تمثل الحقيقة كلها ، وما فيها من جوانب الصدق لا يرجع برمته إلى الثقافة الشرقية الأصيلة بل هو فى بعض جوانبه من ثمار عوامل تاريخية معينة ، فرضت فرضًا على تلك المجتمعات ، وعانى منها الرجال مثلما عانت النساء . وهذا الفرع من النقد الثقافى مهم فى نظر إدوارد سعيد لأنه يتصل بالإطار العام للاستعمار وما خلفه وما ترتب عليه من آثار، تهم الناقد الأدبى والدارس الأكاديمى جميعًا .

وقد بدأ ذيوع صيت إدوارد سعيد على المستوى الدولى ، كما نعرف، عندما نشر كتاب **الاستشراق** عام ١٩٧٨ ، ولكنه كان قد أثبت امتيازه ورسوخ قدمه فى ميدان النقد الأدبى بصفة عامة عندما نشر كتابه الأول (الذى كان أصلاً رسالة الدكتوراه التى أنجزها فى هارڤارد) وعنوانه **جوزيف كونراد وخرافة السيرة الذاتية** *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography* (١٩٦٦) وأذكر أنه أحدث دويًا هائلاً فى أوساط دارسى الرواية ، فالكلمة التى

ترجمتها 'بالخرافة' تتضمن تورية من المحال إخراجها فى الترجمة، فقد تعنى التخيل أو الوهم (بالمعنى العام) وقد تعنى فن الرواية الخيالية أو القصة الخيالية ، طالت أم قصرت ، وهو يقارن فيه بين الصورة التى يرسمها كونراد لنفسه فى خطاباته ، معتبرًا إياها ضربًا من ضروب السيرة الذاتية ، وبين الروايات والقصص التى كتبها ، قائلاً إن الكاتب كان يحاول فيها تحقيق ما عجز عن تحقيقه فى سيرته الذاتية غير المباشرة ، فكان بذلك يطبق 'التعارض الثنائى' أو 'الثنائية المتعارضة' التى أتت بها سيمون دى بوفوار بين الذات والآخر (بل وحتى بين الذات والموضوع) بمعنى أنه يفسر سيرة الحياة الحقيقية للكاتب كونراد باعتبارها **الذات** ، ويفسر أدبه وما يتجلى فيه من صورة غير مباشرة لما كان 'يعتزمه' وعجز عن تحقيقه باعتباره **الآخر** ، وهكذا فهو يخرج لنا نظرة تقوم على التعارض ما بين الذات والآخر فى حدود التعارض بين القصد (أو العمد) وبين التحقيق أو العجز عن التحقيق ، الأمر الذى يقيم وشائج مهمة بين منهجه ومنهج 'الظاهراتية' أو الفينومينولوچيا الذى أرسى أسسه الفيلسوف إدموند هوسيرل وطوره الفيلسوف مارتن هايديجر فيما بعد (وأيضًا موريس ميرلو - پونتى). فمذهب الظاهراتية يصر على أن القصد أو العمد هو أساس كل وعى إنسانى ، وأن 'الوعى' لا يتحقق إلا بوجود هذا القصد أو العمد، وأنا أذكر ذلك لتبيان التوجه الفلسفى المبكر فى كتابات إدوارد سعيد ، وما استتبعه من 'التجريد' الذى يضفى على

أسلوبه عمقًا خاصًا ويجعل ترجمته إلى العربية شاقة عسيرة .
وربما كنت أذكره أيضًا لإيضاح ما يعتبره مؤرخو النقد الأدبى المعاصر أكبر مساهمة لإدوارد سعيد فى النقد الأدبى بصفة عامة وهو كتابه المهم **البدايات : المقصد والمنهج** : *Beginnings Intention and Method* الذى أصدره عام ١٩٧٥ ، فإن اهتمام سعيد بالمقصد لا يتوقف عند التطبيق (فى حالة كونراد) بل يتطور إلى نظرية كاملة نرى فيها الاهتمام الموازى 'بالتعارض الثنائى' الذى قد تكون له جذوره فى 'الفكر البنيوى' ولكنه يتطور عند سعيد ليصبح نظرة عامة إلى موقف الأديب ، تذكرنا بموقف هارولد بلوم (الذى أتى فيما بعد) عن 'قلق التأثير' . وهذه المجردات فى حاجة إلى إيضاح : يقول سعيد فى مقدمته لطبعة عام ١٩٨٥ من ذلك الكتاب إنه يفرق بين مفهوم **البُنُوّة** (filiation) **والاتّباع** (affiliation) . أما البنوة فتتضمن **حتمية** ' بيولوجية' فالابن لا يملك إلا أن ينحدر من نسل أبوين ، يرث منهما صفات معينة ، شاء ذلك أم أبى ، وأما الاتباع فيقوم على **الاختيار** أى على القصد ، والتعارض بين هذين القطبين (أى هذا التعارض الثنائى) يفسر فى نظر سعيد الخطأ الذى وقعت فيه بعض المذاهب التى أتت بها النظرية الحديثة حين زعمت أن كل نتاج أدبى ينتمى وفقًا لقانون الحتمية ، أى حتمية البنوة ، إلى ما سبق إنتاجه من أدب ، فكأنما ينتمى وفقًا لقانون البنوة للأسلاف ، الأمر الذى ينفى إمكان وجود بداية جديدة لأى شىء ، أى وجود ما يسميه

سعـيد 'البدايات' ، ولكن إدوارد سعـيد يرفض هذا التعـميم ، ويقول إننـا حتى لو استطعـنا أن نجد ظلالاً 'لأصول' أى 'فكرة' فيـما سـبق من كتـابات أو أقوال ، فـلابد أن الكاتب أو الشـاعر الأصـيل يسـتطيع أن يأتـى بالجـديد ، وأن يضع فى أدبه جـذوراً جديدة قد تشبه بعض ما سلف فى بعض المظاهر ، ولكنها - حتى ولو كانت تقوم على 'الاتباع' - تأتى قطعًا بالجديد ، ولابد من اعتبارها **بداية** من لون ما .

وليس الغرض من هذا كله أن أقـدم عرضًا مبـسّطًا أو موجزاً لموقف إدوارد سعـيد 'النقدى' أو مكانته بين نقـاد العالم اليوم ، فهى مهمة تتطلب مجلـدًا أو أكثر ، ولكننى أقدم وحسب ما أرى أنه يوضح مذهبه الفكرى فى الكتاب الذى بين أيدينا، فهو مذهب تكاملى دينامىّ ، بمعنى أنه يربط بين الظواهر المختلفـة فى المجتمع (التى يكمل بعضها بعضًا) ويقبل مبدأ الحركة والتغير (أى الدينامية) باعـتبـاره المبدأ الذى لابد من وضـعه أسـاسًا لتـحليل أى ظاهرة إنسانية، ومن بينها الفكر والأدب . فـإعجابه بفكرة الذات والآخر عند بوفوار جعله يطورها ويوسع من نطاقها بحيث تتجاوز العلاقة بين الرجل والمرأة وتضـــم فى إطارها ـواسع العلاقة بين 'الشرق والغرب' ، وإعجابه بفكـرة القصد أو العمد فى الظاهـراتية تجعله يطورها ويوسع من نطاقها فى تحليله لكتابات الغرب عن الشرق ، ونظرة المستشرقـين إلى الشرق ، وما ينسبونه عمدًا (نـتيجة الوعى الذى لابد له من القصـد أو العمد عند هوسيـرل) إلى الإسلام ،

ولذلك فلن أضرب أمثلة لمنهج إدوارد سـعيد النقدى والفكرى من كتابه **البدايات** ، وكنت أحب أن استطرد لعرض حديثه الممتع عـن 'مقصد الكاتب' والتعارض بينـه وبين 'تحقيق غايته' فى كتاباته ، وخصوصًا ما يسميـه سعيد الصور التى تمثـل هذا القصد أو هذه الغاية ، فهذه الصور الـتمثيلية (representations) يكثر الحديث عنها فى ثنايا كتاب **تغطية الإسلام** ، مثلما يضرب سعيد أمثلة لها ويقدم نماذج مـقنعة فى كـتاب **البدايات** من كتـاب فرويد **تفسـير الأحلام** ، ومثلما يعود إليها فى كتابه العمدة **الاستشراق** . ويكفى أن نقول فى هذه العجالة إن سـعيد قد أعاد ' اكتشاف' الفيلسوف ڤيكو الذى يشير إليه فى هذا الكتاب فى مطلع الفصل الأخير عن **المعرفـة والسلطة** باعتـباره تلمـيذ فـرانسيس بيكون ، وهو يعـيد اكتـشافـه بعد أن ظل كـتابه **'العلم الجـديد'** مهـملاً ولا يحظى بالاهتمـام اللائق به على امتداد القرن الثـامن عشر ، حتـى اشتد سـاعد العلم الطـبيـعى فى القـرن التاسع عـشـر فأبدى الكتـاب الأوربيون اهتمامًا (ولو محدودًا) به .

وأمّا جامباتستا ڤيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) فقد ارتبط اسمه فى أذهان دارسى المذاهب النقـدية بالمذهب التـاريخى (القـديم) الذى يعتـبر أقـرب المذاهب إلى المنهج ' السياقى' التكاملى قـبل ظهور التاريخية الجديدة التى أضافت إليه بعض العناصر من بينها معارضة الفـصل بين المبـاحث العلمـيـة ، وضـرورة الاهتـمـام بالعـوامل الاقـتصـادية التى تتحكم فى الـثقـافة ، وتحليل كـتابات الكُتّـاب

باعتبارها دلائل غير مباشرة على تفاعلهم مع ثقافة عصرهم، ومن ثم على التناصّ المحتوم فى كتابات العصور المتوالية . وغير دارسى النقد يرون فى ڤيكو مبدعًا فكريًا فى مجال الدراسات التى أتت فيما بعد بعلوم السلالات البشرية (الأنثروبولوچيا) وعلم الأعراق (إثنولوچيا) ولكن إدوارد سعيد يركز على منهجه العلمى الذى سبق به عصره، بل أغضب رعاته الكنسيين حين أصدر كتابه الذائع عام ١٧٠٩ الذى يدعو فيه إلى الدراسة العقلانية (بالمعنى الحديث) للعصر ، فتخلوا عنه فأصدر على حسابه الخاص كتابه الأهم وهو **العلم الجديد** (١٧٢٥) . فالمنهج العلمى عند إدوارد سعيد هو الذى يجعل من ڤيكو خير شارح لما يدور فى أواخر القرن العشرين لا فى أوائل القرن الثامن عشر فحسب ، وهو من ثم ينتفع بالنتائج التى توصل إليها ڤيكو عن العلاقة التكاملية الدينامية بين السياق التاريخى والنص المكتوب ، لا فى كتب سعيد الأولى فقط بل فى كتابه **الاستشراق** الذى وصفته بالعمدة .

أصدر سعيد كتابه **الاستشراق** عام ١٩٧٨ فكان نقطة تحول بالغة الأهمية فى مسار نظرية النقد الأدبى الحديثة ، لا كما يقول أحد النقاد فى فكر سعيد أو عمله فحسب ، إذ فتح هذا الكتاب الباب أمام دروب جديدة فى الدراسات النقدية لا لكتابات الغربيين عن الشرق فقط ، بل أيضًا لكتابات الدول التى تحررت من الاستعمار عن ذواتها ، خصوصًا فى إطار وعيها المحتوم بما خلفه الاستعمار من آثار 'ثقافية' ، فإذا كان رأى تيرى جولدى يقول إن

كتـاب **الاستشـراق** نموذج لما أصـبـح يسمـى نقـد الاستـعمـار (colonial critiquae) فإن سعيـد نفسـه يطلق عليه اسم 'نقد مـا بعـد الاستعمار' (Postcolonial criticism) وتبرز معالمه فى هذا الكتـاب الذى يقتـصر فى ظاهـره على تقديم الكتـاب الأوروبيين للصـور التى تمثل الشـرق (بحـيث أدت إلى تكوين الصـورة التى يريدونها للشـرق والاصرار على صدقهـا بزعم أنها تمثل الحقـيقة) ولكن الكتاب يقدم فى ثنايا عرضه وتعليقاته ما سبق لى أن أشرت إليـه من نظرات نقـدية جـديدة ، ولنكتف بمثـال واحـد من ذلك الكتاب على منـهجه ، فـهو يدلّل بنماذج مـفحمـة على أن صور الشرق كانت 'تباع' للغرب فى ظل نظام 'اقتصادى' يحكمه الربح المادى والفائدة المعنوية ، فـما يريده السوق يقدمـه الكُتّاب ، سواء كانوا يكتبـون كتابات عامـة أو إبداعية أو ' علمية' (مزعومة) ، فالسـوق يريد صور مـكان غريب متـخلف عن ركب الحـضارة ، يسوده التفكير اللاعـقلانى ، وتسود فيه المتع الحسيـة ، وخصوصًا الاستغـراق فى الملاذ الجنسية ، سواء كـان ذلك مما يتفق مع الواقع كله أو يختلف عنه فى بعـض التفاصيل المهـمة التى قد تغـيِّر من 'حقـيقـة' الصورة . وإدوارد سـعيـد يواصل هذا المنهج فى هذا الكتاب ، فيـبين أن الصور التى تمثل 'الإسلام' أى عالم المسلمين منتقـاة بعناية لتلبية احـتياجـات سوق من نوع آخر ، سـواء كانت السياسات الحكومية ، أو ما يسمى 'بالمصلحة القومية' ، وسعيد يثبت أنه ليس فى 'صالح' الغرب بصفة عـامة والولايات المتحدة

بصفة خاصة تكريس هذا الاستقطاب أو العداء أو انصدام المزعوم بين الثقافات أو الحضارات ، بل يقول إن هذا ينشئه إنشاءً ويعمل على تنميته بما يغذوه من تشويه له ، بحيث لن يؤدى استمرار ذلك النهج إلا إلى يأس الشرقيين من تفهم الغربيين لهم ، وقد يدفع اليأس إلى الإرهاب ، أو إلى الهجمات الانتحارية ، أو إلى الحروب ، وهو ما أثبتت الأيام صحته فتحقق فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما تلا ذلك من غزو أفغانستان والعراق .

والمنهج الذى يتبعه إدوارد سعيد على درب 'النقد الثقافى' يتميز إذن بالاتساق ، فهو يتجلى فى أكثر من نسق من الأنساق التى يتسم بها ما يكتبه فى شتى المجالات حتى حين يتكلم عن الموسيقى فى أحد كتبه وهو '**تنويعات موسيقية**' *(Musical Elaborations)* الصادر عام ١٩٩١، وهو يعتمد على خبرته الخاصة فى العزف على البيانو (وهو من المشهود لهم بالبراعة فى هذا المجال) فى تأكيد مذهبه الذى يقول بوجود الإطار الاجتماعى المحتوم، حتى لعازف البيانو، وهو الذى يبدو أنه يتجاوز المجتمع فى عزفه وإن كان محكومًا فى الواقع بهذا المجتمع ! وهو يدلل على ما يذهب إليه بأمثلة من حياة عازف البيانو الشهير ، والمفكر اللامع جيرالد جولد (الذى قيل إنه يكره الجنس البشرى) وغيره ، كما يضرب أمثلة من غيره ، وليس فى هذا ، كما قال البعض ، 'انحراف' عن منهجه وإن كان يتحدث عن الموسيقى ، فأنا أعرف من خبرتى الخاصة بالموسيقى مدى ارتباط ذلك الفن بالمجتمع

وبالثقافة بصفة عامة ، وإن كنت أدهش للتحليلات ' التجريدية' المذهلة التى يأتى بها سعيد (ذلك الذهن العبقرى) للحدود التى يتقيد بها 'فن الصنعة' الصِّرف ، وهى التى لا يملك أن يتخطاها، وما يدفعه المجتمع وتدفعه الثقافة دفعًا إلى تخطيه .

وتعجّلاً لاختتام هذه المقدمة التى أريد لها أن تقتصر على 'التعريف' بإدوارد سعيد ، الذى أرجو أن يستمتع القارئ بأفكاره التى كسوتها ثوبًا عربيًا مثلما استمتعت بقراءة النص بإنجليزيته العميقة ، سوف أوجز عرض الجانب الآخر لهذا المفكر ، وهو دفاعه العقلانى المتمهل عن القضية الفلسطينية . وسأبدأ بالإشارة إلى ما بين يدىّ من كتبه (وما ليس عندى كثير) فأقول إن منهجه فى النقد الثقافى الاجتماعى يستمر فى بعض كتبه الأخرى ، مثل كتاب **العالَم والنَّص والناقد** *(The World, the Text and the Critic)* (١٩٨٣) وهو مجموعة مقالات بالغة الأهمية ، وفى **العلم والسيف** *(The Pen and the Sword)* (١٩٩٤) وهو حوار مع داڤيد بارساميان ، مع مقدمة بقلم إقبال أحمد ، وسوف أقتطف من هذه المقدمة عبارات محدودة ، وهى التى تمهد لمن يريد قراءة كتبه المهمة الأخرى ، وعلى رأسها **المسألة الفلسطينية)** *(The Question of Palestine)* (١٩٨٠) وكذلك **سياسات السلب والتجريد : كفاح الفلسطينيين فى سبيل تقرير المصير** *The Politics of Dispossession : The Struggle for Palestinian Self-Determination 1969-1994)* (١٩٩٤) وهو من أهم كتبه العامة على الإطلاق . يقول إقبال أحمد :

كان سعيد من أوائل دعاة السلام مع إسرائيل . ولو كان عرفات قد استجاب للاقتـراح الذى عرضه [سعيد] عليه فى بيـروت فى خريف ١٩٧٨ ثم فى مـارس ١٩٧٩ - وهو يكشف هنا عن تفاصيل هذا الاقـتراح لأول مرة - فربما كـان من الممكن التوصل إلى تسـوية معـقولة بين الفلسطينيين والإسـرائيليين . وسعيـد يعتبـر أن الاتفاق الحـالى بين الجـانبين يمثل " اسـتسـلامـًا" من جـانب عرفات، ويقدم الأسباب التى تبرر هذا الرأى . وينبغى لى أن أدع الفصل فى هذه القضية للآخرين وللتاريخ ، لكننى أشـير هـنا وحسب إلى جـوانب اعـتراضـه التى تتـعلق بتكوينه الذهنى . وتتـضمن انشـغاله بما يسـمى الذاكـرة ؛ وبوجهـة نظر المقـهورين ؛ وبالتـزامه بعـدم السماح مطلقًا لأسطورة أو وجـهة نظر فاسدة سائدة أن تصبح جـزءًا من التاريخ دون مـا يقابلهـا من أضداد . ومما لا يقل أهمية فى عـمله إحساسه العمـيق بالخسارة الشخصية والجماعية، ونشدانه للبدائل الإيجابية والعالمية لما يتسم بالطائفية من أيديولوجيات وأبنية ومزاعم. وفى ثنايا عمله كله نرى هذه الموضوعات وقـد التحمت معًا بخيوط تربط ما بين المعـرفة وبين السـلطة وتقيم الوشائج ما بين الثقافة وبين الإمبريالية . وهو يقيم هذه الوشائج بأساليب تفتح الدروب إلى البـديل الأقوى والإنسانى -

فلنسمه فلسفة مضادة ، أو ثقافة مقاومة ، أو الوعد بتحرير غير طائفى ، وعلمانى . (ص ١١ - ١٢) .

وسوف ألمح إلى أهم كتبه فى هذا المجال وهى دون ترتيب **الثقافة والإمبريالية** *Culture and Imperialism* (١٩٩٣) الذى يضم دراسات منوعة تدور فى الفلك نفسه ، وكتابه الأخير ، وأطول كتبه وهو **تأملات فى المنفى ومقالات أخرى** *(Reflections on Exile and Other Essays)* (٢٠٠٠) والطبعة التى لدى صادرة عام ٢٠٠٢ ، ويضم دراسات عميقة ممتعة ، بعضها عن الأدب الأمريكى ، وبعضها عن موضوعات عربية مثل دراسته عن تحية كاريوكا ، وعن المشهد الأدبى فى مصر ، وعن نشأته الخاصة فى القاهرة ، وعن فن الرواية عند أهداف سويف وغير ذلك .

وليأذن لى القارئ أن أذكر شيئًا عن هذه الترجمة ، فلقد كنت اعتدت قراءة ما يكتب إدوارد سعيد بالانجليزية دون أن أتصور أننى سوف أترجم منه أى شىء ، وكان ينتابنى مزيجٌ من الإشفاق والإعجاب بمن يتصدى لترجمته بسبب إغراق سعيد فى 'التجريد'، وهو من 'ضرورات' التفكير الفلسفى ، وبسبب تعقيد أبنيته واتكائه على المصطلح الانجليزى القح ، ومزجه النبرة العامية أحيانًا بالنبرات 'المتقعرة' لكبار النقاد الذين اعتدناهم فى دراستنا للأدب الانجليزى ، وعندما اقترح علىّ الناشر ، الأستاذ رضا عوض ، ترجمة هذا الكتاب امتزج الشعور بالإشفاق والوجل بإحساسى الدفين بالتحدى ، وكان لابد أن أقهر الشعور الأول

وأستجيب للتحدى ، وكان معنى ذلك قضاء وقت أكثر مما قدرت فى الترجمة والمراجعة ، وحاولت أن أنقل للقارئ بإخلاص وأمانة صورة صادقة لفكر إدوارد سعيد وأسلوب صوغ هذا الفكر ، ولو اقتضى ذلك بعض الالتزام الحرفى بما يقول ويصوغ فى بعض المواضع ، ولكن دون جور على الوضوح الذى أبتغيه فى كل ما أكتب وأترجم . وأرجو ألاّ يجد القارئ صعوبة فى تتبع مسار فكر الرجل العظيم بعد أن أنطقته بالعربية ، وأن تصل رسالة الكاتب بوضوح إلى الجميع . فإذا وجد القارئ هنات هنا وهناك ، وهو أمر محتوم ، فأرجو منه الصفح ، فالإنسان غير معصوم من السهو والخطأ .

محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠٥



■ المقدمة ■

هذا هو الكتاب الثالث والأخير من سلسلة الكتب التى حاولت فيها تناول العلاقة القائمة فى العصر الحديث بين عالم الإسلام والعرب والشرق من ناحية ، وبين الغرب وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة من ناحية أخرى . وكتابى الاول **الاستشراق** هو أشد هذه الكتب تعميمًا إذ يرصد شتى مراحل تلك العلاقة منذ غزو نابليون لمصر ويتناول الفترة الاستعمارية الرئيسية ونشأة دراسات المستشرقين الحديثة فى أوروبا حتى انتهاء الهيمنة الإمبريالية، البريطانية والفرنسية ، على الشرق بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السيطرة الأمريكية فى الوقت نفسه . وأما الأساس الفكرى الذى يقوم عليه كتاب **الاستشراق** فهو الارتباط الوثيق بين المعرفة[1] وبين السلطة أو القوة.

ويقدم الكتاب الثانى وعنوانه **المسألة الفلسطينية** تاريخ حالة

خـاصـة، إذ يعـرض للصـراع ما بـين السكان العـرب الأصليين لفلسطين، ومعظمهم من العرب، وبين الحركة الصهيونية (إسرائيل فيمـا بعد) ذات المنشأ الغـربى والتى تنتهج فى تعاملها مع حـقائق الواقع "الشرقى" نهجًا غربيًا إلى حـد كبير . وتحاول دراستى عن فلسطين كـذلك ، وبمنهج أشد صراحـة من منهج **الاستـشراق** ، وصف ما اختفى ويختفى تحت السطح فى الرؤى الغربية للشرق ، وهو فى هذه الحالة ، الكفـاح الوطنى الفلسـطينى فى سبـيل تقرير المصير(٢) .

وأما فى **تغطية الإسلام** فإن موضوعى معاصر بصورة مباشرة، وهو المواقف الغربيـة ، والمواقف الأمريكيـة خصوصًـا إزاء العالم الإسلامىّ الذى بدأ الغربيون يرون، منذ مطلع السـبعينيات، أن له صلةً وثيقةً بهم ، ومع ذلك فهو يموج بالقلاقل المعادية لهم، ويمثل

مشكلة لهم . وكـان من بين أسبـاب هذه الرؤية إحساسـهم الحاد بنقص إمـدادات الطاقة ، وهو الإحـساس الذى تركـز على النفط العـربى ونفط الخـليج العـربى ، وعلى منظـمـة البلدان المصـدرة للبترول (أوبك) والآثار الضارة الناجمة عن التضخم فى المجتمعات الغربيـة وارتفاع أسعـار الوقود ارتفاعًـا بالغًا. أضف إلى ذلك أن الثـورة الإيرانية وأزمـة الرهائن قـدمتـا أدلة جديدة ، وتدعـو إلى الانزعـاج ، على صـحـة مـا أصـبـح يشـار إليـه باسم " عودة الإسلام". وأخيرًا لمحنا عودة ظهور المشاعر الوطنية الراديكالية فى العالم الإسلامى ، وما تبعها من اشتداد المنافسة بين الدول العظمى هناك ، وهو ما يؤسف له بصورة خاصـة. فأمّا المثال على الظاهرة الأولى فهـو الحرب بين العـراق وإيران ، وأما المثـال على الظاهرة الثانية فهو التدخل السوفييتى فى أفغانستان والاستعدادات الأمريكية لما يسمى بقوات الانتشار السريع فى منطقة الخليج .

ورغم أن التورية فى عـنوان هذا الكتاب ، "تغطية الإسلام" سوف تـتـضح لأى قارئ له ، فـإنه قد يتطلب تفسـيرًا مـبسطًا فى البـداية. فمن الأفكار التى أطرحـها فى هذا الكـتاب وفى كـتاب **الاستشراق** أن مصطلح "الإسلام" ، فى السياقات التـى يستعمل فيها اليوم ، يعنى فى ظاهـره أمرًا واحدًا بسيطًا ، وأما فى الواقع، فالمصطلح من أحد جوانبه ليست له دلالة واقعية ، وهو من جانب ثان لا يزيد عن كونه بطاقة أيديولوجـية وهو من جانب ثالث اسم لا يتجاوز الحدود الدنيـا فى الإشارة إلى الدين الإسلامى . فنحن

نرى أولاً أن المصطلح بالصورة التى يشيع فيها لدى الغربيين لا ينطبق انطباقًا واقعيًا على صور الحياة البالغة التنوع داخل عالم الإسلام ، وهو الذى يربو عدد سكانه على ثمانمائة مليون نسمة ، وتصل مساحة أراضيه إلى ملايين الأميال المربعة ، معظمها فى إفريقيا وآسيا ، إلى جانب عشرات مجتمعاته ودوله ، وأشكال تاريخه وجغرافيته وأنماطه الثقافية . وفى مقابل ذلك نرى أن "الإسلام" أصبح يرتبط اليوم فى الغرب بالأنباء المثيرة المفجعة بصفة خاصة ، للأسباب التى أناقشها فى غضون هذا الكتاب . فلقد شُغِلَتْ أجهزة الإعلام الغربية بتغطية الإسلام فى الأعوام القليلة الماضية ، خصوصًا منذ أن لَفَتَتْ أحداث إيران أنظار الناس فى أوروبا وأمريكا إليه وشَغَلَتْهُمْ حقًا ، فإذا بهذه الأجهزة تتصدى لتصوير الإسلام ، وتحديد ملامحه ، وتحليله ، وتقدم دراسات فورية عنه ، ومن ثم فقد جعلته فى ظنهم "معلومًا" .

ولكن هذه التغطية ، كما ألمحت إلى ذلك ضمنًا ، تغطية مضلِّلة حتى ولو بدت شاملة ، ويضاف إليها عمل الخبراء الأكاديميين فى الإسلام ، ورجال الاستراتيجيات الجغرافية السياسية الذين يتحدثون عن "هلال الأزمة" وعمل المفكرين الثقافيين الذين ينعون "تدهور الغرب" . ومصدر التضليل هو أن التغطية توحى لمن يتلقون الأنباء بأنهم قد فهموا الإسلام ، دون أن تقول لهم إن جانبًا كبيرًا من هذه التغطية النشطة يستند إلى مادة أبعد ما تكون عن الموضوعية . فلقد أدى استعمال مصطلح "الإسلام" إلى

السمـاح بقدر واضح من الأخـطاء، وبأقوال تنم عن التـعبـير عن التحيز العرقى الشديد ، والكراهية الثقافية بل والعنصرية ، والعداء العـميق الذى قـد يتذبـذب صعـودًا وهبوطًا ، وهذه من إحـدى المفارقات . ويجرى ذلك كله فى إطار ما يُفترض أنه تغطية منصفة متـوازنة مسـئولة للإسلام . وبـغضّ النظر عن عدم تناول أجـهزة الإعلام للمسيحية أو لليهودية بنفس الحماس الانفعالى الذى تتناول به الإسلام ، وإن كـان كل منهما يمرّ بـنهضة بارزة (أو مـا يسمى ''العودة'') فالافتراض المسلَّم به هو أنـه من الممكن تحديد صفات الإسـلام دونما حـدود باسـتعـمـال حـفنَة من القـوالب اللفظيـة (الكليشـيهات) التى تتسم بالـتعميم الذى ينم عن التـهور ، والتى تستخـدم مرارًا وتكرارًا . ودائمًا مـا يُفترض أن ''الإسلام'' الذى يتحدثـون عنه شىء حقيقى ثابت له وجـود واقعى فى المكان الذى تصادف أن وُجدت فيه إمداداتُ ''بترولهم'' .

ولقد صـاحب هذا اللون من التـغطية قدر كـبيـر من التسـتُّر والتكتُّم. فعندمـا تحاول صحيـفة **نيويورك تايمز** أن تشرح المقاومة الإيرانيـة المدهشة للغـزو العـراقى ، نجدها قـد لجأت إلى المقـولة القديمة من أن ''للشيعة ولعًا بالاستشهاد'' وأمثال هذه المقولات لها حظُّهـا من القبـول من الناحيـة السطحيـة ، ولكننى أعـتقد أنـها تستخدم لتـغطية الكثير مما لا يدرى الصحفىّ عنه شـيئًا . والجهل باللغة لا يمثل إلا جانبًـا واحدًا أشمل وأعظم ، إذ كثيـرًا ما تبعث الصحيفة بمراسلها إلى بلد غـريب، دون استعداد ودون خبرة ، لا

لسبب إلاّ لذكائه وقدرته على التقاط الأنباء بسرعة، أى للماحيته، أو لأنه تصادف وجوده فى مكان قريب من الجبهة التى تزوّد الصحيفة بأنباء الصفحة الأولى . وهكذا فبدلاً من محاولة معرفة المزيد عن ذلك البلد، نجد أن الصحفى قد التقط ما هو قريب منه، وعادة ما يكون كليشيهًا أو فكرة صحفية جذابة ليس من المحتمل أن يشك فى صحتها قراء صحيفته فى بلده . وهكذا وجدنا ما يقرب من ثلاثمائة صحفى فى طهران فى الأيام الأولى من أزمة الرهائن ، دون أن يكون من بينهم من يتحدث اللغة الفارسية ، ولم يكن من الغريب إذن أن تكرر جميع الأنباء الصحفية الخارجة من إيران ، فى جوهرها ، نفس المقولات البالية عن الأحداث الجارية هناك . وبطبيعة الحال لم يلحظ أحد ولم يلتفت الناس إلى غيرها من الأحداث والتحولات السياسية فى إيران ، وهى التى تعذر تصنيفها باعتبارها نماذج "للعقلية الإسلامية" أو "لمعاداة أمريكا" .

وقد ساهمت أنشطة **تغطية** الإسلام **والتستر** على الإسلام فيما بينها إلى حد كبير فى صرف النظر عن المرض الذى تعتبر هذه الأنشطة من أعراضه ، ألا وهو المشكلة العامة المتمثلة فى الحياة فى عالم أصبح يتسم بقدر بالغ من التنوع والتعقيد إلى الحد الذى يستحيل معه إطلاق التعميمات الفورية والميسّرة . ومصطلح الإسلام نموذج ينطبق عليه هذا القول ، وهو نموذج ذو خصوصية أيضًا ، بسبب تاريخ الإسلام فى الغرب ، فهو تاريخ قديم وذو

سـمات مـحـددة بدقة ، وأعنى بذلك أن الإسـلام لا ينتـمى إلى أوروبا ولا إلى مجموعة البلدان المتقـدمة صناعيًا مثل اليابان ، بل يشترك فى عدم الانتماء المذكور مع سمات كثيرة أخرى من سمات عالم مـا بعد الاسـتعـمار ، إذ يعتـبر واقـعًا فى نطاق مـا يسمى ''المنظورات الانمائية'' وهى التـسمية التى تعنى بأسلوب آخـر أن النظرة السـائدة عـلى امـتداد ثـلاثة عـقـود على الأقل تقـول بأن المجتـمعات الإسـلامية فى حـاجة إلى ''**تحديث**'' . ونجمت عن أيديولوجـية التـحديث نظـرة خاصـة إلى الإسلام بلغت ذروتهـا وأوجهـا فى شاه إيران، سـواءً فى قمـة مجده باعـتبـاره حاكـمًا ''حديثًا'' أو عندما انهار نظام حكمه ، باعتبـاره ضحية من ضحايا الحركـة التى اعتبـرها الغربيون نموذجًـا لتعصب العـصور الوسطى واستمساكها بالدين .

ومن ناحـية أخـرى كان الإسـلام دائمًا ولا يزال يمثل تهـديدًا خاصًا للغرب ، للأسباب التى ناقشتها فى كتابى **الاستشراق** وأعيد فحصها فى هذا الكتاب . ومن المحال أن يقال عن أى دين آخر ، أو أى تجمع ثقـافىّ آخر ، وبنفس الدرجة من التـأكيد ، مـا يقال الآن عن الإسلام ، أى إنه يمثل تهديدًا للحـضارة الغربية . وليس من قبيل المصادفة أن تؤدى القلاقل والاضطرابات التى نشهدها فى عـالم المسلمين اليـوم (وهى التى ترجع إلى عـوامل اجتـمـاعيـة واقتصـادية وتاريخية أكثر مما ترجع إلى الإسـلام وحده) إلى فضح مناحى قـصور القـوالب الثـابتة (الـكليشـيهـات) التى وضـعهـا

المستشرقون وهى القوالب الساذجة التى تتحدث عن "الإيمان بالقدر" والتواكل لدى المسلمين ، دون أن يأتوا ببدائل لها سوى الحنين إلى الأيام الخوالى التى كانت الجيوش الأوروبية فيها تسيطر على عالم المسلمين كله تقريبًا ، من شبه القارة الهندية إلى شمالىّ إفريقيا . وما النجاحُ الذى لاقته الكتب والصحف ولاقاه كبار الشخصيات العامة الذين يدعون إلى إعادة احتلال منطقة الخليج ، مبررين دعوتهم بالحديث عن الهمجية الإسلامية، إلا جانب من جوانب هذه الظاهرة . ولا يقل عن ذلك غرابةً أن نشهد هذه الأيام ذيوع صيت بعض "الخبراء" فى أمريكا ، مثل ج.ب. كيلى، الأستاذ السابق للتاريخ الإمبريالى فى جامعة ويسكونسن، والذى كان يومًا ما مستشارًا للشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة (رحمه الله)(٣) والذى غدا ينتقد المسلمين ورجال الغرب الضعفاء الذين يختلفون عنه فى أنهم أسلسوا زمامهم "لعرب النفط" . ولقد عَرَضْتُ بعض المقالات لكتابه وانْتَقَدتُهُ أحيانًا دون أن تقول إحداها كلمة واحدة عن محاكاته للأجداد الإمبرياليين محاكاة صريحة تدعو إلى الدهشة فى الفقرة الأخيرة من هذا الكتاب ، وهى جديرة بالاقتطاف هنا بسبب ما تتضمنه من اشتهاء خالص للغزو الإمبريالى ومن مواقف عنصرية لا ينجح تمامًا فى إخفائها :

من المحال أن نتنبأ بطول المدة الزمنية التى بقيت لأوروبا الغربية حتى تحتفظ أو تستعيد ميراثها الاستراتيجى

شرقىّ السويس . ففى الفترة التى ساد فيها ما يسمى بالسلام البريطانى ، أى من العقد الرابع أو الخامس للقرن التاسع عشر حتى سنوات منتصف هذا القرن (العشرين) ساد الهدوء البحار الشرقية وحول سواحل غربىّ المحيط الهندى . ولا يزال الهدوء المؤقت قائمًا فى تلك المناطق ، لكنه ظلٌّ عابرٌ من ظلال النظام الإمبريالى القديم ، فإذا كان لنا أن نتعلم شيئًا ما من التاريخ فى القرون الأربعة أو الخمسة الماضية ، فهو أن ذلك السلام الهش لن يستطيع الصمود طويلاً . إن معظم بلدان آسيا قد انتكست فعادت إلى الحكم الاستبدادى ، وعادت معظم إفريقيا إلى الهمجية -أى باختصار إلى الحال التى كانت تعيشها قبل أن يكتشف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح ويضع أسس سيطرة البرتغال على الشرق . . . لا تزال عُمان مفتاح التحكّم فى الخليج ومداخله البحرية ، مثلما لا تزال عدن مفتاح المرور فى البحر الأحمر . ولقد تخلت الدول الغربية من قبل عن أحد هذين المفتاحين ؛ وأما المفتاح الآخر فلا يزال فى متناول أيديها . لكننا لم نعرف حتى الآن ما إذا كانت لديها الجرأة اللازمة ، مثل ربابنة البرتغال القدماء ، للقبض عليه[٤] .

وإذا كان بعض القراء قد يجدون غرابة وطرافة فيما يوحى به

كـيلى من أن الاستـعـمار البـرتغالى فى الـقرنين الخـامس عشـر والسادس عشر يعتبر أنسب مرشـد للسياسيين الغربيين المعاصرين، فإن تبسيطه للتاريخ هو أشـد ما يمثل الاتجاه الفكرى الراهن . فهو يقول إن الاستعمار أتى بالهدوء ، كـأنما كان إخضاع ملايين البشر نعيمًا مثاليًا وكأنما كانت أيام الاستعمار أفضل أيامٍ عهدوها ، وأما انتهاك مشـاعرهم ، وتشويه تاريخهم ، وتعاسـة مصائرهم ، فلا قيمة لها "ما دمنا" ، من وجهة نظره ، نواصل الظفر بما هو مفيد "لنا" - أى بالموارد الثـمينة ، والبقـاع الاستـراتيجيـة من الزاوية السـياسـيـة ، وذلك الحشـد الكبـير من الأيدى العـاملة المحليـة الرخيصـة. وأما استقلال البلدان فـى إفريقيا وآسيـا بعد قرون من السيطرة الاستعمارية فهو يرفضه باعتباره انتكاسًا وعودةً إلى حالة الهمـجيـة أو الحكم الاستـبدادى. وهكذا يقـول كيلى إن السـبيل الوحيـد المتاح ، بعد ما وصـفه بأنه وفاة النظام الإمبـريالى القديم التى وصمت أهله بالجبن ، هو القيـام بغزوة جديدة . وفى طيات هذه الدعوة التى يقدمها كيلى إلى الـغرب للحصول على ما ينتمى بحق "لنا" ، يكمن احتقـار عميق للثقافة الإسلامـية الوطنية فى آسيا التى يرغب كيلى أن نتولى "نحن" حكمها .

فلنضرب صـفحًا عن المنطق المعكوس الذى يستند إليـه كيلى فى كتابته ، وهو الذى أتى له بآيات الترحيب والاحترام من الجناح اليـمـينى من المـفكرين الأمـريكيين ، من ويليـم ف. باكلى إلى صحيفة **نيو ريببلك** ، فالأهم من ذلك فى النظرة التى يقدمها هو

تفضيل الحلول الشاملة الجاهزة فوراً على كل حلول أخرى للمشاكل المعقدة المتشابكة ، خصوصًا حين توصى هذه الحلول باتخاذ عمل قوى ضد "الإسلام" . ولا أحد يذكر أى شىء عما عساه يجرى الآن داخل اليمن مثلاً ، أو فى تركيا ، أو عبر البحر الأحمر فى السودان، أو موريتانيا ، أو فى المغرب أو حتى فى مصر . فالصحافة تلتزم الصمت إزاء ذلك كله ، إذ لا يشغلها إلاّ تغطية أنباء أزمة الرهائن ، والجامعات تلتزم الصمت ، إذ لا يشغلها إلا إسداء المشورة لرجال صناعة النفط وللحكومة بشأن التنبؤ باتجاهات الخليج العربى ، والحكومة تلتزم الصمت ، إذ إنها لا تطلب المعلومات إلاّ حيث يوجهنا " أصدقاؤنا" (مثل الشاه أو أنور السادات) إلى مكان طلبها . فلا يهم هذه الجهات جميعًا إلا القول بأن "الإسلام" هو وحده الذى يمتلك احتياطات النفط اللازمة للغرب ، ولا اعتداد بغير ذلك ، ولا شىء سواه يستحق الالتفات إليه .

فإذا نظرنا إلى الحالة الراهنة للدراسات الأكاديمية للإسلام ، لم نجد فيها ما يكفى لتصحيح الأوضاع ، بل إن المجال برمته يعتبر من بعض زواياه هامشيا بالنسبة للثقافة العامة ، كما إنه – من زوايا أخرى – قد استقطبته الحكومة والشركات . وقد أدى ذلك ، بصفة عامة ، إلى عدم تأهيله لتغطية الإسلام بالمناهج التى ربما كشفت لنا عما نجهله مما يدور تحت السطح فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك إلى جانب المشكلات المنهجية والفكرية العديدة

التى لم تحسم حتى الآن: هل يوجد ما يسمى بالسلوك الإسلامى؟ ما الذى يربط الإسلام على مستوى الحياة اليومية بالإسلام على مستوى العقيدة فى شتى المجتمعات الإسلامية ؟ ما مدى فائدة استعمال مصطلح "الإسلام" باعتباره من المفاهيم النظرية فى تفهّم الأحوال القائمة فى نفس الوقت فى المغرب والمملكة العربية السعودية وسوريا وإندونيسيا ؟ فإذا أدركنا ، على نحو ما أشار إليه كثير من العلماء فى الآونة الأخيرة ، أنه من الممكن اعتبار أن العقيدة الإسلامية تبرر الرأسمالية مثلما تبرر الاشتراكية ، وتبرر الكفاح مثلما تبرر التسليم بالقدر ، وتبرر مدّ الأيدى إلى الأديان جميعًا والترابط بينها مثلما تبرر الانفراد والانحصار ، بدأنا فى إدراك الهوة الشاسعة التى تفصل بين التوصيفات الأكاديمية للإسلام (ومن المحتوم ألا تقدم لها أجهزة الإعلام إلا صورًا شائهة) وبين الحقائق المحددة القائمة على أرض الواقع فى العالم الإسلامى .

ومع ذلك فالآراء تتفق على اعتبار "الإسلام" كبش الفداء الذى ننسب إليه كل ما يتصادف أن نكرهه فى الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة فى عالم اليوم . فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية ، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين فى القرون الوسطى ، والوسط يرى أنه يمثل الغرابة الممجوجة ، وأما ما تتفق عليه هذه الدوائر جميعًا (وعلى الرغم من ضآلة ما تعرفه عن العالم الإسلامى) فهو استحالة قبول جوانب كثيرة من جوانبه. وينحصر ما تعتبره هذه الدوائر ذا قيمة فى الإسلام ،

وبصفة رئيسية ، فى عدائه للشيوعية ، إلى جانب المفارقة الظاهرة فى أن العداء للشيوعية فى العالم الإسلامى يعتبر فى جميع الأحوال تقريبًا مرادفًا لنظم الحكم القمعية الموالية لأمريكا . والرئيس الباكستانى ضياء الحق خير مثال لذلك .

ما أبعد هذا الكتاب إذن عن أن يكون دفاعًا عن الإسلام ، فذلك أمر بعيد الاحتمال وجهد لا طائل من ورائه فى حدود ما يرمى إليه هذا الكتاب الذى يقتصر على وصف صور استعمال مصطلح "الإسلام" فى الغرب ، وكذلك - ولو أننى أنفق وقتًا أقل فى هذا الصدد - فى كثير من المجتمعات الإسلامية . وهكذا فإن انتقاد صور إساءة استعمال المصطلح فى الغرب لا يعنى على الإطلاق السماح بها أو الموافقة عليها داخل المجتمعات الإسلامية. فالواقع يقول إننا نجد فى الكثير ، بل فى عدد أكبر مما ينبغى من المجتمعات الإسلامية ، أن النظام الحاكم يلجأ إلى القمع ، أو إلى سلب الحريات الشخصية ، أو الاستناد فى الحكم إلى أقلية لا تمثل الشعب وأنه قد يزعم زورًا وبهتانًا أن ذلك مشروع باسم الإسلام ، أو يلجأ إلى السفسطة فى إقامة مبرراته على أسس إسلامية ، والعقيدة الإسلامية بريئة من ذلك كله ، شأنها فى ذلك شأن الأديان العالمية العظمى . والواقع أن إساءة استعمال مصطلح الإسلام تتزامن فى كثير من الحالات مع الزيادة الفاحشة فى القوة والسلطة التى تكتسبها الحكومة المركزية .

لكننا حتى لو لم ننسب كل العلل فى العالم الإسلامى إلى الغرب ، فلابد أن ندرك العلاقة التى تربط ما يقوله الغرب عن الإسلام بما فعلته شتى المجتمعات الإسلامية ردًا على ذلك ، فالعلاقة الجدلية قائمة بين الطرفين ، لأن الغرب شريك مهم فى الحوار الدائر مع الكثير من المجتمعات الإسلامية ، سواء باعتباره القوة الاستعمارية السابقة أو باعتباره الشريك التجارى الحالى ، وقد أثمرت هذه العلاقة الجدلية ضربًا مما أطلق عليه توماس فرانك وإدوارد ويزباند تعبير "سياسة الكلمات"(٥) ومن أغراض هذا الكتاب تحليل هذه السياسة وشرحها . فنحن نلاحظ التراشق بين الغرب والإسلام ، ونلاحظ التحدى والإجابة ، وفتح مجالات تعبيرية معينة وإغلاق غيرها ، وكل ذلك هو ما يشكل " سياسة الكلمات" التى يحاول عن طريقها كل طرف إنشاء مواقف معينة، وتبرير أفعال معينة ، وفرض بدائل معينة على الطرف الآخر. وهكذا فعندما احتل الإيرانيون السفارة الأمريكية فى طهران كانوا لا يردُّون بذلك فحسب على دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة ، بل أيضًا على ما يعتبرونه تاريخًا طويلاً من الإذلال الذى **لاقوه** على أيدى القوة الأمريكية الفائقة ، أى إن الأفعال الأمريكية الماضية "تحدثت" إليهم عن التدخل الدائم فى حياتهم، ومن ثم أحسوا أنهم مسلمون قد سجنوا داخل وطنهم نفسه ، فقاموا بحبس بعض الأمريكيين واحتجزوهم رهائن على أرض أمريكية ، أى فى السفارة الأمريكية فى طهران . وإذا كانت الأفعال نفسها

قد أقامت الحجة ، فلقد مهدت لها الكلمات ، وتحركات القوة رسمت الكلمات ظلالها ، بل وإلى حد كبير يمكن القول بأنه لولا الكلمات ما كانت الأفعال .

وأعتقد أن هذا النسق ذو أهمية كبرى لأنه يؤكد الرابطة الوثيقة بين اللغة والواقع السياسى ، على الأقل فيما يتعلق بالمناقشات الخاصة بالإسلام . وما أشق أن تجعل معظم الخبراء الأكاديميين فى الإسلام يعترفون بأن ما يقولونه ويفعلونه باعتبارهم علماء باحثين يقع فى سياق ذى صبغة سياسية عميقة ، وأحيانًا ما تكون معادية. فكل ما يختص بدراسة الإسلام فى الغرب المعاصر اليوم مشبع بالأهمية السياسية ، ومع ذلك فما أندر أن نجد كاتبًا عن الإسلام، سواء كان خبيرًا أو ممن يكتبون بصفة عامة ، يعترف بهذه الحقيقة فيما يقوله . فنحن نفترض التزام الموضوعية فى حديث العلماء عن المجتمعات الأخرى ، على الرغم من التاريخ الطويل الذى عرفت فيه جميع المجتمعات ضروب القلق السياسى والخلقى والدينى ، سواء كانت غربية أو إسلامية، بشأن كل أجنبى وغريب ومختلف. ففى أوروبا على سبيل المثال، كان المستشرق يرتبط بصورة مباشرة، وعلى مر الزمن ، بالجهود الاستعمارية ، ولقد بدأنا فحسب ندرك مدى التعاون الوثيق بين الدراسة العلمية والغزو العسكرى الاستعمارى المباشر ، وهو ما تعلمنا منه درسًا مفيدًا وإن كان محزنًا (على نحو ما حدث فى حالة المستشرق الهولندى المبجل سى. سنوك هنجرونيي ، الذى استغل الثقة التى أولاه المسلمون

إياها ، فى تخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد أبناء شعب أتشه المقيمين فى سومطره)[٦] . ومع ذلك فلا تزال الكتب والمقالات تتدفق علينا وتفيض بالثناء على الطابع غير السياسى للدراسة العلمية الغربية ، وثمار العلم الذى أتى به المستشرقون ، وقيمة الخبرة "الموضوعية" . وفى الوقت نفسه يندر أن نرى خبيرًا من خبراء "الإسلام" لم يكن مستشارًا للحكومة أو حتى موظفًا فيها، أو فى مختلف الشركات أو أجهزة الإعلام . وما أرمى إليه هو أنه لابد من الاعتراف بذلك التعاون ومن أخذه فى الاعتبار ، لا لأسباب أخلاقية فحسب ، بل أيضًا لأسباب فكرية .

فلنقل إذن إن الكلام عن الإسلام يتعرض للتلوّن دون شك بألوان الأحوال السياسية والاقتصادية والفكرية التى ينشأ فيها ، إن لم يصبه الفساد المطلق من جرّاء ذلك ، ويصدق ذلك على الشرق مثلما يصدق على الغرب . وليس من المبالغة أن نقول ، ولأسباب كثيرة واضحة ، إن كل كلام عن الإسلام يسعى لتحقيق درجة ما من السلطة أو القوة . ولكننى ، من ناحيةأخرى ، لا أقصد أن أقول إن جميع الدراسات أو الكتابات عن الإسلام لا نفع لها ، فالعكس هو الصحيح ، وهى أقرب قطعًا إلى النفع بما تميط عنه اللثام باعتبارها دليلاً يشير إلى "المصلحة" التى تسعى لتحقيقها . ولا أستطيع أن أقول بالتأكيد إذا ما كنا سنصادف فى مجال الشئون المتعلقة بالمجتمع البشرى ما يسمى بالحقيقة المطلقة أو المعرفة الصادقة الكاملة ، وربما وجدنا أمثال هذه أو تلك فى عالم

المجردات – وهو قول لا أجد صعوبة فى قبوله – ولكننى أرى فى إطار الواقع القائم أن الحقيقة فى سياق الحديث عن أمور معينة مثل " الإسلام" مرتبطة بـالمصـدر الذى تأتى منه ، وأرجـو أن يلاحظ القـارئ أن هذا الموقف لا يسـتـبعـد وجـود درجات من المـعرفـة (الصحيحة أو الفاسدة أو التى لا لون لها) ولا يستبعد إمكان تحرّى الدّقة فى القـول ، ولكنه يطلب فحسب مـن أى إنسان يتكلم عن "الإسلام" أن يتذكر ما يعرفـه كل دارس مبتدئ للأدب ، وهو أن كتـابة نصوص عن الواقع الإنسـانى أو قراءة هذه النصـوص نشاط يشارك فيه من العوامل ما يزيد كثيرًا عما يمكن تفسيره (أو حمايته) بعناوين مثل "الموضوعية" .

وهذا هو السـبب الذى يدفـعنى إلى بذل الجـهـد فى تحـديد السياق الذى تنشأ فيه كل مقـولة ، وسبب اهتمامى بذكر مختلف الفئات الاجتماعية المهتمة "بالإسلام" . وأما بالنسبة للغرب بصفة عامة ، وللولايات المتـحدة بصفة خاصـة ، فإن تلاقى القوى ذات العلاقة "بالإسلام" واضح جلىّ ، سواء فـيما يتعلق بالجـماعات التى تشكل هذه القوى (الحـياة الأكاديمية ، والشركـات ، وأجهزة الإعلام ، والحكومة) أو الغياب النسبى للمنشقين عن الطريق الذى جعلته هذه القوى 'الطريق الصحيح' أو المعتمد . وكانت النتيجة هى التـبسيط الشـديد والمخلّ " للإسلام" الذى يتيح الـتلاعب به لتحقيق عدة أهداف معًا ، من إثارة حرب باردة جديدة ، إلى إثارة الكراهية العنصـرية ، إلى تعبئـة الرأى العام لإمكان القيـام بغزوة

جديدة ، إلى استمرار تحقير المسلمين والعرب[٧] . وأعتقد أنه لا يكاد يكون فى هذا كله أى نشدان للحقيقة ؛ بل إن القائمين بذلك دائمًا مـا ينكرون ، بكل تأكيد ، أنهم يقصـدون التلاعب تحقيقًا لأهدافهم، ولكننـا نجد أن أقوالهم تصـدر وأهدافهم تتحقق وقد تسترت برداء البحث الأكاديمى بل الخبرة العلمية التى تخفيها. ومن العواقب الطريفة أنه حين تتبرع البلدان الإسـلامية بالمال للجامعات الأمريكية لإنفاقه على الدراسات العربية أو الإسلامية تعلو أصوات الغضب الليـبرالية احتجـاجًا على التدخل الأجنبى فى الجـامعات الأمريكية ، وحين تتبرع اليابان أو ألمانيا بالمال فلا يسمع أحد صوتًا لشاك. وأمـا عن تأثير ضغوط الشـركات على الجامعـات، فذلك أيضًا يعتبر بصفة عامة أمرًا مقبولاً ولا غبار عليه[٨] .

وحتى لا ينطبق علـىّ ، فيما يبـدو ، التعريف الذى وضـعه أوسكار وايلد للمـتهكم السـاخر بدقة - وهو فى رأيـه من يعرف لكل شيء سعـرًا ولا يعرف لأى شيء قيمة - أجـد لزامًا علىّ أن أقول فى الختام إننى أدرك الحـاجة إلى آراء الخبـراء المطلعين على بواطن الأمـور ، وإنه من المحتـمل أن تتخـذ الولايات المتـحـدة باعـتبـارها دولة عظمى مواقـف إزاء العالم الخـارجى لا تتخـذها الدول الصغرى ، وأن تضع لنفسها سـياسات خاصة بها بناءً على تلك المواقف ؛ كما إننى لا يزال يحدونى أمل كبير فى أن تتحسَّنَ الأحوال السيـئة السائدة الآن ، ومع ذلك فأنا لا أشـارك الكثيرين من الخبراء وواضعى السياسات والمثـقفين بصفة عامة إيمانهم القوى

والراسخ بمفهوم "الإسلام" لديهم ، بل إننى ، على العكس من ذلك ، كثيرًا ما أرى فيه عقبة ، بدلاً من أن يكون عونًا على تفهّم الدوافع التى تحرك الناس والمجتمعات . أما ما أومن به حقًّا فهو وجود حاسة نقدية ، ووجود المواطنين القادرين والمستعدين لاستخدامها فى تخطىّ وتجاوز المصالح الخاصة للخبراء وأفكارهم التقليدية . ويستطيع كل قارئ أن يعتمد على المهارات التى يتمتع بها صاحب النظرة النقدية الصائبة فى التمييز بين الخطأ والصواب، وبين الغث والسمين ، وأن يطرح الأسئلة المناسبة ويتوقع الإجابات المناسبة ، ومن ثم يتمكن من معرفة ما يريد إما عن الدين الإسلامى أو عن عالم الإسلام ، وعن الرجال والنساء والثقافات التى تعيش فيه ، وتتكلم لغاته وتتنفس هواءه وتصنع تاريخ كل بلد فيه وتنشئ كل مجتمع من مجتمعاته . وعندها تبدأ المعرفة الإنسانية الحقة ، ويبدأ الناس فى تحمل المسئولية الجماعية عن تلك المعرفة ، وما كتبت هذا الكتاب إلا فى سبيل ذلك الهدف .

ولقد سبق نشر بعض أجزاء من الفصلين الأول والثانى فى صحيفتى '**ذانيشن**' و**كولمبيا چورناليزم ريڤيو**، وأود أن أعرب عن امتنانى الخاص إلى روبرت مانوف ، الذى تولى رئاسة تحرير الصحيفة الأخيرة لفترة قصيرة فجعل منها فى إبانها مجلة ناجحة .

وفى غضون جمعى للمادة الخاصة ببعض أقسام هذا الكتاب تلقيت العون من مساعدَيْن قديرَيْن هما دَجْلاس بولدوين وفيليب

شحـاده ، وتولى پول ليپارى إعـداد المخطوط فى صورته النهـائية بمهارة علمـية وكفاءة فـائقة . وأعرب عن امتنانى كـذلك لألبرت سعيد لما قدمه لى من سخىِّ العون .

أمـا عن النقد الفكرى والملاحـظات الحصـيفـة فأنا أدين بهـا للكثيـرين ، ومنهم من لم يقدر لى أن أقابله وإن كنت قـد تلقيت الرسائل التى تحمل أفكارًا ودراسات وتعليقات أفدت منها جميعًا، وأخص بالذكر فريد هاليداى ، وميريام روزن ، وويليم جرايدر ، وإرڤارد أبراهاميان ، وويليم دورمـان ، ومنصور فرهنك ، ونيكى كيدى ، وميلودى كيميل ، وتشارلز كيمبول ، وستيوارت شار .

وأود أن أشيـر إلى الدَّيْن الخاص الذى أدين به لرفيـقى العزيز إقبـال أحمد ، صاحب المعـرفة الموسوعيـة الذى لا يضنُّ بالإجابة على سـؤال سائل فـزدونا بالغـذاء الفكـرى فى فـتـرات التخـبط والمحن. وقام چيمس پيك بقراءة المخطوط فى إحدى صوره المبكرة وقدم لى اقتراحـات رائعة مفصلة لمراجعته ، وإن كـان لا يعتبر ، بطبيعة الحال، مسئولاً عما بقى به من مثالب ، ويسرنى أن أشكره وأقدر له مساعدته التى لا غنى عنها . وتولت چين مورتون ، من دار نشر **پانثيـون بوكس** تحرير المخطوط بلبـاقة ويقظة ، فـأنا لها ممتن. ولا يفوتنى أن أتقـدم بالشكر كذلك إلى أندريه شيـفرين لما أبداه من حكمة وحـصافـة فكرية ، إذ يتحلى بالشـجاعة صـديقًا ومحررًا وناشرًا .

وأما مريم سعيد ، التى أهدى إليها هذا الكتاب ، فأكاد أقول إنه لولاها لما بقى المؤلف فى قيد الحياة فى أثناء كتابة الكتاب . ومن ثم أعرب لها عن شكرى العميق على حبها ومرافقتها إياى ووجودها الملهم .

ا.و.س.
نيويورك
أكتوبر ١٩٨٠

استدراك :

فى ٢٠ يناير ١٩٨١ غادر إيران ، آخر الأمر ، الأمريكيون الاثنان والخمسون ، بعد أن ظلوا محتجزين فى سفارة الولايات المتحدة لمدة ٤٤٤ يومًا . وبعد عدة أيام وصلوا إلى الولايات المتحدة ، فقوبلوا بترحاب شديد وبفرحة البلد الصادقة لعودتهم. وغدت "عودة المحتجزين" ، كما أصبحت تسمى ، بمثابة احتفال إعلامى دام أسبوعًا كاملاً ، فخصص التليفزيون ساعات طويلة حلت محل برامجه العادية ، أفعمها المعلقون بالأشجان ، للتغطية المباشرة لمراحل نقل "العائدين" إلى الجزائر ، ثم إلى ألمانيا، ثم إلى قاعدة 'وست بوينت' الأمريكية ثم إلى واشنطن ، وأخيرًا إلى بلدانهم الأصلية. وأصدرت معظم الصحف والمجلات الأسبوعية ملاحق خاصة بالعودة ، تتراوح بين التحليلات العلمية لكيفية التوصل إلى الاتفاق النهائى بين إيران والولايات المتحدة وما

استتبعه ذلك ، وبين الاحتفالات بالبطولة الأمريكية والهمجية الإيرانية . وقد تخللت ذلك كله قصص شخصية عن محنة الرهائن ، مزركشة بأقلام الصحفيين المبرزين ، وبما بدا بمثابة العدد الكبير (المثير للفزع) من الأطباء النفسيين الحريصين على شرح **حقيقة** ما كابده المحتجزون . أما إذا تجاوزت المناقشة الجادة للماضى وللمستقبل 'الشرائط الصفراء' التى كانت ترمز للأسْر فى إيران ، فإن الإدارة الأمريكية الجديدة حددت ' نغمة' ما يقال ورسمت حدوده . فكان تحليل الماضى يتركز فيما إذا كان للولايات المتحدة أن تعقد ذلك الاتفاق مع إيران (وإذا ما كان عليها الالتزام به) وفى يوم ٣١ يناير ١٩٨١ نشرت صحيفة **نيوريببلك** هجومها المتوقع على " الفدية" ، وانتقدت إدارة الرئيس كارتر بسبب استسلامها للإرهابيين ، ثم أدانت "الفكرة المشكوك فى صحتها القانونية برمتها" أى مجرد التعامل مع مطالب الإيرانيين ، واستخدام وساطة الجزائر ، قائلة إنها بلد "طالت ممارسة أهله لاستضافة الإرهابيين وغسيل أموال كل فدية يحصلون عليها" ، وأما مناقشة المستقبل فقد وضع حدودها ما أعلنته إدارة الرئيس ريجان من حرب على الإرهاب ، قالت الصحيفة إن الأولوية الجديدة لسياسات الولايات المتحدة لا يجب أن تكون حقوق الإنسان بل محاربة الإرهاب ، ولو اقتضى الأمر مساندة بعض "نظم الحكم المعتدلة فى قمعها للشعب" إذا كانت من حلفائنا .

وبناءً على ذلك كتب الصحفى بيتر س. ستيوارت فى

كريستيان سيانس مونيتور يوم ٢٩ يناير ١٩٨١ يقول إنه من المحتمل أن يعقد الكونجرس جلسات لمناقشة "الشروط الواردة فى الاتفاق الخاص بإطلاق سراح الرهائن . . . ومعاملة الرهائن . . . وإجراءات أمن السفارة . . . [وباعتبار ذلك ذيلاً عارضًا] مستقبل العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران" . وكان مما يتفق تمامًا مع النطاق الضيق والمُركّز للمشكلات التى بحثتها أجهزة الإعلام أثناء الأزمة (وباستثناءات قليلة) أن أحدًا لم يتعمق فى فحص ما تعنيه محنة الرهائن ، وما توحى به حول المستقبل ، وما يمكن أن نتعلمه منها. وذكرت صحيفة **صنداى تايمز** اللندنية يوم ٢٦ يناير أن الرئيس كارتر أشار على وزارة الخارجية الأمريكية ، قبل أن يترك منصبه ، فيما زعمت ، "بالتركيز فى عملها الجماهيرى كله على إثارة موجة سخط واستياء من الإيرانيين" . وسواء كان هذا قد حدث فى الواقع أم لا ، فإنه يقبل التصديق ، على الأقل ، خصوصًا لأننا لم نجد من يبدى اهتمامًا بإعادة تقييم التاريخ الطويل لتدخل أمريكا فى إيران وغيرها من بلدان العالم الإسلامى بين المسئولين الحكوميين ، وإن تعرضت لذلك قلة لا تكاد تذكر من كتاب الصحف والصحفيين . وكثر الحديث عن مرابطة بعض القوات بصفة دائمة فى الشرق الأوسط ، وعلى نقيض ذلك ، وجدنا أنه عندما عُقد مؤتمر القمة الإسلامى فى الطائف فى الأسبوع الأخير من يناير ، كان نصيبه التجاهل شبه التام فى أجهزة الإعلام الأمريكية .

وكانت الآراء تطرح قضية القصاص وتعلو فيها نبرات تأكيد قوة الولايات المتحدة مصحوبةبعزف سيمفونية محنة الرهائن وعودتهم المظفرة بتفصيلات شجية . وتحوّل الضحايا مباشرة إلى أبطال (الأمر الذى أغضب شتى هيئات قدامى المحاربين وأسرى الحرب السابقين – وهو أمر مفهوم) كما تحولوا إلى رموز للحرية، وتحول محتجزوهم إلى وحوشٍ دون المستوى الآدمى . وتحقيقًا لهذه الغاية قالت صحيفة **نيويورك تايمز** فى مقالها الافتتاحى يوم ٢٢ يناير ''فلنعرب عن مشاعر الغضب والسخط فى هذه الساعات الأولى من إطلاق سراحهم'' وبعد أيام تأمل فيها المحررون الموقف جاءت الصحيفة يوم ٢٨ يناير بالأسئلة التالية : ''ما الذى كان ينبغى أن نفعله ؟ إن بث الألغام فى المرافئ أو إنزال قوات مشاة البحرية ، أو إلقاء بعض القنابل ، قد يبث الخوف فى قلوب الأعداء العقلاء ، ولكن هل كانت إيران ، وهل إيران الآن ، عاقلة ؟'' لا شك ، كما قال فريد هاليداى فى صحيفة **لوس أنجيليس تايمز** يوم ٢٥ يناير ، أن إيران كانت تزخر بما يمكن توجيه الانتقاد إليه ، بعد فشل الحماس الدينى والغليان الثورى المتواصل فى إيجاد دولة حديثة قادرة على اتخاذ القرارات اليومية الكفيلة بأن تعود بالفائدة على الشعب كله ، كما كانت إيران تعانى من العزلة الدولية والتعرض للأخطار ، كما كان من الواضح ، دون شك ، أن الطلاب الذين احتلوا السفارة لم يتلطّفوا فى معاملة أسراهم . ولكن أحدًا لم يقل ، حتى المحتجزون الاثنان والخمسون ، إنهم

قد تعرضوا لـلتعذيب أو المعاملة الوحشيـة المنتظمة ، وهو ما تجلّى فى نص الأقوال التى أدلوا بهـا فى المؤتمر الصحفى الذى عُـقد فى قاعدة **وست بوينت** (انظر صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ٢٨ يناير) حيث تقـول إليزابيث سويـفت بصراحة تامـة إن مجلة **نيوزويك** كذبت فيما روته عـنها ، واخترعت قصة عن التعذيب (ضـخّمتها أجهزة الإعـلام إلى حد بعيد) دون أن يكون لها أسـاس تستند إليه فى الواقع .

وهكذا أدت عـودة المحتجـزين إلى "الترخـيص" بالانتـقال المفاجئ من تجربة مـحددة – مضنية ومحـزنة وطويلة الأمد بصورة مريرة – إلى التعميمات الشاسعة عن إيران وعن الإسلام فى أجهزة الإعلام وفى الثقـافة بصفة عامـة . وهكذا ، وبتعبير آخـر ، محا الإعلاميـون ببساطة معالم القـوى السياسيـة المحركة فى باطن هذه التجربة التـاريخية المعقدة والمتشـابكة تحقيقًا لحالة غريـبة من فقدان الذاكرة ، فإذا بنا نعود إلى المبادئ الأسـاسية القديمة ، إذ قال بوب إنجل فى صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** يوم ٢٣ يناير إن الإيرانيين لا يزيدون عن كونهم "مخبولين أصوليين" ، وقالت كلير ستيرلينج فى **واشنطن بوست** يوم ٢٣ يناير إن قصـة إيران من معالم ' عقد الخوف الأول' أى شن الإرهابيين الحرب على الحضارة . وقال بيل جـرين فى الصفـحة نفـسهـا من **واشنطن بوست** إن " البشـاعة الإيرانية" قد تؤدى إلى أن تتـحول "حرية الصـحافة" فى تغطية أنباء إيران "إلى سلاح موجـه مباشرة إلى قلب القوميـة الأمريكية

وكرامة أمريكا'' ، وقد عاد جرين بعد قليل إلى التلطيف من حدة هذا الجمع الغريب بين التعبير عن الثقة والقلق حين تساءل إذا ما كانت الصحافة قد ''ساعدتنا'' فى تفهم ''ثورة الإيرانيين'' ، وهو السؤال الذى أجاب عنه بسهولة مارتن كوندريك فى **وول ستريت جورنال** بتاريخ ٢٠ يناير إذ كتب يقول ''إن التليفزيون الأمريكى [باستثناءات قليلة] عالج الأزمة الإيرانية معالجته ''لعرض للشواذ الذين يضمون من يضربون أنفسهم ويلوّحون بقبضاتهم فى الهواء، أو معالجته للمسلسلات الدرامية التليفزيونية'' .

ومع ذلك فقد تميز عدد من الصحفيين بتأملاتهم الصادقة مثل هـ. د. س. جرينواى الذى أقر فى صحيفة **بوسطن جلوب** يوم ٢١ يناير بأن ''مصالح الولايات المتحدة قد تضررّت من جراء تسلُّط أزمة الرهائن على العقل الأمريكى ، دون غيرها من القضايا الملحة'' ، لكنه استطاع أن يصل إلى نتيجة واضحة وهى أن ''حقائق التعددية فى عالم اليوم لن تتغير ، وأن الإدارة الجديدة سوف تلتزم بالحدود العملية للقوة فى أواخر القرن العشرين'' . وفى العدد نفسه من هذه الصحيفة كتب ستيڤن إرلانجر مقالاً يمتدح فيه الرئيس كارتر لأنه نجح فى نزع فتيل الأزمة ومن ثم فى أن جعل المناظرة أقدر على ''إيجاد المزيد من التعقل وتقليل الشحنة الانفعالية'' . أما صحيفة **نيوريبلك** فقد أنحت باللائمة من ناحيتها (٣١ يناير) على صحيفة ''الجلوب المتصالحة دومًا مع الواقع'' أو قل إنها قالت ، بعبارة أخرى ، إن أفضل سبل التعامل

مع إيران هو اعتبارها انحرافًا فى مسيرة بناء القوة الأمريكية ومحاربة الشيوعية . بل إن هذا الاتجاه الهجومى فى جوهره قد وجد من يرقى به إلى مصاف الأيديولوجية شبه الرسمية لأمريكا . إذ كتب روبرت و. تاكر مقالاً بعنوان "أغراض القوة الأمريكية" فى مجلة **فورين أفيرز** (شتاء ١٩٨٠ - ١٩٨١) يقول فيه إنه يسير فى خط جديد ، يقع ما بين دعاة "النهضة الأمريكية" ودعاة " الانعزالية" . أما فيما يتصل بالخليج العربى وأمريكا الوسطى فيقترح اعتماد سياسة التدخل الصريح ، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن "تسمح" بأىّ تغييرٍ فى النظام الداخلى لكل من هاتين المنطقتين أو بانتشار النفوذ السوفييتى . وفى أى حال من هذين ، لابد أن تتولى الولايات المتحدة بنفسها البت فيما كان التغيير مما يُسمح أو لا يسمح به . كما اقترح أحد الزملاء الذين يشاركونه نفس التفكير ، وهو الأستاذ ريتشارد پايپس من جامعة هارڤارد ، أن تقسم الولايات المتحدة العالم إلى معسكرين بسيطين : الأمم الموالية للشيوعية ، والأمم المعادية للشيوعية .

وإذا كانت العودة إلى الحرب الباردة تتضمن على أحد مستوياتها ، فيما يبدو ، الإلحاح الجديد على القوة الذاتية ، فلقد أدت أيضًا إلى تشجيع ما برز من خداع النفس . وأما الأعداء فيضمون أى شخص يسأل الغرب النظر فى ماضيه ، لا بغرض الإحساس بالذنب بل من أجل الوعى بذاته ، وأمثال هؤلاء لابد من تجاهلهم وحسب . وقد وقعت حادثة رمزية بالغة الدلالة على

ذلك أثناء المؤتمر الصحفى الذى عُقد فى قاعدة 'وست بوينت' ، إذ قال أحد الحاضرين "إن حكومة الولايات المتحدة بلغت ذروة النفاق عندما تحدثت عن التعذيب" بعد أن سمحت وتغاضت عن تشويه أجسام الإيرانيين فى ظل حكم الشاه السابق . وهنا قال بروس لينجن ، القائم بالأعمال فى السفارة الأمريكية فى طهران، ويعتبر أعلى الدبلوماسيين الأمريكيين منصبًا فى إيران ، إنه لم يسمع السؤال ، بل زعم ذلك مرتين ، ثم انتقل بسرعة إلى الحديث عن الموضوع الأنسب والأقرب إلى قلبه وهو الوحشية الإيرانية والبراءة الأمريكية .

ولم يتساءل أحد ، لا من الخبراء أو الإعلاميين أو من المسئولين الحكوميين، عما كان عساه أن يحدث لو خصصوا ولو جانبًا ضئيلاً من الوقت الذى أنفقوه فى عزل وتضخيم وتغطية حادث الاستيلاء غير المشروع على السفارة وعودة المحتجزين ، فى فضح ما شهده عهد الشاه السابق من ظلم ومن وحشية . ألم يضع أحد حدودًا لاستخدام جهاز جمع المعلومات الشاسع فى إعلام الجمهور الذى أصابه القلق ، وله ما يبرره فعلاً ، بما كان يجرى فى الحقيقة داخل إيران ؟ وهل انحصرت البدائل حتمًا فى إثارة المشاعر الوطنية أو زيادة إشعال ذلك اللون من الغضب الجماعى من جنون إيران ؟

ليست هذه أسئلة فارغة المضمون ، بعد أن انتهت أحداث هذه الواقعة التى بالغوا فى تضخيمها مع الأسف . وسوف يكون

من المفيد ، ومن المطلوب من الناحية العملية للولايات المتحدة بخاصة وللغرب بصفة عامة ، أن نتفهّم التغيير فى تجمعات القوى فى السياسة العالمية : هل يظل "الإسلام" محصوراً أو مقصوراً على دور المورّد الإرهابى للنفط ؟ هل تركز الصحف والتحقيقات على "من أضاع علينا إيران" أم تناقش وتنفق وقتًا ما فى تأملٍ أجدى وأنفع لموضوعات أخرى أكثر ملاءمة للمجتمع الدولى والتنمية السلمية ؟

ولقد وجدنا ما يدلنا على قدرة أجهزة الإعلام ، مثلاً ، على تحمل مسئوليتها وبذل طاقتها الهائلة فى الإعلام الجماهيرى حين شهدنا البرنامج الخاص الذى بثته شبكة إيه . بى . سى . واستمر ثلاث ساعات عن "المفاوضات السرية" يومى ٢٢ و ٢٨ يناير ١٩٨١ . ففى إطار الكشف عن شتى الأساليب التى استخدمت لتحرير الرهائن ، أماط البرنامج اللثام عن قدر هائل من المعلومات التى لم نكن نحيط بها ، وكان أشدها دلالةً تلك اللحظات التى أسقط البرنامج الضوء فيها ، فجأة ، على بعض المواقف العميقة الراسخة فى اللاوعى .

ومن بين هذه اللحظات اللحظة التى وصف فيها كريستيان بورجيه مقابلته فى أواخر مارس ١٩٨٠ للرئيس چيمى كارتر واجتماعه به فى البيت الأبيض . وكان بورجيه محاميًا فرنسيًا يرتبط ببعض الروابط مع الإيرانيين ، وقد عمل من ثَمّ وسيطًا بين الولايات المتحدة وإيران .

وكان قد جاء إلى واشنطن لأن الـشاه المخلوع رحل فجأة إلى مصر ، رغم اتخاذ الترتيبات اللازمـة مع الحكومة البانامية للقبض عليه ، وهكذا عاد الجميع إلى نقطة الصفر . يقول بورجيه :

"مرت لحظة تحدث فيـها [كارتر] عن الرهائن قائلاً : هؤلاء أمـريكيون كـما تعـرف . وهم أبرياء . وقلت له : سيدى الرئيس : أفـهم ما تقوله عن براءتهم لكننى أرى أن عليك أن تفهم أنهم ليسوا أبرياء فى نظر الإيرانيين . وحتى لو لم يكن أحد منهم قـد ارتكب بنفسه فعلاً مـا ، فليسوا أبرياء لأنهم دبلوماسيـون ، يمثلون بلدًا فعـل أشياء كـثيرة فى إيران .

"يجب أن تفـهم أن الاحتـجاز ليس مـوجهًا إليـهم بصفتهم الشخصيـة . تستطيع أن تدرك ذلك بطبيعة الحال. ولم يمسسهم أحد بأى أذى ، ولم يعـتد عليهم أحد . ولم يحاول أحـد قتلهم . يجب أن تفـهم أن الاحتجـاز رمز ، يجب أن نضع هذا الأمر على مستوى الرموز فى تفكيرنا .

[نص الحديث المذاع قدمته مع الشكر فيرونيكا بولارد من شبكة إيه . بى . سى نيويورك]

والواقع ، فيما يبدو ، أن كارتر كان ينظر إلى الاستيلاء على السفارة نظرته إلى العمل الرمزى ، ولكنه كان يختلف عن المحامى الفـرنسى فى الإطار الفكرى الذى يضـعه فـيه . إذ كـان يرى أن

جميع الأمريكيين – تعريفًا – أبرياء وأنهم يعيشون ، من زاوية ما، خارج التـاريخ . وقد قال فى مناسبـة أخرى إن شكاوى إيران من الولايات المتـحدة تعتـبر تاريخًـا عفّى عليـه الزمن، ولا يهم الآن سـوى أن الإيرانيين إرهابيـون ، وربما كـانوا على مـر الدهر أمـة إرهابية بالنّيّـة والمقصد إن لم يكن بالفعل ، وأضـاف قائلاً إن كل من يكره أمـريكا ويحـتـجز رعـاياها رجل خطر مـريض، تجـاوز العقلانية ، وتجـاوز الإنسانية ، وتجاوز دماثة الخلق البسيطة .

لم يكن كارتر يسـتطيع أن يربط بين ما يقـوله بعض الأجانب عن مساندة الولايات المتحدة التى طال أمدها للحكام المستبدين فى بعض البلدان ، وبين ما يحـدث للأمريكيين المحتجـزين دون وجه حق فى طهران ، وعـجزه عن هذا الربط من الأعـراض البارزة لما نتحدث عنه. فَمَهْمَا يبلغْ من معارضتنا الشاملة لاحتجاز الرهائن، وفرحتنا بإطلاق سراحهم وعـودتهم ، فلا نستطيع تجاهل الدروس المفزعـة المستـفادة مما يبدو أنـه اتجاه رسمى وقـومى لتناسى بعض حقـائق الواقع ، فنحن نعلم أن جميع العـلاقات فيـما بين الناس والأمم تضم طرفـين ، وأنه لا يوجـــد على الإطلاق مـــا يوجب "علينا" أن نحب أو أن نوافـق "عليهم" ، ولكن يجب علينا على الأقل أن نتبيّن (أ) "أنهم" موجودون ، و(ب) أن رؤيتهم لنا تجمع بين ما "نحن" عليه (من وجـهة نظرهم) وبين سـائر ما أضافـته إلى صورتنا خـبرتُهم فى التعـامل معنا وما عـرفوه عنا . وليست القـضية إذن قضـية براءة أو ذنب ، ولا هى مسـألة وطنية وخيانة ، فلا يسيطر أحـد الطرفين على الواقع سيطرة كاملة تسمح

له بتجاهل الطرف الآخر . هذا إلا إذا اعتقدنا ، بطبيعة الحال ، وباعتبارنا أمريكيين ، أنه إذا كان الطرف الآخر مُذْنِبًا بجوهر وجوده ، فلابد أن نكون أبرياء .

ولننظر الآن فى هذه الوثيقة المفيدة التى قدمتها أجهزة الإعلام، وهى البرقية السرية التى أرسلها بروس لينجن من طهران إلى سيروس ڤانس وزير الخارجية يوم ١٣ أغسطس ١٩٧٩ ، فهى وثيقة تتمشى تمامًا مع الموقف الذى اتخذه كارتر فى أحاديثه مع بورجيه ، ونشرتها صحيفة نيويورك تايمز فى صفحتين متقابلتين يوم ٢٧ يناير ١٩٨١ ، ربما للمساعدة فى تركيز انتباه الأمة على طبيعة الإيرانيين الحقة ، وربما باعتبارها هامشًا أو حاشية ساخرة على الأزمة التى انفرجت قبل قليل . ولكن رسالة لينجن ليست وصفًا علميًا "للنفسية الفارسية" التى يناقشها ، رغم تظاهر المؤلف بالموضوعية الهادئة ومعرفته الفياضة بالثقافة "الفارسية" ، بل يُعتبر نصُّ البرقية بيانًا أيديولوجيًّا يهدف ، فى رأيى ، إلى تحويل بلاد "فارس" إلى جوهر لازمنى مثير للقلق الحاد ، ويخلى من ثَمّ من الشرعة الأخلاقية الفائقة والصحة النفسية القومية للطرف الأمريكى فى المفاوضات . وهكذا فكل مقولة عن بلاد "فارس" تضيف أدلة إدانة إلى الصورة وتقدم الدرع اللازم لحماية أمريكا من أى فحص أو تحليل لموقفها .

ويتحقق هذا التعامى لغويًا بأسلوبين جديرين بأن ننعم النظر فى كل منهما . الأول هو حذف التاريخ أو استبعاده من جانب

واحد [أى من جـانب أمريكا] فإذا بالكاتب وقـد أقلع عن الحديث عن ''الآثار الناجمة عـن الثورة الإيرانية'' وأخذ يتـحدث بدلاً من ذلك عن ''الخصـائص النفسية والثـقافيـة . . الثابتة نسبـيًا'' والتى تتسم بها ''النفسيـة الفارسية'' . وهكذا تحولت إيران الحديثة إلى بلاد فارس غيـر المحددة بزمن . فإذا اتبعنا هذا المنهج غـير العلمى أصـبح الإيطالى يشار إليـه بتعـبيـر '' داجو'' (أى أسمـر اللون) واليهـودى بتعبـير ''يديش'' (أى يهودى ألمانى) والأسـود بتعبـير ''زنجى'' وهكذا . (وهى ألفاظ التـحقيـر التى يستخـدمها صبـيان الشـوارع فى مـشـاجـراتهم ، فـهل تراهـم أشـد صـراحـة من الدبلوماسى؟) والأسلوب الثانى هو أن لينجن لا يصـور الشخصية القومية '' الفارسية'' إلا فى حدود ما يزعـجه من توهّم الإيرانيين للواقع (أى نتـيـجـة للخـيـلاء المرضى [وهو جنـون العظمـة أو الاضطهـاد]) فـهو لا يسلّم بأن الإيـرانيين قد شـعـروا فى الواقع بالخيانة والمعاناة ، بل ينكر عليهم ذلك ، كما ينكر عليهم الحق فى تكوين رأى خـاص عن الولايات المتحـدة استنادًا إلى مـا يرون أن الولايات المتحدة قد قامت به فعلاً فى إيران ، وليس معنى هذا فى رأيه أن الولايات المتحـدة لم تفعل شيـئًا على الإطلاق فى إيران، لكنه يعنى فحـسب أن من حقها أن تفعـل ما تشاء ، دون شكاوى أو ردود أفـعال لا صلة لهـا بالقضـيـة من جانب الإيرانيين، فـإن لينجن لا يرى ما يُعـتدُّ به فى إيران إلا ''النفسـية الفارسـية'' التى تلغى جميع الحقائق الأخرى .

ويتفق معظم قراء رسالة لينجن ، وهو نفسه بالتأكيد لا ينكر أننا يجب ألاّ نختزل غيرنا من الناس أو من المجتمعات ونحصرهم فى مثل ذلك الجوهر البسيط النمطى الذى أتى به ، ونحن لا نسمح اليوم للناس فى الحياة العامة بمعاملة السود أو اليهود بهذا الأسلوب مثلما قد نسخر بل ونضحك حقًا من التصوير الإيرانى لأمريكا فى صورة الشيطان الأكبر ، فهذا كله أشد إغراقًا مما ينبغى فى التبسيط والأيديولوجية والعنصرية ، ولكن الاختزال يحقق الغاية المنشودة فيما يتعلق بهذا العدو تحديدًا ، أى إيران التى يشير إليها باسم بلاد الفُرْس ، تمامًا مثلما فعل الكاتب مارتن بيريتز فى صحيفة **نيوريببلك** إذ نشر صفحة كاملة من النثر الذى ينضح بالعنصرية الصريحة (٧ فبراير ١٩٨١) كتبها كاتب انجليزى فى القرن السابع عشر عن "الأتراك" وقال مارتن بيريتز إنها قطعة "كلاسيكية" تفيد دارسى ثقافة الشرق الأوسط ، ثم أردف قائلاً إنها تدلنا على طرائق سلوك المسلمين . ونحن نتساءل ماذا يكون رد فعل بيريتز لو نشر أحدهم صفحة من نثر القرن السابع عشر عن "اليهود" وقال إنها مرشد يدلنا على طرائق السلوك "اليهودى" . والسؤال هو ما الهدف من نشر أمثال هذه الوثائق (رسالة لينجن أو 'صفحة' بيريتز) ما دامت لا تعيننا ، كما سوف أشرح ، على أن نحيط بأى شىء عن الإسلام أو إيران ، ولا تساعدنا - فى سياق التوتر الناشئ بين الولايات المتحدة وإيران بعد الثورة - فى تحديد ما يمكن للغرب أن يفعله هناك .

أما حجـة لينجن فتقول إنه مهـما يحدث ''فالفُرْس ميالون'' إلى مقاومة ''المفهوم العقلانى نفسه [من وجهة النظر الغربية] لعملية التـفاوض'' أى إننا نسـتطيع أن نكون عـقـلانيين لكن الفُـرْس لا يستطيعون . لماذا ؟ لأنهم فى رأيه يغلّبون أنانيتهم على كل شىء ، والواقع فى نظرهم شـر ، وعقليـة ''السـوق الشرقـية'' (البازار) تفضل تحقيق المزية الحاضرة على الكسب فى الأجل الطويل ، والله القدير (سبحانه) عند المسلمين يجـعل من المحال عليهم أن يفهموا قـانون العلة والمعلول ، واللغـة لديهم غـيـر مـرتبـطة بالواقع . وباختصار - وبناءً على هذه الدروس الخمـسة التى يستخلصها من تحليله - ينتهى لينجن إلى القول بأن ''الفارسى'' مفاوض لا يعتمد عليه ، لأنه لا يشعر بوجود ''الطرف الآخر'' ، ولا يتمتع بالقدرة على الوثوق به أو حسن الظن به لا بل ولا بقوة الشخصية اللازمة للوفاء بما وعد به بلسانه .

وترجع رشاقة هذه الفكرة المتواضعـة وجاذبيتها إلى أن كل ما جـاء بها منسـوبًا إلى '' الفارسى'' أو المسلم ، دون أية أدلة على الإطلاق ، يمكن تطبيقه بحذافيره على ''الأمريكى'' ، ذلك المؤلف شبـه الخيالى وغـير المسـمى والمستتـر خلف الرسالة . ومَنْ غـيرُ الأمريكىّ ينـكرُ التاريخ والواقع عندما يـزعم ، من طرف واحد ، أن هذين لا يعنيان أى شىء ''للفارسى'' ؟ ولتلعب الآن إذا أردت هذه اللعبة المنزليـة : اذكر خصيصة رئيسـية ثقافية واجتـماعية فى

'اليهودية – المسيحية' مرادفة لإحدى الخصائص التى ينسبها لينجن إلى " الفارسى" . الأنانية الغلابة ؟ چان چاك روسو . تصوير الواقع فى صورة الشرير ؟ كافكا . الله القادر على كل شىء ؟ العهد القديم والعهد الجديد . عدم سريان منطق العلة والمعلول ؟ بيكيت . عقلية البازار ؟ بورصة نيويورك . الخلط بين الألفاظ والواقع ؟ الفيلسوفان أوستن وسيرل . ولكن يندر أن يقوم أحد بتكوين الصورة التى تمثل جوهر الغرب اقتصارًا على اقتباس ما قاله كريستوفر لاش عن النرجسية ، أو كلمات واعظ مستمسك بحرفية العقيدة ، أو محاورة **كراتيلوس** لأفلاطون ، أو إعلان مسجوع منغّم أو إعلانين ، أو (إذا أراد تبيان عجز الغرب عن الإيمان بوجود واقع ثابت خيّر) كتاب **مسخ الكائنات** للشاعر أوڤيد مع زركشته بآيات مختارة من سفر **اللاويين** فى الكتاب المقدس .

إن رسالة لينجن تقوم بوظيفة معادلة لمثل هذه الصورة التى رسمناها ، وكان من المحتمل ألا تزيد الرسالة لو وردت فى سياق آخر عن صورة كاريكاتورية فى أفضل الحالات ، وأما فى أسوئها فكان يمكن اعتبارها هجومًا فظًّا محدود الضرر ، بل وليست ذات تأثير يذكر باعتبارها جزءًا من الحرب النفسية ، لأنها تكشف من نقاط ضعف الكاتب أكثر مما تكشف عنه من نقاط ضعف خصمه، إذ تُبيّن ، على سبيل المثال ، أن المؤلف يساوره قلق شديد إزاء

نظرائه ، وأنه لا يستطيع أن يرى الآخرين إلاّ مرايا تعكس له صورة ذاته . ترى أين ذهبت قدرته على تفهم وجهة النظر **الإيرانية** ، أو حتى الثورة الإسلامية نفسها وهى التى نفترض أنها ما اندلعت إلا نتيجة مباشرة للاستبداد **الفارسى** الذى لا يطاق ولضرورة الإطاحة به ؟

وأما عن حُسْنِ الظّن والثقة فى عقلانية عملية التفاوض ، فحتى لو تناسينا أو أغفلنا ذكر أحداث عام ١٩٥٣ ، فلنا أن نقول الكثير عن محاولة الانقلاب التى قام بها الجيش لإجهاض الثورة، والتى لقيت التشجيع المباشر من الجنرال الأمريكى هايزر فى أواخر يناير ١٩٧٩ ، وكذلك عما فعلته مصارف أمريكية كثيرة (وهى التى عادةً ما كانت تطيع الحكومة فتتحايل على القواعد لإرضاء الشاه) فإذا بها تبدى استعدادها فى عام ١٩٧٩ لإلغاء عقود القروض الإيرانية المبرمة عام ١٩٧٧ محتجة بأن إيران لم تدفع الفوائد فى مواعيدها ، وإن كان محرر صحيفة **لوموند** الفرنسية إريك رولو قد ذكر فى ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ أنه شاهد بعينه الدليل على أن إيران قد دفعت الفوائد **قبل حلول** مواعيدها . ولا غرو إذن أن ينظر ''الفارسى'' إلى نظيره باعتباره غريمًا ، فهو **ولا شك** غريم ، وغريم غير مطمئن لذاته ، فذلك ما يقوله لبنجن صراحة .

ولكن فلنتقل إن القضية ليست قضية إنصاف بل قضية دقة : إن ممثل الولايات المتحدة فى المنطقة يسدى المشورة إلى واشنطن ، فما الذى تراه يستند إليه ؟ حفنة من القوالب اللفظية المأثورة عن المستشرقين والتى كان يمكن أن تكون تكرارًا حرفيًا لما قاله السير ألفريد ليال فى وصف العقل الشرقى ، أو من حديث اللورد كرومر عن تعامله مع أبناء البلد فى مصر . وإذا كان إبراهيم يازدى ، وزير خارجية إيران آنذاك ، يرفض فى رأى لينجن ، الإقرار بأن "تكون للسلوك الإيرانى عواقبه على صورة إيران فى الولايات المتحدة" فمن ذا الذى تراه على استعداد ، من بين صانعى القرار الأمريكيين ، للإقرار مقدمًا بأن للسلوك الأمريكى عواقبه على صورة الولايات المتحدة فى إيران ؟ ولماذا إذن سمحنا للشاه بدخول أمريكا ؟ أم ترانا نشارك أبناء "بلاد فارس" "ذلك النفور من تحمل الإنسان مسئوليته عما يفعل" ؟

إن رسالة لينجن ثمرة من ثمار القوة الجاهلة الغبية ، وهى بالتأكيد لا تكاد تساهم بشىء يذكر فى تفهمنا للمجتمعات الأخرى. فإذا كانت الرسالة نموذجًا لأسلوب مواجهتنا للعالم ، فإنها لا توحى بأية ثقة ، وأما إذا كانت صورة يرسمها الأمريكى **لأمريكا** فهى تسئ إلينا إساءة صريحة . ما فائدتها إذن ؟ إنها تبيّن لنا كيف يقوم ممثلو الولايات المتحدة ، ومعهم جانب كبير من المؤسسة الاستشراقية ، بخلق واقع وهمىّ لا يتفق مع عالمنا ، ولا

مع عـالم إيران . أمـا إذا عَـجَـزَتْ الرسـالة عن إيضـاح حكمـة التخلص إلى الأبد من هذه الصور الشائهـة للغير ، فلسوف يواجه الأمريكيـون المزيد من المتاعب الدولية ، ويعـرّضون براءتهم ، مع الأسف ، لتحمّل إساءة جديدة دون نفع يرجى .

ولنُسَلِّمْ إذن بأن إيران والولايات المتحدة قـد تعرضـتا لمعـاناة مريرة ، ولنُسلِّمْ أيضًا بأن الاستـيلاء على السفارة حادث يدل على وقوع الإيرانيين برمَّتهم فى هوة الفوضى العقيم والرجعية . ولكننا مع ذلك لا نحـتاج إلى استـخلاص حكمـة ناقصـة من استـقراء التاريخ القريب ، فـالواقع يقول إن التغيير يجـرى على قدم وساق فى عالم "الإسلام" مـثلما يجـرى فى الغـرب ، فإذا اخـتلفت الأساليب وسـرعة التغيـير ، فإن التشـابه قائم بين بعض الأخطار وبعض مـصادر القلـق هنا وهناك . وصيـحـات النداء التى تلتف حولها الجماهير المؤمنة بها ، مثل "الإسلام" هناك و"الغرب" هنا (أو "أمريكا") مصدرُ حـفزٍ للهمم أكثر ممـا تُعتبر دعوةً للتـبصّر والتعـمق ، وقد ينشأ عن تـشويه صورة الحـقائق الواقعـة ردٌّ فعلٍ مـسـاوٍ له فى المقـدار ومـضـادٌّ له فى الاتجـاه ، فـإذا بمصطلحى "الإسلام" و"الغرب" وقد أحالا التـحليل إلى مسألة خـلافية ، وأحالا الخـبرة العملية إلى شطـحات خيال . مطلبى هو الاحـترام الواجب للتفـاصيل الملموسة للخـبرة البشرية ، والتـفهم النابع من النظر إلى " الآخر" نظرة ود وتراحم ؛ والمعـرفـة التى تُكتـسب وتُنشر بأمانة أخلاقية وفكرية ؛ فهذه بالتأكيد أهدافٌ أفضلُ وإن لم

تكن أيسر تحقيقًا فى الوقت الحاضر من المواجهة والعداء الذى يختزل الخصوم ويحقّرهم . وحبذا لو استطعنا فى سبيل ذلك أن نتخلص نهائيًا من رواسب الكراهية القديمة والعناوين العامة التى تؤذى بعموميتها الإحساس مثل "المسلم" أو "الفارسى" أو "التركى" أو "العربى" أو "الغربى" .

أ.و.س.
٩ فبراير ١٩٨١
نيويورك

الفصل

الأول

1

تصوير الإسلام في الأخبار

أولا : الإسلام والغرب :

عندما أرادت شركة إديسون المتحدة بنيويورك (شركة كون إيد) أن تُقْنع الأمريكيين بضـرورة توفير مصـادر بديلة للطاقة ، أذاعت إعلانًا تليـفزيونيًا مـثيرًا فى صـيف عام ١٩٨٠، يتـضمن لقطات متـحركـة قديمة لبـعض الشخـصيات المعـروفة فى منظمـة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) - مثل الدكتور أحمد زكى يمانى ، والعقيد معـمر القـذافى ، وبعض الشخـصيـات العربيـة التى تلبس الزى العـربى وإن تكن أقل شـهـرة - ويمزج بينهـا ، بالتناوب ، وبين بعض اللقطات الثـابتة الأخـرى، إلى جانب لقطات لشـخصـيات أخرى ارتبطـت أسمـاؤها بالنفـط والإسـلام مثل الخـومينى ، وعرفـات ، وحافظ الأسـد . ولم يشر الإعـلان إلى أى من هذه الشخصـيات بأسمائها ، ولكن المذيع قـال بصوت المنذر المحذّر إن

"هؤلاء الرجال" يتحكمـون فى مصـادر النفط الأمريكيـة. وكان صوت المذيع القادم من الخلفيـة ذا نبرات وقورة ، ولم يفصح عن أسماء "هؤلاء الرجال" ولا عن البلدان التى ينتمـون إليها ، بل ترك المشاهدين يشـعرون بأن هذه الكوكبة من الأشـرار الذكور قد أوقعـوا الأمريكيين فى قـبضة من يتلذذ بتـعذيبـهم دونما ضابط أو رابط . وكان يكفـى أن يظهر "هؤلاء الرجال" على النحو الذى ظهروا به فى الصحف والتـليفزيون حتى يعتـرى الأمريكيين مزيجٌ من مشاعـر الغضب والاستياء والخوف . وكـانت هـذه المشاعـر هى التى عمـــدت شركـة 'كون إيد' إلـى إثارتهـا واستغـلالها فورًا لأسبـاب تجارية محلية ، تمامًـا كما حدث قـبل عام واحد ، عندما ألح ستيوارت أيزنستات ، مستشار الرئيس كارتر للسياسات المحليـة ، على الرئيس أن "يتـخـذ خطوات قـوية لحشـد الأمـة

والالتفـاف حول أزمة حـقيقـية وتحديد عدو واضـح لنا - منظمة أوبك'' .

ويتضـمن إعلان شـركة 'كون إيد' عنصرين يشكلان مـعًا موضوع هذا الكتاب . الأول هو ، بطبـيعة الحال ، الإسلام ، أو بعـبارة أخـرى صـورة الإسلام فى الـغرب بصـفـة عامـة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة . والثانى هو استخدام هذه الصورة فى الغرب وخصوصًا فى الولايات المتـحدة . وكما سوف نرى ، يرتبط العنصران بعضهما بالبعض ارتباطًا يكشف لنا فى النهاية عن الكثـير فى الغـرب وفى الولايات المتحـدة ، مثلمـا يكشف لنا ، بوسـائل أقل وضـوحًا وطرافـة ، عن بعض جـوانب الإسـلام . ولكن لننظر فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب المسيحى قبل أن ننتقل إلى فحص المرحلة الراهنة .

منذ أواخر الـقرن الثامن عـشر ، على الأقل ، وحـتى يومنا هذا، وردود الأفعال الغربية الحديثـة إزاء الإسلام يسيطر عليها نمط تفكير تعرض للتبسيط بصورة جذرية ما زلنا نستطيع أن نطلق عليها صفة التـفكير الاستشـراقى . والأساس العام للفكر الاسـتشراقى يقوم عـلى هيكل جغـرافى ينم عن خيـال خصب وإن كان يـتسم بالاسـتـقطاب الجـوهرى ، إذ يقـسم العـالم إلى قـسمين غـيـر متـساويين، أما القسم الأكـبر ''المختلف'' فاسمـه الشرق ، وأما القسم الآخر ، الذى يُعرف أيضًا باسم ''عالمنا'' فهو الغرب[1] . ودائمًا ما تنشأ أمـثال هذه التقـسيمات عندما ينزع أحـد المجتمعات

(أو إحدى الثقافات) إلى تأمّل مجتمع آخر مختلف أو ثقافة أخرى مختلفة . لكن الطريف هنا هو أن الشرق ، حتى مع اعتباره وباستمرار أدنى مرتبة من الغرب ، دائمًا ما تمتع بما أضفاه الغربيون عليه من تفوق على الغرب فى الحجم وفى القوة الهائلة الكامنة فيه (والتى عادةً ما توصف بأنها هدامة) . ولما كان الإسلام ينتمى فى نظرهم دائمًا إلى الشرق ، أصبح مصيره الخاص داخل هيكل الاستشراق العام هو أن ينظروا إليه فى أول الأمر كما لو كان وحدة متجانسة جامدة ، ثم ينظروا إليه بعد ذلك بمشاعر بالغة الخصوصية من العداء والخوف معًا . ولا شك أن لذلك أسبابه الدينية والنفسية والسياسية الكثيرة ، ولكن كل هذه الأسباب ترجع إلى إحساس الغرب بأن الإسلام لا يقتصر على كونه منافسًا قويًا بل يمثل كذلك تحديًا حديث العهد للمسيحية .

كان الغربيون يعتقدون فى معظم فترات العصور الوسطى وفى إبان مطلع عصر النهضة فى أوروبا أن الإسلام دينٌ شيطانىٌّ يتضمن الرِّدَّة والتجديف والغموض[٢] ولم يكن يعنيهم أن المسلمين يعتبرون محمدًا نبيًا لا إلها ، وأما الذى كان يعنى المسيحيين فهو أن يصفوا محمدًا بأنه نبىٌّ كاذب ، رجل يبذر بذور الشقاق ، ويحب الملاذ الحسية ، ومنافق وعميل للشيطان . ولكن هذه النظرة إلى محمد لم تكن تقوم على أسس العقيدة ، إن شئنا الدقة فى التعبير ، فالأحداث الواقعية فى العالم الحقيقى من حولهم جعلت من الإسلام قوة سياسية جبارة ، إذ استمرت الجيوش

والأساطيل البحرية الإسلامية العظمى على مدى قرون طويلة تهدد أوروبا ، وتدمر مواقعها المتقدمة ، وتستعمر أملاكها. وبدا لهم كأنما برزت فى الشرق صورة أخرى للمسيحية ، أكثر شبابًا ورجولة وطاقة ، فتسلحت بعلوم اليونان القدماء ، وتدعمت بعقيدة حربية بسيطة لا تعرف للخوف سبيلاً فانثنت تبغى هدم المسيحية . واستمر الخوف مما أطلق الغربيون عليه اسم "الديانة المحمدية" حتى بعد أن تعرض عالم الإسلام لفترة من التدهور ، وبدأت أوروبا عصر الرقىّ والنهضة ، ولما كان العالم الإسلامى أقوب إلى أوروبا من أى دين غير مسيحى آخر ، فقد أدت مجاورته لأوروبا فى ذاتها إلى إثارة ذكريات غزواته لأوروبا وتذكيرها دائمًا بقدرته الكامنة على إزعاج الغرب ، المرة بعد المرة. أما حضارات الشرق الكبرى الأخرى - ومن بينها الهند والصين - فيمكن اعتبارها منهزمة ونائية ومن ثم فهى ليست مصدر قلق مستمر ، وبدا لهم أن الإسلام وحده هو الذى لم يستسلم تمامًا فى أى يوم للغرب ، وعندما بدا أن العالم الإسلامى يوشك أن يكرر انتصاراته القديمة من جديد فى أعقاب الارتفاع الكبير فى أسعار النفط فى أوائل السبعينيات ، سرى فى جسد الغرب كله ما يشبه رجفة الرعب .

ثم جاء عام ١٩٧٨ لتحتل إيران قلب مسرح الأحداث وتتسبب فى إحساس الأمريكيين بمشاعر متزايدة من القلق والتوتر. ولم يسبق لبلدان كثيرة تبعد هذه المسافة وتختلف ذلك الاختلاف

عن الولايات المتحدة أن شغلت الأمريكيين بمثل هذا العمق ، ولم يحدث من قبل أن أحس الأمريكيون ، فيما يبدو ، بمثل هذا الشلل ، إذ بدا أنهم لا يستطيعون أن يحولوا دون تتابع وقوع تلك الأحداث الدرامية المتوالية ، بل ولم يتمكنوا في غمار ذلك كله من نسيان أو تناسى إيران ، إذ كان ذلك البلد يمدّ يده بتحدٍّ سافرٍ، فيما يبدو ، وعلى مستويات كثيرة ، ليؤثر فى حياتهم . فلقد كانت إيران من كبار موردى النفط فى فترةٍ شحّت فيها موارد الطاقة . وهى تقع فى منطقة شاع اعتبارها غير مستقرة وذات أهمية استراتيجية حيوية ، وكانت حليفًا مُهمًّا ، لكنها فقدت نظامها الامبراطورى ، وجيشها ، وقيمتها فى الحسابات العالمية التى وضعتها أمريكا فى غضون عام واحد من الاضطرابات الثورية الصاخبة التى لم يسبق لها مثيل تقريبًا ، وعلى مثل هذا النطاق الهائل ، منذ أكتوبر ١٩١٧ ، وكان النظام الجديد الذى وصف نفسه بالنظام الإسلامى ، ويتمتع بشعبية ويتسم بعدائه للإمبريالية ، فيما يبدو ، يكافح حتى يخرج إلى الحياة . واستولت صورة آية الله الخومينى واستولى حضوره على أجهزة الإعلام التى لم تستطع إيضاح شىء عنه ، سوى وصفه بأنه عنيد وقوى وغاضب أشد الغضب من الولايات المتحدة . وأخيرًا ، كان من نتيجة دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩ أن قامت مجموعة من الطلاب الإيرانيين باحتلال سفارة الولايات المتحدة فى طهران يوم ٤ نوفمبر، واحتجاز عدد كبير من

الرهائن الأمريكيين. وقـد كادت الأزمة أن تنفـرج وأنا أكتب هذا الكتاب .

ولكن ردود الفعل على أحداث إيران لم تقع فى فراغ ، فوراء تخوم الوعى الثقافى للجمـهور كان يكمن الموقف الذى طال أمده تجاه الإسـلام ، والعـرب ، والشرق بصفـة عـامة ، وهـو الذى كنت ولا أزال أطلق عليه صـفة الاستشراق . فـسواء قرأت رواية حديثة هلّل لهـا النقاد مثل رواية "**منحنى فى النهر**" التى كتـبها ف. س. نايبول ، ومثل رواية **الضربة الـرابحة** التى كتـبها چون أبدايك ، أو كـتب التـاريخ المدرسـية ، أو الـقصص المرسـومـة بالكاريكاتيـر ، أو مسلسلات التليـفزيون ، أو الأفـلام أو الرسوم الكاريكاتوريـة، فسـوف تجـد الـتصـــوير الذى لا يخـتلف أبدًا للإسـلام، وتحس وجوده دون تـغـيـيـر فى كل مكان ، وترى أنه يستمد مادته من نفس الصورة القـديمة التى ثَبَّتَها الزمن للإسلام ، ومن هنا جاءت الصورة الكاريكاتورية المتواترة للمسلمين باعتبارهم موردين للنفط ، وإرهابيين ، وأخيـرًا باعتبارهم جماهيـر غوغائية متعطشة للدم . وعلى العكس ، لم تفسح الثقافة الأمريكية بصفة عامـة ، ولم يفسح الحـديث عن غيـر الغربيين بصـفة خـاصة ، مساحـة تذكر للحديث أو للتفكيـر ، ناهيك برسم صورة الإسلام أو أىِّ شىءٍ إسلامىٍّ بتعاطفٍ ووُدٍّ . ومـن المحتمل أنك إذا سألت أحـدًا أن يذكر اسم كـاتب **إسـلامى** يعـرفه ، أن تلتـقى مـعظم الإجـابات حول خليل جـبـران (الذى لم يكن إسـلاميًّا) . وأما

الخبراء الأكـاديميون المتخصصون فى الإسـلام فقد دأبوا على تناول هذا الدين وشتى ثقـافاته فى إطار أيديولوجى اختـرعوه أو حددت الثقافة صورته ، فامتلأ بالانفـعال ، وبالتعصب المعهود فى الدفاع النفسى ، وأحـيانًا بالنفور . وهـذا الإطار هو الذى يجعل **تفهّم** الإسلام مـهمـة بالغـة الصعـوبة . فإذا اسـتندنا فى أحكامنا إلى الدراسات المعمّقة والأحاديث الـتى زخرت بها أجهزة الإعلام عن الثورة الإيـرانية فى ربيع عـام ١٩٧٩ ، فسوف نلمـح الاتجاه إلى عدم تقـبل الثورة الإيرانيـة إلاّ باعتـبارها هزيمةً للولايات المتـحدة (وهو ما كانتـه الثورة من زاوية معينة وحسب ، بطبيـعة الحال) أو انتصارًا للظلام على النور .

وقد لعب ڤ. س. نايبول دورًا طريفًـا فى مجال المسـاعدة على توضـيح هذا العداء العام لـلإسلام ، فقـد أشار فى مـقابلة صحفية نشرتها فى الآونة الأخيرة مجلة **نيوزويك انترناشونال** (١٨ أغسطس ١٩٨٠) إلى كـتاب يكتـبه عن "الإسلام" ، ثم قال ، دون أن يسأله أحد رأيه ، إن "الأصولية الإسلاميـة تفتقر إلى أى جوهر فكرى، ومن ثم فلابد أن تنهار" . لكنه لم يحدد الأصولية الإسلامية التى يعنيها ، ولا الجوهر الفكرى الذى يشير إليه ، وإن كـان يقـصــد إيران دون شك ، وأيضًـا - وبنفـس الدرجـة من الغموض - مَوْجَةَ العداء للإمـبريالية من جانب الإسلام فى العالم الثالث فى الفـترة التى تلت الحرب العـالمية الثانية ، فـالمعروف أن نايبول يضمر كراهية مريرة إلى أقصى حد لهذه الموجة . ففى آخر

روايتين له ، وهما **رجال حـرب العصـابات ومنحنى فى النهـر** ، يُشكّك المؤلف فى الإسلام ؛ وفى إطار إدانة نايبول العـامة للعالم الثالث (وهى الإدانة التى يحبـها القراء الغربيون الليبـراليون) نجده يجمع بين الفـساد والشر الكامن فى عـدد من الحكام الذين يرسم لهم صورًا بشـعة مـضحكة ، وبين نهاية الاسـتعـمار الأوروبى ، وبين الجهـود المبذولة بعـد زوال الاستـعمار فى بناء المجـتمـعات الوطنية المحليـة ، باعتبار هذه الظواهر دليـلاً على الفشل الفكرى الشامل فى إفـريقيـا وآسيا . ويقـول نايبول إن "الإسلام" يلعب دورًا كبيرًا ، سواء فى الأسماء الإسلامـية العائلية التى يتسمى بها رجال حرب الـعصابات فى جزر الهند الغـربية ، وهو يرسم لهم صـورة من يُرثى لحاله ، أو فـى الآثار الباقـيـة من تجارة الرقـيق الإفريقـية . وهكذا يتـحول "الإســلام" عند نايبـول وقرائه إلى عنوان يشـمل كل مـا يرفـضـه الإنســان مــن مـوقف العقـلانيـة المتحضرة والغربية[٣] .

إننا نشعـر كأنما يصبح من المحال التـمييز بين العاطفـة الدينية المشبوبة وبين الكفاح فى سبيل قـضية عادلة وبين الضعف البشرى العـادى وبين المنافـسـة الـسـياسـيـة وبين تاريخ الرجـال والنسـاء والمجتـمعات ، عندمـا يتناول الروائيون والصحـفيون ، وواضـعو السيـاسات ، و"الخبراء" موضوع "الإسلام" أو الإسلام الذى نشـهـده الآن فى إيران وغـيـرها من مناطق العـالم الإسـلامى ، فمصطلح "الإسلام" لديهم يشمل ، فيمـا يبدو ، جميع جوانب

العالم الإسـلامى الشاسع المتنوع ، واختـزالها جـميعًـا فى جوهر خاص يـضمـر الشر ولا يعـرف التفكيـر . ولا يمكن أن نجنى من ذلك، بدلاً من التحليل والتفهم ، إلا أشد أشكال المواجهة سذاجة بيننا وبينهم ، أى صيغة "نحن" فى مقابل "هم" ! وإذن فمهما يَقُلْ الإيرانيون أو المسلمون عن مفهومهم الخاص للعدالة ، أو عن تاريخ الظلم الذى تعـرضـوا له ، أو عن رؤيتهم لمجـتـمعـاتهم، فسـوف يبدو ذلك لا صلة له بالموضوع ؛ وأمـا ما يعنى الولايات المتحدة ، بدلاً من ذلك ، فهو ما تفعله "الثورة الإسلامية" الآن، وعدد الأشخاص الذين أصدرت المحاكم الثورية الحكم بإعدامهم ، وعـدد الفظائع الغـريبةَ التى أمـر آية الله المذكـور بارتكابهـا باسم الإسـلام . ولم يحاول أحـد بطبيـعة الحـال أن يوازى بين أىٍّ من ذلك وبين مذبحة جـونز تاون ، أو اللوثة الجماهيريـة الهدامة فى الحفل الغنائى الذى قدمه فريق "هُوُ" فى سنسيناتى ، أو الخراب الذى أحدثتـه المسيـحية فى الهند الصـينية، أو الثـقافة الغـربية أو الأمريكية بوجـه عام. فمثل هذا التـوازى يقتصر على مـا يسمونه "الإسلام".

لماذا شهدنا كثـيرًا إذن قيامهم بضغط شتى الأحداث السـياسية والثقـافية والاجتـماعية بل والاقـتصادية ، على تنوعهـا الهائل ، واختزالها بذلك الأسلوب الباڤلوفى فى مصطلح "الإسلام" ؟ ترى ما الـذى يتميـز به " الإسلام" حـتى يحدث ذلك الرد التلقـائى السريع المنفلت من كل عقال ؟ ترى مـا أوجه اختلاف "الإسلام"

والعالم الإسلامى عند الغـربيين عن بقية العالم الثـالث مثلاً وعن الاتحاد السوفييتى ؟ هذه أسئلة أبعد ما تكون عن البساطة ، ولذلك فلابد من تجزئة الإجابة عليها ، وتبيان عناصرها ووصف كل على حدة والتمييز فى تمهل بينها .

تشتـهر الأسماء العـامة التى يُقصـد بهـا الدلالة على شرائح بالغة الضخامة والتعقـيد من دنيا الواقع بالغموض ، على كراهيتنا له ، وبأنها فـى الوقت نفسه مـحتومـة . فإذا كـان صحيـحًا أن مصطلح "الإسلام" اسم عام يفـتقـر إلى الدقة ، إلى جـانب ما يحـمله من الشـحنة الأيديولوجـية ، فـمن الصـحيح كـذلك أن مـصطلحى " الغرب" و"المسـيـحيـة" من المصطلحـات المشكلة كذلك. ومع ذلك فـالسبيل غـير ميـسّر لنا لتجنب هذه الأسـماء العامة ، ما دام المسلمون يتكلمـون عن الإسلام ، والمسيحيون عن المسيحـية ، والغربيون عن الغـرب ، وما دام كل طرف يتكلم عن الأطراف الأخرى جميعًا بأساليب تـبدو مقنعة ودقيقة . وأظن أنه من الأجدى الآن علينا ألاّ نحـاول أن نقترح وسائل التـفاف حول هذه الأسماء العـامة ، بل أن نعترف بدايةً بوجـودها وبأنها ظلت تستعمل ردحًا طويلاً من الزمن باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من التاريخ الثقافى لا باعتـبارها تصنيفات موضوعـية . وسوف أعود فى هذا الفصل بعد قليـل إلى الحديث عنها باعتبـارها تفسيرات وضعـتها لنفسهـا المجتمعات التى تأخـذ بتفـسيرات معينة ، وهـى التـسمية التى سأضـعها لهـا . وهكـذا فإن علينا أن نذكر أن مـصطلحات "الإسلام" و"الغرب" بل و" المسيحية" تقوم كل منهـا بوظيفتين

مخـتلفتين ، ويدل كل منها على مـعنيين اثنين على الأقل فى كل مرة يستـخدم فيهـا المصطلح. فهى أولاً تنهض بوظيفـة التعريف البسيطة ، ومـثال ذلك قولنا إن الخومينى مـسلم أو إن البابا يوحنا پولس الثانى مسيحى . فـأمثال هذه الأقوال تحمل الحد الأدنى من الدلالة على ماهـية الشىء فى مقـابل الأشياء الأخـرى جميـعًا . وعلى هذا المستوى نستطيع التمييز بين البرتقالة والتفاحة (مثلما نميز بين المسلم والمسيحى) وإن كان ذلك لا يتعدى حدود معرفتنا أنهما فاكهتان مـختلفتان ، تنمو كل منهما على شجـرة مختلفة ، وهلم جرًا .

وأما الوظيفة الثـانية لهذه الأسماء العامـة المتعددة فهى الدلالة على معانٍ أشد تعقيدًا . فالحديث عن "الإسلام" فى الغرب اليوم يعنى الإشـارة إلى الكثير مـن المساوئ التى ذكرتـها . أضف إلى ذلك أنه من المحتمل أن يدل مصطلح "الإسلام" على شىء يعرفه المرء مـعرفة مـباشـرة أو موضـوعيـة . ويصدق هذا القـول على استعمالنا لمصطلح "الغرب" . ترى كم عدد الذين يستعملون هذه المصطلحات بغضب أو بثـقة وهم يحيطون إحاطة مُحكمـةً بجميع جوانب التقاليد الغربية ، أو الفقه الذ نونى الإسلامى ، أو اللغات المستـعملة فـعلاً فى العـالم الإسلامى ؟ الواضح أن عـددهم بالغ الضـآلة ، ولكن ذلك لا يمنع الناس من وضع الصـفـات المميـزة "للإسلام" أو "للغرب" ، أو من الاعتـقاد بأنهم يعـرفون على وجه الدقة ما يتحدثون عنه .

وهذا هو ما يدعونا إلى أن نأخذ الأسماء العامة مأخذ الجد .

فالمسلم يتحدث عن ''الغرب'' ، والأمريكى يتحدث عن ''الإسلام'' ، وكل منهما يرى وراء هذه التعميمات الهائلة تاريخًا طويلاً يُعينه ويَعُوقُه فى الوقت نفسه ، فإن لها طابعًا أيديولوجيا يزخر بمشاعر مشبوبة جارفة ، كما إنها نجحت فى البقاء بعد المرور بتجارب وخبرات كثيرة واستطاعت التكيُّف مع كل جديد من الأحداث والمعلومات وحقائق الواقع . ولقد اكتسب كل من مصطلحى ''الإسلام'' و''الغرب'' حاليًا وجودًا حاضرًا مُلحًّا وقويًّا فى كل مكان ، وعلينا أن نشير فورًا هنا إلى أن الطرفين اللذين يجرى تحريض أحدهما على الآخر دائمًا ، فيما يبدو ، هما الغرب والإسلام لا المسيحية والإسلام . وأما السبب فيكمن فى افتراض أن ''الغرب'' أكبر من المسيحية وأنه تخطى مرحلة الدين المسيحى ، وهو الدين الأساسى فى الغرب ، وأن عالم الإسلام - على الرغم من تنوع مجتمعاته وتواريخه ولغاته - لا يزال غارقًا فى الدِّين ، وفى الحياة البدائية والتخلف . والافتراض يعنى إذن أن الغرب حديث الطابع ، وأكبر من مجموع أجزائه ، وحافل بالمتناقضات الثرية المثرية ، ومع ذلك فهو دائمًا ذو هوية ثقافية ''غربية'' ، وأما عالم الإسلام ، فهو لا يتجاوز مصطلح ''الإسلام'' ، ويقبل الاختزال فى عدد محدود من الخصائص الثابتة رغم ما يبدو فيه من تناقضات وخبرات التنوع التى تبدو على السطح بالكثرة التى يتميز الغرب بها .

وهاك مثالاً قريب العهد على ما أعنيه ، وهو مقال منشور في باب "استعراض أنباء الأسبوع" من صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٨٠ . والمقال كتبه جون كيفنر وهو مراسل الصحيفة الكفء في بيروت ، وموضوع المقال هو مدى تغلغل الاتحاد السوڤييتي في العالم الإسلامي. وأما الفكرة التي يطرحها كيفنر فيدل عنوان المقال عليها بوضوح كاف ، فالعنوان هو "لا يزال التنافر قائمًا بين ماركس والمسجد" ، ولكن الجدير بالإشارة أنه يستخدم مصطلح "الإسلام" في إقامة رابطة مباشرة ومطلقة ، وكان يمكن أن تكون مرفوضة في سياقات أخرى ، بين أحد المفهومات المجردة وبين حقائق الواقع البالغ التعقيد . وحتى إذا سلّمنا بأن الإسلام يختلف عن سائر الأديان الأخرى في أنه دين جامع لا يفصل بين الكنيسة والدولة ، أو بين الدين والحياة اليومية، فإن الفقرات التالية من مقال كيفنر تتضمن ما يعتبر دليلاً على الجهل وداعيًا للتضليل بصورة فريدة ، وربما بصورة متعمدة ، وإن كان كلامًا تقليديًا لا جديد فيه :

> إن سبب انحسار نفوذ موسكو يتسم ببساطة خادعة ، ألا وهو أن ماركس والمسجد لا يتفقان . [ترى نفترض إذن أن ماركس أقرب إلى الاتفاق مع الكنيسة أو مع المعبد ؟] .

وفيما يتعلق بالذهن الغربي [وهذا هو بيت القصيد كما هو واضح] فلقد تكيّف منذ حركة الإصلاح الديني مع التطورات التاريخية والفكرية التي عملت بانتظام على تقليل

الدور المنوط بالدين ، وهكذا فهو يواجـه صعوبة فى تفهم القوة التى يمارسـها الإسلام [وإذن فالمفـترض أنه لم يتكيف مع التطورات التـاريخـيـة أو الفكرية] ومع ذلك فلقـد ظل الإسلام على امتداد قرون طويلة يمـثل القوة الرئيسـية فى حيـاة هذه المنطقة ، ويبـدو ، ولو مؤقـتًا على الأقل ، أن قوته فى ازدياد .

لا يفصل الإسلام بين الدين والدولة ، فهو نظام جامع لا يقتصر على العقيدة بل يشمل العمل كذلك ، وبه قواعد ثابتة تحكم الحـياة اليومـية ، ودافع روحى يدفع المسلم إلى مواجـهة الكافـر أو هدايته للإسلام . وفى نظـر المتدينين، وخـصوصًـا العلمـاء وفقـهاء الـدين منهم ، بل وفى نظر الجمـاهير أيضًـا [أى لا استـثناء لأحد] تبـدو الماركسـية ، بنظرتها الدنيوية المحـضة للإنسان مذهبًا غـربيًا بل ومذهب تجديف كذلك .

أى إن كيفنر لا يقتصر على تجـاهل التاريخ وبعض التعقيدات الأخرى مـثل سلسلة الموازنات التى يقيـمها مكـسيم رودنسون بين الماركسية والإسلام (ويدرسها فى كـتاب يحاول إيضاح سبب نجاح الماركسية ، فيما يبدو ، فى النفـاذ إلى بعض المجتمعات الإسلامية على مر السنين)[4] بل إن كفنر يقيم حجتـه على مقارنة خفيّة بين ''الإسلام'' و''الغرب'' وهو الذى يتميز فى نظره بتنوع حـــــتى ليصعب تحديد طابعه بالمقارنة بالإسلام الذى يوحى كفنر بأنه يتسم

بالبساطة والجمود والشمولية . والطريف هو أن كنثر قادر على أن يقول ما يقوله دون المخاطرة بأن يبدو مخطئًا أو مغفّلا !

الإسلام فى مقابل الغرب – هذا هو اللحن "القرارى" الذى تصاحبه مجموعة من التنويعات ذات الخصوبة المذهلة ، ومن الأفكار الموسيقية التى تتضمنها هذه التنويعات فكرة أوروبا فى مقابل الإسلام ، وأمريكا فى مقابل الإسلام[5] . وإن كنا نلمح الدور المهم الذى تلعبه الخبرات العملية المختلفة مع الغرب أيضًا ، بصورة عامة ، إذ لابد من رصد وجه الاختلاف البالغ الأهمية بين الوعى الأمريكى والوعى الأوروبى بالإسلام . فحتى عهد قريب كانت فرنسا وانجلترا ، مثلاً ، تمتلكان امبراطوريات إسلامية شاسعة ، وسوف نجد فى كل من هاتين الدولتين ، وإلى حد أقل فى إيطاليا وهولندا اللتين كانتا تحتلان مستعمرات إسلامية أيضًا ، تراثًا طويلاً متصلاً من الخبرة المباشرة بالعالم الإسلامى[6] . ويتجلى هذا فى المبحث الأكاديمى الأوروبى المتميز الذى نسميه الاستشراق، والذى ازدهر فى البلدان ذات المستعمرات وكذلك فى بعض البلدان الأخرى (مثل ألمانيا وإسبانيا وروسيا قبل الثورة) التى كانت تريد لنفسها مستعمرات أو كانت قريبة من الأقاليم الإسلامية أو كانت هى نفسها دولاً إسلامية . ويعيش اليوم فى الاتحاد السوفييتى قرابة ٥٠ مليون مسلم ، كما قام فى أواخر عام ١٩٧٩ باحتلال دولة أفغانستان المسلمة . ولن نجد نظائر لأى من ذلك كله فى الولايات المتحدة ، وإن كنا سوف نجد عددًا هائلاً ، بل لم

يسبق له مثيل ، من الأمريكيين الذين كتبوا أو فكروا أو تحدثوا عن الإسلام .

وهكذا فإن عدم وجود الماضى الاستعمارى أو الاهتمام الثقافى الطويل الأمد بالإسلام فى أمريكا يزيد من غرابة انشغالها إلى حد الهوس حاليًا به ، ويجعله أشد تجريدًا ، وأقرب إلى أن يكون خبرة نقلها عن الآخرين . إذ إن عدد الأمريكيين الذين يتمتعون بخبرة التعامل المباشر مع المسلمين بالغ الضآلة نسبيًا ، فإن شئنا المقارنة وجدنا أن الدين الثانى فى فرنسا ، من حيث عدد معتنقيه ، هو الإسلام ، وقد لا يكون فى هذا سبب لحبه ولكنه بالتأكيد يزيد المعرفة به . وكانت موجة الاهتمام الأوروبى فى العصر الحديث بالإسلام تمثل أحد عناصر ما وصف بأنه "النهضة الاستشراقية" ، وهى الفترة التى تمتد من أواخر القرن الثامن عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر وقام فيها العلماء الفرنسيون والبريطانيون بإعادة اكتشاف "الشرق" - الهند والصين واليابان ومصر وبلاد ما بين النهرين ، والأراضى المقدسة . وسواء كان ذلك خيرًا أم شرًا ، فإنهم كانوا ينظرون إلى الإسلام باعتباره جزءًا من الشرق ، يشاركه غموضه وغرابته وفساده وقوته الكامنة . صحيح أن الإسلام ظل يشكل تهديدًا عسكريًا مباشرًا لأوروبا على امتداد قرون سابقة ، وصحيح أيضًا أن الإسلام كان يمثل مشكلة للمفكرين المسيحيين فى العصور الوسطى ومطلع النهضة بعد أن استمروا على مدى مئات السنين ينظرون إليه وإلى نبى الإسلام

محمد ، على أنهـما يمثلان أحطّ لون من ألوان الرِّدّة ، ولكنه كان على الأقل يمثل لكثـير من الأوروبيين ضربًا من الـتحدى الثـقافى الدينى الذى لم يمنع الإمـبريالية الأوروبيـة من بناء مؤسسـاتها فى الأراضى الإسلاميـة . ومهما يكن العـداء بين أوروبا والإسلام ، فلقد نشأت أيضًـا خبرة مباشـرة به ، كما أبدى كثيـر من الشعراء والروائيين والعلماء - مـثل جيته، وجـيرار دى نيرفال، وريتشارد بيرتون ، وفلوبير ، ولويس ماسينيون - افتتانهم به الذى تجلّى فى إبداعاتهم وأعمالهم المرهفة المستهلمة من الإسلام .

ومع ذلك ، وعلى الرغـم من جـهـود هؤلاء والآخـرين من أمثـالهم ، لم يكن الإسلام فى يوم من الأيام مـوضع ترحيب فى أوروبا ، ولم يكن معظم فلاسفـة التاريخ الكبار ، من هيجل إلى شبنجلـر ، يبدون حمـاسًا شديدًا للإسـلام . ولقد كـتب ألبرت حورانى مقالاً يتميـز بالوضوح والبعد عن الهوى بعنوان "الإسلام وفلسفة التاريخ" ناقش فيه الخطّ المـستمر ، وإلى درجة مـثيرة ، للإسلام باعتـباره نظامًا من نظم العـقيدة[٧] . فإذا اسـتثنينا بعض الاهتمامات العارضة بكاتب من متصوفة الإسلام أو بإمام من أئمة الصوفيـة ، وجدنا أن موجات الإقبال الشـعبى فى أوروبا على ما يسمى "حكمة الشرق" نادرًا ما كانت تتضمن الحكماء أو الشعراء المسلمين ، وتكاد مـعـرفـة الأوروبيين المحـدثين بالشـخصـيـات الإسلاميـة الشهيرة تقتـصر على عمر الخيـام ، وهارون الرشيد ، والسندباد، وعـلاء الدين ، وحاجى بابا ، وشـهرزاد ، وصـلاح

الدين ولم يستطع حتى كارلايل أن يأتى بالقبول على نطاق واسع للنبى محمد ، وأما جوهر العقيدة التى دعا إليها محمد ، فلقد بدت للأوروبيين ومنذ زمن بعيد غير مقبولة لأسباب مسيحية أساسًا، وإن كانت لم تخْلُ من طرافة لهذه الأسباب ذاتها . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، ومع زيادة الوطنية الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، شاع الرأى القائل بأن المستعمرات الإسلامية كُتب عليها أن تبقى تحت الوصاية الأوروبية لسببين مجتمعين : الأول أنها مربحة والثانى أنها متخلفة وتحتاج إلى الانضباط الغربى(٨) . فإذا تغاضينا عن ذلك ، وعن تواتر دلائل العنصرية وأحداث العدوان على العالم الإسلامى ، وجدنا أن الأوروبيين قد أفصحوا فعلاً عما كان الإسلام يعنيه لهم . ومن هنا تكاثرت صور الإسلام فى شتى مجالات الثقافة الأوروبية - فى الدراسة العلمية، وفى الفن والأدب والموسيقى والأحاديث العامة - منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى يومنا الحالى .

ولن نجد فى الخبرة الأمريكية بالإسلام شيئًا يذكر من هذه الظواهر الملموسة ، فلقد كانت صلات الأمريكيين بالمسلمين فى القرن التاسع عشر محدودة إلى حد بعيد ، وقد نذكر بعض الرحالة العابرين مثل مارك توين أو هرمان ملفيل ، أو بعض رجال التبشير الدينى المتفرقين ، أو الحملات العسكرية التى لم تستمر طويلاً إلى شمالىّ إفريقيا . وأما فى المجال الثقافى فلم يكن الإسلام يشغل مكانًا متميزًا فى أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية ،

إذ كان الخبراء الأكاديميون عـادة ما يقومون بدراساتهم للإسلام فى أركـان هادئة فى مدارس اللاهوت ، بـعيـدًا عن الأضواء البـاهرة للاستشراق وبعيدًا عن صفـحات المجلات الكبرى . واستمر على مدى المائة عام الأخيرة تقـريبًا ضرب من التكافل الحيوى (المدهش رغم هدوئه) بين أسـر المبشرين الأمـريكيين فى البلدان الإسلامـية وبين رجال وزارة الخـارجية وشركـات النفط . وكان هذا التكافل يلوح على السطح بين الفـينة والفينـة فى صورة تعليـقات مـعادية "للمسـتعربين" فى وزارة الخارجـية وشركـات النفط، وقيل إنهم كانوا يضمرون حُبًّا للإسلام يتميز بخبثـه ومعاداته للسامية . ومن ناحية أخرى فإن جميع كبـار الخبراء فى الإسلام الذين ذاع صيتهم فى الولايات المتـحدة قـد ولدوا فى بلدان أجنبـية، مـثل اللبنانى فيلـيب حتىِّ ، بجـامعة برنسـتون ، والنمسـوى جـوستـاف فون جرونيـباوم ، فى جـامعـة شيكاغـو وجامـعة كالـيفورنيـا بلوس أنجيليس، والبريطانى هـ. أ. ر. جـيب ، فى جامعة هارڤارد ، والألمانى چوزيف شاخت فى جامعـة كولمبيا . ومع ذلك فلم يكن أى من هؤلاء الرجال يتمـتعون بالتفوق النسبى فى المكانة الثـقافية المهيبة مثل چاك بيرك فى فرنسا أو ألبرت حورانى فى انجلترا .

ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم - حتِّى وجـيب وفون جرونيباوم وشاخت - قـد اختفوا من المسـرح الأمريكى ، كما إنه من غـير المحتمل أن يُعقب علماء مثل بيـرك وحورانى خلفاء لهم فى فرنسا وانجلترا ، فـلا يتمـتع اليوم أحد بثـقافتـهم العريضـة ولا باتساع

المجالات التى يعتبرون حجة فيها ، فالخبراء الأكاديميون الغربيون فى الإسلام اليوم عادة ما يتخصصون فى مدارس فقه القانون الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى فى بغداد ، أو فى أنماط المدن المغربية فى القرن التاسع عشر ، دون أن يحيطوا مطلقًا (أو بصورة شبه مطلقة) بالحضارة الإسلامية كلها - بالأدب ، وبالقانون ، وبالسياسة ، وبالتاريخ، وبعلم الاجتماع وهلم جرا. ولكن هذا لم يمنع الخبراء من إطلاق الأحكام العامة من حين إلى آخر على "العقلية الإسلامية" أو "الولوع الشيعى بالاستشهاد" ، وإن كانت مثل هذه الأقوال مقصورة على المجالات الجماهيرية وأجهزة الإعلام ، فهى التى كانت تطلب منهم أصلاً إبداء آرائهم. ومما يزيد عن هذا فى مغزاه هو أن فرص المناقشات العامة للإسلام ، من جانب الخبراء وغير الخبراء، لا تأتى بها فى معظم الأحيان إلا الأزمات السياسية ، ومن أندر النادر أن نجد مقالات توفر بعض المعلومات عن الثقافة الإسلامية فى مجلة **نيويورك ريڤيو أوڤ بوكس** (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب) أو مجلة **هاربر** مثلاً . ولم يكد موضوع "الإسلام" يبدو جديرًا بالتعليق العام إلا حين يتعرض استقرار المملكة العربية السعودية أو استقرار إيران لهزّة ما.

علينا إذن أن نذكر أن الإسلام قد وجد سبيله إلى وعى معظم الأمريكيين - بل إلى وعى أساتذة الجامعات وأصحاب الثقافة العامة الذين يحيطون إحاطة وافية بأوروبا وأمريكا اللاتينية -

لسبب رئيسى ، وإن لم يكن السبب الأوحد ، وهو ارتباط الإسلام بقضايا تشغل وكالات الأنباء مثل قضايا النفط ، وإيران وأفغانستان والإرهاب(٩) . وما إن حلّ منتصف عام ١٩٧٩ حتى اكتسب ذلك كله صفة الثورة الإسلامية ، وأصبح يشار إليه باسم ''أزمة الهلال'' أو ''قوس القلقلة'' أو ''عودة الإسلام'' . ومن الأمثلة ذات الدلالة الكبيرة فى هذا السياق ما فعله الفريق العامل الخاص بالشرق الأوسط التابع لمجلس دول الأطلسى (وهو الفريق الذى كان يضم برينت سكوكروفت ، وچورج بول ، وريتشارد هلمز ، وليمان ليميتزر ، ووولتر ليڤى ، ويوچين روستر ، وكيرميت روزڤلت ، وجوزيف سيسكو ، وغيرهم) ، فعندما أصدر الفريق تقريره فى خريف ١٩٧٩ وضع له عنوانًا خاصًا هو ''النفط والبلبلة : اختيارات الغرب فى الشرق الأوسط'' (١٠)

وعندما خصصت مجلة **تايم** موضوعها الرئيسى للإسلام بتاريخ ١٦ إبريل ١٩٧٩ زينت غلافها بلوحة للفنان الفرنسى چيروم تصور مؤذنًا ملتحيًا يقف على مئذنة ويدعو المؤمنين بوقار إلى الصلاة ، وكانت اللوحة تتميز بالتنميق الشديد والمبالغة الصارخة مثل جميع فنون الاستشراق التى شهدها القرن التاسع عشر ، ومن دلائل التناقض الزمنى أن تكون هذه اللوحة الوقورة مُزيّنة بكلمات لا علاقة لها بها وهى ''إحياء الجهاد'' ولم أجد أفضل من هذا الغلاف للدلالة على الفرق بين موقف أوروبا وموقف أمريكا تجاه موضوع الإسلام ، إذ حوّلت المجلة لوحة هادئة زخرفية ، كانت

تعتبر في أوروبا جزءًا من الثقافة العامة لا أكثر، إلى صورة قادرة - بفضل الكلمتين المضافتين - على الدلالة على ما يشغل العقل الأمريكى لحد الهوس .

لكننى ولا شك أبالغ ؟ ألم يكن موضوع صورة الغلاف لمجلة **تايم** عن الإسلام نموذجًا وحسب للسوقية ، يبتغى إرضاء ما هو مفترض من نشدان الإثارة ؟ هل تراه يكشف **حقًّا** عما هو أخطر من هذا ؟ ومنذ متى كانت لأجهزة الإعلام أهمية كبرى فيما يتعلق بالقضايا الخطيرة ، أو قضايا السياسات ، أو قضايا الثقافة ؟ ثُم **أليس** صحيحًا أن الإسلام قد فرض نفسه على اهتمام العالم وشغل أنظاره ؟ وماذا جرى للخبراء المتخصصين فى الإسلام ، ولماذا تتعرض إسهاماتهم للتجاهل التام أو للدفن تحت الصورة التى تناقشها وتنشرها أجهزة الإعلام "للإسلام" ؟

لا بأس أولاً من إيراد بعض الإيضاحات البسيطة . لم يحدث، كما سبق لى أن ذكرت أن تمتع أحد الخبراء الأمريكيين المتخصصين فى العالم الإسلامى بجمهور عريض من القراء . وباستثناء كتاب **مغامرات الإسلام** الذى يقع فى ثلاثة مجلدات وكتبه المرحوم مارشال هودجسون ونشر بعد وفاته عام ١٩٧٥ ، لم يحدث أن وجد جمهور المثقفين كتابًا عامًّا عن الإسلام يعرضه عليهم بالأمانة المطلوبة(١١) . فإمّا أن الخبراء كانوا على درجة من التخصص لا تسمح لهم إلاّ بمخاطبة غيرهم من المتخصصين ، وإما أن عملهم لم يكن متميّزًا فكريًّا بما يكفى لاجتذاب الجمهور

الذى أقبل على الكتب المكتوبة عن اليابان أو أوروبا الغربية أو الهند . ولكن هذا الأمر يقابله أمر مضاد . فإذا كان صحيحًا أننا لا نستطيع ذكر اسم "مستشرق" أمريكى يتمتع بأى صيت خارج نطاق الاستشراق ، كشأن بيرك أو رودنسون فى فرنسا ، فمن الصحيح أيضًا أن دراسة الإسلام لا تتمتع بتشجيع حقيقى داخل الجامعات الأمريكية ، ولا تجد من يساندها فى مجال الشخصيات العامة التى تتمتع بذيوع الصيت والامتياز الذاتى الكفيلين بجعل خبرات هذه الشخصيات بالإسلام مهمة فى ذاتها[١٢] ، من هم النظراء الأمريكيون للكُتّاب الأوروبيين من أمثال ريبكا وست ، وفريا ستارك ، وت. أ. لورنس ، وولفريد ثيسنجر ، وجرترود بل ، وب. هـ. نيوبى ، وأخيرًا چوناثان رابان ؟ إنهم، فى أفضل الحالات ، من رجال المخابرات الأمريكية السابقين مثل مايلز كوبلاند أو كيرمت روزفلت ، ونادرًا ما يكونون من الكُتّاب أو المفكرين المتميزين ثقافيًا على الإطلاق .

والسبب الثانى لافتقار الساحة الأمريكية (وهو افتقار له حساسيته) إلى آراء الخبراء فى الإسلام هو هامشية الخبراء إزاء الأحداث الظاهرة فى عالم الإسلام عندما بدأت هذه الأحداث تشغل مكانًا فى نشرات الأنباء فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين . أما الحقائق المهمة بل التى لا جدال فى أهميتها فهى أن دول الخليج المنتجة للنفط بدت فجأة بالغة القوة ؛ واندلعت حرب أهلية شرسة بصورة رهيبة ولا تبدو لها نهاية فى لبنان ؛ واشتبكت

إثيوبيا مع الـصومال فى حرب طويلة الأمد ؛ وأصـبحت المشكلة الكردية مشكلة مـحورية من حيث لم نكن نتوقع ، ثـم انحسرت وصفا الجو بعد ١٩٧٥ ، من حيث لم نكن نتوقع أيضًا؛ وخلعت إيران ملكهـا (الشاه) فى أعـقاب ثورة ''إسلامـية'' هائلة فاجأت الجميع ؛ وشهدت أفغانستـان انقلابًا ماركسيًا عام ١٩٧٨، ثم وقع الغزو السوڤييتى فى أواخر عـام ١٩٧٩ ؛ واشتبـكت الجزائر مع المغـرب فى صراع طويل الأجل حـول قضـيـة الصحـراء الغربيـة (الجنوبية) ؛ وأعدمت باكـستان رئيسهـا السابق وجاءت إلى الحكم دكتاتورية عسكرية ، كما وقعت أحداث أخرى كثيرة ، كان آخرها الحـرب بين إيران والعـراق ، ولكن الأحـداث المذكـورة تكفى . وأعتـقد بصفة عـامة أنه من الإنصاف أن نقـول إن كتابات خـبراء الإسلام فى الغرب لم تستطع إيضـاح الكثير من هذه الأحداث . إذ لم يقتصـر الأمر على عجز الخبراء عن التنبـؤ بهذه الأحداث أو عدم تهـيئـة قرائهم لهـا ، بل إنهم لجأوا بدلاً من ذلك إلى كـتابة نصوص إذا قـورنت بما يحدث بدت كـأنما تتناول إقليمـًا نائيًا من المحال الوصول إليه فى هذا العالم ، ولا عـلاقة له تقريبًا بالقلاقل المستـمرة وما تمثله من تهـديد نشهده وهى تتـفجر أمـام أعيننا فى أجهزة الإعلام .

هذا موضوع أسـاسى ، وإن لم يحاول أحد مناقشتـه مناقشة عقلانيـة حتى الآن ، وإذن فعلينا أن نلتـزم الحذر فى تناولنا له . فالخبراء الأكاديميون فى مجال الإسلام قبل القرن السابع عشر كانوا

يدرسون عالمًا ينتمى بصفة أساسية إلى مجال الآثار ، وإلى جانب هذا ، فإنهم مثل سائر المتخصصين ، كانوا يعملون فى تخصصات بالغة الانفصال عن بعضها البعض ، فلم يكونوا يريدون أو يحاولون أن يشغلوا أنفسهم بما ترتب على التاريخ الإسلامى من آثار حاضرة فى عالم اليوم . وكان عملهم مرتبطًا إلى حد ما بالأفكار الخاصة بالإسلام "الكلاسيكى" أو ما افترضوا أنه أنساق لا تتغير للحياة الإسلامية ، أو بعض المسائل القديمة فى فقه اللغة . ولكنه كان من المحال ، على أية حال ، الانتفاع بما يدرسونه فى تفهم العالم الإسلامى الحديث ، وهو الذى يتطور فى حقيقة الأمر بصور بالغة الاختلاف عما توقعه الناس فى القرون الأولى للإسلام (أى من القرن السابع إلى القرن التاسع) وإن تفاوت هذا التطور من منطقة إلى منطقة فيه .

وكان الخبراء الذين يعملون فى مجال "الإسلام" الحديث - أو إن شئنا الدقة ، فى مجال يضم المجتمعات والأشخاص والمؤسسات القائمة داخل العالم الإسلامى منذ القرن الثامن عشر - يعملون فى حدود إطار متفق عليه للبحث العلمى ، وهو الإطار الذى تشكّل وفقًا لأفكار **لا علاقة لها قطعًا** بالعالم الإسلامى . ومهما كررنا وفصّلنا القول فى هذه الحقيقة ، على تعقيدها وتنوعها ، فلن نكون مبالغين . فلا شك فى أن الباحث الذى يمارس بحثه فى أوكسفورد أو فى بوسطن ، يكتب ويجرى أبحاثه استنادًا بصفة أساسية إلى معايير وأعراف وتوقعات وضعها

أقرانه لا المسلمون الذين يدرسهم ، وإن لم يقتصر عليها . ربما كانت هذه بديهية ، ولكننا لابد أن نؤكدها على أية حال . فالدراسات الإسلامية الحديثة فى الجامعات تنتمى إلى ما يسمى 'برامج المناطق' بصفة عامة - أى أوروبا الغربية ، والاتحاد السوفييتى ، وجنوب شرقىّ آسيا ، وهلم جرًّا . ومن ثم فهى ترتبط بالآليات التى تُرسم بها السياسة القومية . وهذا أمر مطروح لاختيار الباحثين كل على حدة . فإذا كان باحث فى جامعة برنستون يقوم ببحثه فى المدارس الإسلامية المعاصرة فى أفغانستان، فمن الواضح (خصوصًا فى فترة كالتى نمر بها) أن مثل هذه الدراسة من المحتمل أن تترتب عليها فوائد للسياسات القومية ، وسواء شاء الباحث أم أبى فسوف يجد أنه قد ارتبط بخيوط تشده إلى الحكومة أو إلى الشركات أو السياسة الخارجية ، وهو ما تنسحب آثاره على التمويل ، ونوع الأشخاص الذين يقابلهم ، وبصفة عامة ، يجد أنه يواجه أنماطًا خاصة من الثمار لعمله والتفاعل مع ما حوله . وهكذا يتحول الباحث رغم أنفه إلى ''خبير بالمنطقة'' .

والباحثون الذين ترتبط اهتماماتهم ارتباطًا مباشرًا بقضايا السياسات (وهم أساسًا المتخصصون فى العلوم السياسية ، ولكنّ من بينهم أيضًا المتخصصين فى التاريخ الحديث ، والاقتصاد وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا) يواجهون مسائل حساسة ، إن لم نقل خطيرة . فعلى سبيل المثال كيف يمكن التوفيق بين مكانة الباحث

العلمى والمطالب التى تفرضهـا الحكومة عليه ؟ وحالة إيران نموذج ينطبق عليـه ذلك كل الانطـباق . فـفى إبان حكم الشـاه ، كـان المتخصصـون فى إيران يتوافر لهم التمويل من المؤسـسة البهلوية ، وكذلك أيضًا من المؤسـسات الأمريكية ، بطبيعـة الحال . وكانت هذه الأموال مخصصة للإنفاق على الدراسات القائمة على الوضع الراهن (وفى هذه الحـالة وجـود النظام البـهلوى المرتبط عـسكريًا واقتصاديًا بالولايات المتحـدة) ومن ثم أصبحت هذه الدراسات من زاوية معينة النموذج البـحثى المتاح لمن يدرسون ذلك البلد . وفى مرحلة متأخرة من مراحل الأزمة أصـدرت لجنة دائمة مختارة تابعة لمجلس النواب ومخـتصة بالعاملين فى الاسـتخبارات دراسـة جاء فيها أن تقـييم الولايات المتحدة للنظام يتأثر فى كل مـرة بالسياسة القائمة "ليس بصورة مبـاشرة عن طريق التستر عـمدًا على الأنباء غير المواتية ولكن بصورة غير مباشرة. . . فواضعـو السياسات لم يتسـاءلوا عما إذا كـان نظام حكم الشاه سـوف يستمـر إلى ما لا نهاية؛ وكانت السياسات توضع على أساس ذلك الافتراض"[١٣١].

وقد أدى هذا بدوره إلى ضآلة عدد الدراسات التى تتـضمن التقييم الجاد لنظام حكم الشاه وتحديد مصادر لمعـارضة الشعبية له . وفى حدود مـا أعلم ، لم ينجح إلا باحث واحد ، هو حامـد الجار ، من بيركلى ، فى وضع التقـدير الصحيح للقوة السياسـية المعاصرة للمشاعر الدينية الإيرانية ، وكـان وحده هو الذى ذهب فى تقييمه إلى حد التنبؤ باحتمال قيام آية الله الخومينى بإسقاط النظام . وكان

هناك باحثون آخرون - من بينهم ريتشارد كوتام وإرڤاند إبراهاميان - لم يلتزموا بالوضع الراهن فيما كتبوه ، ولكنهم كانوا يمثلون حفنة ضئيلة إلى أبعد حد(١٤) . (ومن الإنصاف أن نذكر أن الباحثين اليساريين الأوروبيين ، الذين لم يكونوا يتسمون بالتفاؤل نفسه إزاء بقاء الشاه ، لم ينجحوا من جانبهم كذلك فى تحديد المصادر الدينية للمعارضة الإيرانية(١٥) .

وحتى لو نحيّنا إيران جانبًا ، فسوف نجد نماذج كثيرة ومهمة للفشل الفكرى فى مناطق أخرى ، ولقد كانت جميعًا نتيجة الاعتماد دون تمييز على ما أملته السياسة الحكومية والكليشيهات ولنا أن نتعلم دروسًا مهمة من لبنان وفلسطين ، إذ ظلت لبنان على امتداد سنوات طويلة نموذجًا لما ينبغى أن تكون عليه الثقافة التعددية أو المركّبة . ومع ذلك فلقد بلغت النماذج البحثية المستخدمة فى دراسة لبنان درجة من الجمود والثبات تعذر معها توقع ما صاحب الحرب الأهلية من شراسة وعنف (وهى التى استمرت من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٠ على الأقل) . ويبدو أن أعين الخبراء قد أصابها الشلل فى الماضى بدرجة غير معهودة أمام سحر صور "استقرار" لبنان ، فوجهوا دراستهم إلى الزعماء التقليديين، والنُّخب ، والأحزاب ، والشخصية القومية ، ونجاح جهود التحديث فى لبنان .

وحتى عندما وُصف نظام الحكم فى لبنان بالتأرجح ، وعندما قام الخبراء بتحليل عدم اكتمال "تحضّره" ، كان الافتراض السائد

والموحّد هو أن مـشكلاته كانت بصفـة عامة قـابلة للحل ، وأنها أبعـد ما تـكون عن التسـبب فى فـصـم عــرى الوحـدة بصـورة جذرية[١٦] . وكان الخبراء يصورون لبنان فى صورة البلد المستقر فى الستينيات لأن النظام القائم بين البلدان العربية كان مستقرًا فى نظر أحد الخبـراء ، وما دامت تلك المعادلة قـائمة فى رأيه ، ظل لبنان فى مأمن[١٧] . ولم يفترض أحد على الإطلاق أن يسود الاستقرار ما بين البلدان العـربية **وينهـدم الاستـقرار** رغم ذلك فى لبنان ، والسبب الرئيـسى هو – كما هو الحال فى هذا المجـال الذى يعانى من آفـة 'اتفـاق الآراء' – أن الحكمـة التـقـليـدية قـررت بقـاء ''التعددية'' واستمرار التوافق إلى الأبد فى لبنان ، على الرغم من انقساماته الداخلية وانتفاء تأثير جيرانه العرب فيه ، كما قالت تلك الحكمة إن أى مشكلة للبـنان لابد أن يكون مصدرها المناخ **العربى** المحـيط بلبنان ، ولا يمـكن أبدًا أن يكون مـصـدرها إسـرائيل أو الولايات المتحدة ، ولكل منهما أطماعه المحددة ، وإن لم يتناولها أحد بالتـحليل ، فى لبنان . وإلى جانب ذلك فـقد كان الخـبراء مغرمين بصورة لبنان التى تجسّـد أسطورة التحديث . وعندما نقرأ اليوم دراسـة راسخة من هذا اللون الذى يتـميز بحكمة النعـامة ، يروعنا كيف استمرت الأسطورة مطروحة حتى عام ١٩٧٣ ، وهو العام الذى بدأت فيه الحرب الأهليـة فعليًا . قيل لنا إن لبنان يمكن أن تتعرض لتغيـير ثورى ، ولكن ذلك احتمال ''بعيد'' الوقوع . أما الأرجح فهو ''التحديث فى المستقبل الذى تشارك الجماهير فيه

[وهذه كناية ساخرة محزنة عن الحرب الأهلية التى سال فيها من الدماء أكثر مما سال فى التاريخ العربى الحديث كله] فى إطار الهيكل السياسى السائد" [١٩] أو كما قال عالم أنثروبولوجى مبرز "لا تزال 'لوحة الفسيفساء الجميلة' فى لبنان قائمة لم يمسسها سوء. بل إن لبنان لا يزال أنجح بلد تمكن من التحكم فى انقساماته الأزلية العميقة" [٢٠] .

وكان من نتائج هذا الاتجاه أن عجز الخبراء ، بدليل أحداث لبنان وغيرها ، عن أن يدركوا أن جانبًا من الظواهر المهمة حقًا فى البلدان التى تحررت من الاستعمار لا يمكن بسهولة أن يجمع تحت عنوان "الاستقرار" . أما فى لبنان فإن الذى مزق البلد هذا التمزيق الوحشىّ كان على وجه الدقة تلك القوى غير الثابتة ، وذات الحراك المدمر ، التى أغفل الخبراء تسجيلها أو هوّنوا من شأنها بانتظام ، ألا وهى قوى الانفصام الاجتماعى ، والانتقالات الديموغرافية ، والانتماءات الدينية ، والتيارات الأيديولوجية[٢١] .

وعلى غرار ذلك كانت الحكمة التقليدية على امتداد سنوات تقول بأن الفلسطينيين لا يزيدون عن كونهم لاجئين من الممكن إعادة توطينهم، لا اعتبارهم قوة سياسية ذات عواقب لا مناص من تقدير أبعادها فى أى تقييم يتميز بدرجة معقولة من الدقة للحالة فى الشرق الأدنى . ومع ذلك فلقد أصبح الفلسطينيون ، فى نحو منتصف السبعينيات إحدى المشكلات الكبرى المعترف بها فى سياسات الولايات المتحدة ، وما زال العالم ينتظر منها الاهتمام

العلمى والفكرى الذى تقتضيه أهميتهم(٢٢) ؛ ولكن الاتجاه الذى لا يزال قائمًا هو معـاملتهم باعتبارهم يمثلون بعض الملحـقات المرفقة بسياسة الولايات المتحدة تجـاه مصر وإسرائيل ، بل وتجاهلهم تمامًا فى الأحداث التى تـفجرت فى لبنان . ولم تواجـه هذه السيـاسة ثقلاً موازنًا مُهِـمًّا فى دراسات **الباحثين** أو الخبراء ، ومن المحتمل إذن أن تواجه المصـالحَ القوميةَ الأمـريكيةَ عواقبُ وخـيمةٌ نتيـجةً لذلك ، خصـوصًا لأن الحـرب الإيرانية العراقـية فيـما يبـدو قد فـاجأت رجـال المخابرات أو أخـذتهم على غرة للمـرة الثانيـة ، وأثبـتت خطأهم الفـادح فى التقـديرات التى وضـعوها للقـدرات الحربية للدولتين .

وتضـاف إلى هذا التوافق بين الدراسـات المطيعـة التى تسـير بخطى السلحـفـاة وبين عـدم الإدراك الحق لمصلحـة الحكومـة ، الحقيقة المؤسفة التى تقـول إن عددًا أكبر مما ينبغى من الخبراء الذين كتبوا عن العالم الإسـلامى لم يكونوا يحيطون بلغات البلدان التى تناولوها فـاضطروا إلى الاعتـماد على الصـحافـة أو غيـرهم من الكتـاب الغـربيين فى الحصـول على مـعلومـاتهم . وهكذا ازداد اعتـمادهم على الصـورة الرسمـية أو التـقليدية للأمـور ، بحيث أصبحت الفخ الذى وقعت فيه أجهـزة الإعلام فى مجمل تغطيتها لأخبار إيران قبل اندلاع الثورة . فلقد ساد الاتجاه إلى دراسة نفس الشىء وإعادة دراسته ، والتركيـز عليه المرة بعد المرة ، مثل دراسة النُّخَب الاجتماعية وبرامج التحديث ، والدور المنوط بالعسكريين،

والزعماء الذين يتمتعون ببروز خاص ، والاستراتيجية الجغرافية السياسية (من وجهة النظر الأمريكية) والتدخلات الشيوعية(٢٣) .
وربما كانت هذه المسائل تبدو فى ذلك الوقت مهمة للولايات المتحدة على المستوى القومى ، ولكن الواقع يقول إن الثورة قد اكتسحتها جميعًا فى أيام معدودة فى إيران ، إذ انهار البلاط الإمبراطورى برمته ، وتشتت الجيش الذى أُغدقت عليه مليارات الدولارات وتوارت النُخَبُ المزعومة وتكيفت مع النظام الجديد ، ولا يمكن القول فى أى من الحالين ، على نحو ما كان يقال قديمًا، إنها هى التى تحدد السلوك السياسى الإيرانى . ولنسمع ما قاله أحد الخبراء ، الذى يرجع إليه الفضل فى التنبؤ بما يمكن أن تؤدى إليه "أزمة ١٩٧٨" ، وهو چيمس بِلْ من جامعة تكساس الذى كان يقدم المشورة إلى واضعى السياسات الأمريكيين فأشار عليهم فى ديسمبر ١٩٧٨ (وقد تأخر الوقت) بأنه ينبغى على حكومة الولايات المتحدة أن تشجع "الشاه .. على أن يبدأ فى الأخذ بالانفتاح فى نظام الحكم" (٢٤) . وبعبارة أخرى كان صوت الخبير المذكور الذى يفترض فيه الانشقاق ما زال ملتزمًا بالحفاظ على نظام كانت الملايين ، دون مبالغة ، قد هبّت لمعارضته وخرجت تهتف ضده فى حركة تمرد من أكبر الحركات التى شهدها التاريخ الحديث ، حتى فى اللحظة التى كان يسدى تلك المشورة فيها .

ومع ذلك فإن بِلْ قد أبدى ملاحظات مهمة بشأن الجهل العام بإيران فى الولايات المتحدة ، فلقد أصاب حين قال إن تغطية

أجهزة الإعـلام كانت سطحية ، وإن السيـاسة الإعلامية الرسـمية كانت مُسـخّرة لتحقيق ما يريده الشـاه ، وإن الولايات المتحدة لم تبذل الجهد اللازم سواء لاكتساب مـعرفة عميقة بالبلد أو للاتصال بالمعـارضة . ولقد كـانت مظاهر الإخـفاق المذكـورة من أعراض الموقف العـام الذى اتخذته الولايات المتـحدة وأوروبا إزاء العـالم الإسـلامى ، وأيضًا ، وعلى نحـو مـا سوف نرى ، إزاء مـعظم بلدان العالـم الثالث ، وإن لم يصرح بذلك چـيمس بِلْ ، بَلْ إن عدم ربطه بين ما كان يقوله مُحِقًّا عن إيران بسائر العالم الإسلامى يدخل فى إطار ذلك الموقف نفـسه . فلم يـتعـرض أحد، أولاً ، لإجابة الأسـئلة المنهجـية الرئيسـية وهى : ما قـيمـة الحديث عن "الإسلام" و"النهضة الإسـلامية" (إن كانت للحديث قـيمة) ؟ وثانيًا : ما هى ، أو كيف ينبغى أن تكون ، العـلاقة بين سياسات الحكومة والبحث العلمى ؟ هل من المفترض أن يسـمو الخبير على مستـوى السياسة أو يصبح ملـحقًا متصـلاً بالحكومات ؟ وقال بِلْ المذكور، ووليم بيمان، من جامعة براون، فى مناسبتين منفصلتين، إن أحد الأسـباب الرئيسـية للأزمة النـاشبة بين الولايات المتـحدة وإيران فى ١٩٧٩ هو عدم استشارة الخبراء الأكاديميين الذين أُنفقت على تعليمـهم مبالغ طائلة لهـدف محدد وهو اكتسـاب المزيد من المعرفة بالعالم الإسلامى[٢٥] . أما الذى فات بِلْ وبيمان أن ينظرا فيـه فهو مـا يلى : ربما كان سـعى الباحثين نفـسه للنهـوض بهذا الدور، حتى وهم يطلقون على أنفـسهم لقب الباحثين ، **سببًا** فى

أن يظهـروا بمظهـر من يفتـقـر إلى الوضـوح والحسم فـيـفقـدوا مصداقيتهم فى عيون الحكومة وفئة المثقفين جميعًا(٢٦) .

ولنتـساءل أيضًـا ، إلى جـانب ذلك ، عـما إذا كـان المفكّر المسـتقل (وهـو الذى لا بد أن يكونه كل باحث أكـاديمى على أية حال) يستطيع أن يحافظ على استقلاله وهو يعمل فى الوقت نفسه لحساب الدولة ؟ ومـا الصلة بين المشاركة السياسيـة الصريحة وبين البصـيرة الصائبـة ؟ هل تنفى إحداهمـا الأخرى ، أم أن ذلك لا يصدق إلا فى بـعض الحالات ؟ لماذا حُرم البـاحثـون فى الإسلام جميعًا فى أمريكا (على قلة عـددهم) من مخاطبة جمهور أوسع ؟ لماذا حدث ذلك فى الوقت الـذى بدت فيه الولايات المتـحدة فى مـسيس الحـاجـة إلى المشـورة ؟ ومن المحال إجـابة هذه الأسـئلة جميـعًا، بطبيعة الحال ، إلا بـالرجوع إلى الإطار الفعلى ، الذى يغلب عليه الطابع السياسى ، ويحكم العلاقات تاريخيًا بين الغرب والعالم الإسلامـى . فلننظر إذن إلى ذلك الإطار حتى نرى الدور المنوط بالخبير فيه .

لم أستطع أن أكـتشف فـترة فى التاريـخ الأوروبى أو التاريخ الأمريكى منذ العصور الوسطى ناقش أحد فيها الإسلام أو فكر فيه خارج إطار صاغـته العـاطفة المشبـوبة ، والتعـصب ، والمصالح السياسيـة . وقد لا يبدو ذلك اكتشافًـا يدعو إلى الدهشة ، ولكنه يضم فى ثناياه جميع ألوان المباحث العلمـية والأكاديمية التى كانت منذ مطلع القـرن الثامن عـشر تطلق على نفـسهـا اسمًا كُلّـيًا هو

مبـحث الاستشـراق أو كانت تحاول ، بانتظام ، دراسـة الشرق . ولن يختلف أحد مع القول بأن أوائل الذين علّقوا على الإسلام ، مـثل بطرس المبـجل ، وبارتليـمى دربيلو ، قـد اتخـذوا مـوقف المجادلة المسيحية المشبوبة فيما قالوه . ولكنّ أمامنا افتراضًا لم ينظر أحد فى صـحته يقـول إنه حين تقدمت أوروبا والغرب فـاتخذت خطواتها فى العصر العلمى الحديث ، وحـررت نفسها من الخرافة والجهل ، كانـت مسيرتها بالـضرورة تتضمن الاستـشراق . أليس صحيحًا أن سيلفستر دى ساسـى ، وإدوارد لين ، وإرنست رينان، وهاملتون جِبْ ، ولويس ماسينيـون ، كانوا من الباحثين والعلماء الموضـوعيين ، وأليس صحيحًا أن من آثار التقدم الذى شهده القرن العشرون بشتى ألوانه فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات والتاريخ أن أصـبح الباحثون الأمـريكيون الذين يقومـون بتدريس الشـرق الأوسط والإسلام فـى جامـعات كـبـرى مثـل برنستـون وهارڤارد وشـيكاغو ، بالضـرورة ، غيـر منحازين ولا يمارسـون الدعوة إلى شىء فيما يفـعلونه ؟ أما الإجابة عندى فهى بالنفى . وليس ذلك لأن الاسـتشراق أكـثر تحيّـزًا من العلوم الاجتـماعـية والإنسـانية الأخـرى ؛ لكنه وحـسب ، مـثل غيـره من المبـاحث المذكورة ، له سماته الأيديولوجية ويتأثر مثلها بالعالم من حوله . أما الفارق الأوحـد فهو أن باحثى الاسـتشراق يبادرون باسـتخدام مواقعهم ، باعتبارهم خـبراء ، فى إنكار (وأحيانًا حتى فى إخفاء) مشاعرهم العميقة تجاه الإسلام بلغة الثقات التى تهدف إلى الشهادة "بموضوعيتهم" وكذلك "بحيادهم العلمى" .

هذه واحـدة . أما الأخـرى فـهى مـا يتمـيـز به هذا النسق التـاريخى المعين ، ولولاه لتسـاوت مظاهر الاسـتشـراق جمـيعًـا واستحال تمـييز أحدها عن سواها . وأما هذا النسق فـهو أنه كلما شعر الناس ، فى العصور الحديثة ، بتوتر سياسىّ حادّ بين الغرب والشرق **التـابع له** (أو بين الغـرب وبين الإسلام **التـابع له**) ظهر النزوع فى الغرب إلى العزوف عن اللجوء إلى العنف مباشرة، بل اللجـوء أولاً إلى رسم صورة الخَـصم بالأدوات والوسائل الهـادئة التى تتمـتع بالتجرّد النسبى والتى يتـميز بها كل رسم علـمىّ شبه مـوضـوعى ، وهكذا يزداد وضـوح صـورة " الإسلام" ويظهـر "الطابع الحـقيـقى" لما يمثله من تهـديد ، وهو مـا يوحى ضـمنًا بالخطوات التى سوف تتـخذ إزاءه . وفى مثل هذا السيـاق ، يبدو للكثير من المسلمين ، الذين يعيشون فى ظل ظروف بالغة التنوع ، أن العلـم والعنف المبـــاشـــر شكلان من أشـكال العـــدوان على الإسلام.

وفيـما يلى مثـالان بارزان يشهدان على صـحة القضـية التى أطرحـها . فنحن حين نسـترجـع التاريخ القـريب نرى أن فرنسـا وانجلترا سبقـتا احتلالهما فى القرن التاسع عـشر لبعض أجزاء من الشرق الإسـلامىّ بفتـرة تعرضت فيـها شـتى الأساليب العلمـية المستخدمة فى تحديد ملامح الشرق وتفهمه لقدر باهر من التحديث والتطور التقنيين[٢٧] . فلقد جـاء الاحتلال الفرنسى للجـزائر عام ١٨٣٠ فى أعـقاب مـرحلة امتـدت قرابـة عقـدين أحال العلمـاء

الفرنسيون فيها دراسة الشرق من مجال الآثار إلى مبحث علمى حديث . وكان قد سبق هذا ، كما هو معروف ، قيام نابليون بونابرت باحتلال مصر عام ١٧٩٨ ، ونحن نذكر أنه قد مهد لحملته بأن جمع حشدًا من العلماء النابهين حتى يكفل لمشروعه النجاح . ولكن ما أقوله هو إن احتلال نابليون لمصر الذى لم يطل عهده كان بمثابة انتهاء فصل ، وأما الفصل الجديد فقد بدأ بالفترة الطويلة التى تولّى فيها سلفستر دى ساسى رعاية المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقية ، فأصبحت فرنسا تتزعم العالم فى الاستشراق ؛ ثم وصل هذا إلى ذروته بعد قليل حين قامت الجيوش الفرنسية باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

ولا أريد على الإطلاق أن أوحى بوجود علاقة سببية بين شىء وآخر أو أن أتخذ الموقف المناقض للعقلانية الذى يقول إن المعارف العلمية تؤدى بالضرورة إلى العنف والمعاناة . فكل ما أريد قوله هو إن الامبراطوريات لا تولد فى التوّ واللحظة ، كما إنها لم تعتمد على الارتجال فى إدارتها فى العصر الحديث . فإذا كان تطور العلم يتضمن إعادة تعريف وإعادة تشكيل مجالات الخبرة البشرية على أيدى علماء يتسامون على المادة التى يدرسونها، فليس من قبيل الخروج عن موضوعى أن أرى التطور نفسه عند السياسيين الذين يعاد تحديد وتعريف نطاق سلطانهم حتى يضم مناطق العالم "الأدنى" منزلة حيث يمكن اكتشاف مصالح " قومية" جديدة - وينتهى الرأى فى وقت لاحق إلى أنها تحتاج

إلى الإشراف الوثيق عليـها(٢٨) . وأشك كثيـرًا فى أن انجلترا كان يمكن أن تحـتل مـصر تلك الفـتـرة الطويلة احـتلالاً قـائمًـا على مـؤسـسـات هائـلة لولا استـثـمـارها الثـابت الطويل للدراسـات الاستشراقية الـتى بذر بذورها بعض الباحثين أول الأمر مثل إدوارد وليم لين ، ووليم چونز . فأمّا مـا أثبته المستشرقـون بشأن الشرق فهو أنهم أتاحوا المعرفة به ، ويُسر الوصول إليه ، وسهُولة تصويره فى عـيون الغـرب. أى إن الشـرق يمكن أن يُرى ، وأن يُدرس ، وأن يخضـع للإدارة ، ومن ثم فلا حاجـة بنا إلى أن نصبـر على استمرار بُـعد ذلك المكان الحافل بالأعاجيب والزاخر بما يسـتعصى على الفهم ، وهـو المكان البالغ الثراء ! وإذن فـمن الممكن لنا أن ننقله إلى ديارنا، أو بعبارة أبسط ، تستطيع أوروبا أن تجعله امتدادًا لأوطانها، على نحـو ما فعلت فى الواقع بعد ذلك !

أما المثال الثانى الذى أسوقه فهو معاصر . فالشرق الإسلامى اليـوم ذو أهميـة واضـحة إمـا بسـبب موارده أو بسـبب مـوقعـه الجغرافى، وإن كان كل من هذين السـببين لا يتفق مع المصالح أو الحاجات أو الآمال الخاصة للشرقيين من أبناء تلك البلدان . ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانيـة والولايات المتحدة تحتل مواقع السيطرة والهيـمنة التى كانت تشغلـها بريطانيا وفـرنسا يومًا مـا فى العالم الإسـلامى . وقد صـاحب الإبدال المذكور لنـظام إمبـريالى بنظام إمبـريالى آخر بروز ظاهرتين ، الأولـى هى تفتح براعم الاهتـمام العلمى والأكـاديمى بالإسلام ، وهو الاهتمـام الموجه للتـعامل مع

الأزمات ، والثانية هى الثورة الهائلة فى التـقنيات المتاحة للصحافة التى يملكهـا القطاع الخاص بصـفة رئيـسيـة وصناعات الـصحـافة الإلكترونية . فلم يسبق فى التاريخ أن قامت أجهزة الإعلام بتغطية أنباء بـقعة من بقـاع التوتر مـثل إيران بمثل هذه السرعـة والانتظام حتى بدا كأن إيران قد دخلت حياة الأمريكيين ، وإن كانت غريبة عليهم ، بعمق وتركيز غيـر مسبوق . وتضافرت هاتان الظاهرتان - وتأثير الثانية أكبر من الأولى - وهما اللتـان جعلتا جانبًا ضخمًا من جهاز خبراء الجامعـة والحكومة وقطاع الأعمال التجارية يتولى دراسة الإسلام والشـرق الأوسط ، حتى أصبح الإسلام مـوضوعًا مألوفًا لكل ' مستهلك' للأنباء فى الغـرب، أقول إنهما تضـافرتا حـتى جـعلتـا الإسلام نزيـلاً فى منازل الغـربيين، أو على الأقل جوانبه التى تعتبر جديرة بتنـاقل أخبارها . ولم يقتصر الأمر على أن أصبح ذلك العـالم موضوعًـا لأعمق حـالات التشبع الثـقافى والاقتـصادى الغـربى فى التاريخ - إذ لا يوجـد إقليم غيـر غربى يتعرض لسيطرة الولايات المتحدة اليوم مثل العالم العربى الإسلامى - بل إن ميزان المبادلات بين الإسلام والغرب (الذى تمثله الولايات المتحدة فى هذه الحالة) يميل مـيلاً شديدًا إلى جانب دون الآخر ، كمـا إنه يتسم كذلك بالانحـراف الشديد عن ميـزان المبادلات بين الغـرب وسائر مـناطـق العالـم الإسلامى التى لا تـشغل نشـرات الأنباء.

وقد لا أبالغ إلا مبـالغة طفيفـة إذا قلت إن المسلمين والعرب

يتعرضون للتغطية الإعلاميـة ، وللمناقشة ، وللخشية منهم بصفة أساسيـة إما باعتبارهم مـوردين للنفط أو بسبب احتمـال مزاولتهم للإرهاب . ولم يتسـرب إلا أقل القليل من تفاصيل الحيـاة العربية الإسلامية وكثـافتها الإنسانية ومشاعـرها المشبوبة إلى وعى أحد ، حتى أولئك الأشخاص الذين يحتـرفون نقل أنباء العالم الإسلامى، وبدلاً من هذا لا نجد إلا سلسلة محدودة من الصور الكاريكاتورية العامة والفـجّة للعالم الإسلامى ، وهى تقـدم بأسلوب يعرّضه ، فيما يعـرّضه له ، للعدوان العسكرى[٢٩] . ولا أعتقد أنه كان من قبـيل المصادفة أن يكون الحديث الذى دار فى الآونة الأخـيرة عن قيام الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى فى الخليج العربى ، أو ما يسمى بمبدأ كارتر ، أو المناقشـات التى دارت حول قوات الانتشار السريع ، قـد سبقته فـترة من التصوير الـعقلانى ''للإسلام'' من خلال البرامج التليفزيونية الهـادئة ، ومن خلال دراسة المستشرقين '' الموضوعية'' (ومن المفارقـات أنها كانت على أحد حـالين : إمّا أنها ''لم تكن لهـا صلة'' بحـقائق الواقـع الحالى، أو أنهـا حين اتخذت طابع الدعاية ''الموضوعية'' لم تنجح إلا فى تنفير الجمهور من ذلك 'العالم'): إن الوضع الحالى يتسم بعدة أوجهِ شَبَهٍ مثيرةٍ للرّعدة مع الوضع الذى نشـأ فى القرن التاسع عشـر عندما قامت بريطانيا وفرنسا بغزو العالم العربى الإسلامى.

ولهذا أسبـاب سياسية وثقـافية أخرى . ففى أعـقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما نهـضت الولايات المتحدة بالدور الامبريالى

الذى كانت تنهض به فرنسا وبريطانيا ، وضعت مجموعة من السياسات اللازمة للتعامل مع العالم الخارجى والتى كانت مناسبة لخصائص ومشكلات كل إقليم يؤثر ويتأثر بمصالح الولايات المتحدة ، فوضعت مشروعًا لنهضة أوروبا من كبوة الحرب ، واتخذت له الخطوات المناسبة ومن بينها خطة مارشال وغيرها من السياسات المماثلة . وبرز الاتحاد السوفييتى بطبيعة الحال باعتباره أقوى منافس للولايات المتحدة، وكما لا يحتاج أحد إلى التذكير، أدت الحرب الباردة إلى وضع سياسات ودراسات بل وإلى نشأة منهج فى التفكير لا يزال يسيطر على العلاقة بين الدولتين العظميين. وكان من جرّاء ذلك ترك ما أصبح يسمى بالعالم الثالث، فأصبح ساحة للتنافس لا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فقط بل أيضًا بين الولايات المتحدة وشتى الدول الوطنية بُعَيْدَ حصولها على استقلالها من الاستعمار الأوروبى .

وكان واضعو السياسات الأمريكيون يعتبرون بلدان العالم الثالث ، وبلا استثناء تقريبًا ، بلدانًا " متخلفة" ، تسيطر عليها أساليب حياة "تقليدية" قديمة بالية ثابتة دونما داعٍ ، ويرون أنها تتعرض لأخطار التخريب الشيوعى والركود الداخلى . وهكذا وضعت الولايات المتحدة "تحديث" العالم الثالث على قمة جدول أعماله ، إذ كانت "نظرية التحديث" ، كما يقول جيمس پك ، "الإجابة الأيديولوجية اللازمة لعالم تزداد فيه القلاقل الثورية وتستمر فيه معارضة النُّخَب السياسية التقليدية" (٣٠) . وهكذا

تدفقت مبالغ مالية هائلة إلى إفريقيا وآسيا بهدف وقف الشيوعية، وترويج التجارة الأمريكية ، وقبل ذلك كله ، بناء صفوف من الحلفاء المحليين وهم الذين يرمى وجودهم ، فيما يبدو ، وبصراحة إلى تحويل البلدان المتخلفة إلى صور مصغرة من أمريكا. وبمرور الزمن تطلب الأمر استكمال الاستثمارات المبدئية بمبالغ إضافية وزيادة الدعم العسكرى حفاظًا عليهم ، وقد أدى هذا بدوره إلى التدخل المتكرر فى شتى بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية ، وهو الذى دمغ الولايات المتحدة بمعاداة كل ضرب من ضروب القومية المحلية تقريبًا .

ولن يتسنى لنا أن نفهم الفهم الكامل تاريخ جهود الولايات المتحدة فى سبيل تحديث وتنمية العالم الثالث إلا إذا أدركنا ما أدت إليه تلك السياسات نفسها ، فلقد نشأت عنها طرائق معينة فى التفكير والنظر إلى العالم الثالث كان من شأنها زيادة الاستثمار السياسى والعاطفى والاستراتيجى فى فكرة التحديث ذاتها ، على نحو ما تمثله خير تمثيل حالة ڤيتنام . فما إن تقرر إنقاذ ذلك البلد من الشيوعية بل من ذاته ، حتى نشأ "عِلْمٌ جديد" خاص بتحديث ڤيتنام (ولقد عُرفت آخر مراحله وأثقل المراحل تكلفة باسم "الڤتنمة") . ولم يقتصر المشاركون فيه على المتخصصين الحكوميين بل انضم إليهم خبراء الجامعات . وبمرور الوقت أصبح بقاء الأنظمة الموالية لأمريكا والمعادية للشيوعية شاغلاً يتمتع بالأولوية على كل ما عداه ، حتى عندما اتضح أن غالبية كبيرة من

السكان تعتبر هذه الأنظمة غريبة وظالمة ، وحتى حين أدى الدخول فى حروب فاشلة لحساب تلك الأنظمة إلى تخريب المنطقة بأسرها وفقدان ليندون جونسون رئاسته لأمريكا . ومع ذلك فلقد صدرت كتابات بالغة الكثرة عن فضائل ومحاسن تحديث المجتمع التقليدى حتى اكتسبت تلك الكتابات منزلة الحجة التى يستشهد بها اجتماعيًا (وثقافيًا بالتأكيد) فى الولايات المتحدة ، بل لقد استمر ذلك حتى حين ربط تفكير الناس فى كثير من مناطق العالم الثالث ما بين " التحديث" وبين سفه الإنفاق ، واقتناء أدوات حديثة وأسلحة لا لزوم لها ، والحكام الفاسدين ، والتدخل الوحشى من جانب الولايات المتحدة فى شئون البلدان الصغيرة والضعيفة .

ومن بين الأوهام الكثيرة التى كتب لها البقاء فى إطار نظرية التحديث وَهْمٌ يرتبط ارتباطًا خاصًا فيما يبدو بالعالم الإسلامى ، ألا وهو أن الإسلام كان يعيش ، قبل قدوم الولايات المتحدة ، فى نوع من الطفولة اللازمنية التى يتحصّنُ فيها ضد التنمية الحقيقية بمجموعة بالية قديمة من الخرافات ، وأن له كُهّانًا ونُسّاخًا يتسمون بالغرابة ويحُولون بينه وبين الانتقال من العصور الوسطى إلى العالم الحديث . وفى هذا يتفق الاستشراق اتفاقًا دقيقًا مع نظرية التحديث . فإذا صح ما قالت به دراسات المستشرقين على مر السنين من أن المسلمين لا يزيدون عن كونهم أطفالاً يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويتعرضون لطغيان تكوينهم العقلى نفسه ، وطغيان "علمائهم" وقادتهم السياسيين ذوى النظرات الوحشية ،

بحيث يقاومون الغرب والتقدم ، أفلا يستطيع كل من يجدر بالثقة فيه من المتخصصين فى العلوم السياسية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن يثبت أنه من الممكن الأخذ بأسلوب حياة شبيه بأسلوب الحياة الأمريكية فى إطار الإسلام ، إذا سنحت فرصة معقولة ، عن طريق البضائع الاستهلاكية والدعاية المعادية للشيوعية والقادة "الصالحين" ؟ ولكن الصعوبة فى حالة الإسلام ترجع إلى أن الغرب لم ينجح يومًا فى استرضائه أو هزيمته ، بخلاف ما حدث فى الهند أو فى الصين ، فلقد استمر الإسلام (أو استمرت إحدى صوره) – ولأسباب يستعصى إدراكها ، فيما يبدو ، دائمًا على الباحثين ، فى السيطرة على المؤمنين به ، والذين تَرَدَّدَ القول وبانتظام بأنهم عازفون عن تقبل الواقع ، أو على الأقل ذلك الجانب من الواقع الذى يمكن إثبات تفوق الغرب فيه.

وهكذا استمرت جهود التحديث على امتداد العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الثانية وأصبحت إيران فى الواقع قصة نجاح التحديث المثالية وأصبح حاكمها هو الزعيم الذى تفوق فى "التحديث" . وأما عن سائر العالم الإسلامى ، سواء كان الأمر يعنى القوميين العرب ، أو جمال عبد الناصر فى مصر ، أو سوكارنو فى إندونيسيا ، أو الوطنيين الفلسطينيين ، أو جماعات المعارضة الإيرانية ، أو آلاف المجهولين من الدعاة الإسلاميين ، أو الجماعات الإسلامية ، أو أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة ، فلقد كان مصيره جميعًا إما المعارضة أو التجاهل من جانب

الدارسين الغربيين الذين وجهوا استثمارات ثقيلة إلى نظرية التحديث والمصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكية فى العالم الإسلامى .

ولقد قدم الإسلام فى عقد السبعينيات المتفجر دليلاً جديدًا على العناد المتأصل فيه ، فلقد شهد ذلك العقد ، مثلاً ، الثورة الإيرانية ، التى لم تكن موالية للشيوعية أو للتحديث ، وكان من المحال تفسير ما فعله من أسقطوا الشاه وفقًا للقواعد التى تفترضها سلفًا نظرية التحديث ، إذ لم يظهروا امتنانهم ، فيما يبدو ، للمزايا التى جاء بها التحديث للحياة اليومية (مثل السيارات ، والجهاز العسكرى والأمنى الهائل، والنظام المستقر) ولم يكترثوا، فيما يبدو ، لمداهنات الأفكار "الغربية" على الإطلاق[٣١] . أما ما أقضّ مضجع الباحثين فى موقف هؤلاء ، وخصوصًا فى موقف الخومينى ، فهو رفضهم بضراوة تقبل أى أسلوب سياسى (أو حتى عقلانى) لم يضعوه بأنفسهم . وقبل كل شىء ، كان استمساكهم بالإسلام يتضمن قدرًا محيّرًا من التحدى . ومن المفارقات أنه لم يفطن إلا قلة ممن تحدثوا فى الغرب عن البدائية " الإسلامية" واعتماد الإسلام على طرائق المنطق السائدة فى العصور الوسطى ، إلى أن إسرائيل التى يحكمها بيجين ، والتى تقع على مبعدة أميال إلى الغرب من إيران ، تطبق نظامًا على استعداد كامل لإقامة أفعاله على أسس السلطة الدينية ووفقًا لمذهب لاهوتى بالغ الرجعية[٣٢]. بل ولم يفطن إلا أقل من هذه القلة من المعلقين ، الذين كانوا ينعون الفورة الظاهرة للتديّن عند المسلمين، إلى

ارتباطها بفورة مماثلة فى 'أديان التليفزيون' والتى اعتنقتها الملايين ، فى الولايات المتحدة ، أو إلى أن اثنين من المرشحين الرئيسيين لرئاسة الجمهورية عام ١٩٨٠ أخذا يعلنان أنهما ولدا من جديد فى كنف المسيحية التى يخلصان لها أعمق إخلاص .

وهكذا لم تعد الحميّة الدينية تُنسب إلى أى دين سوى الإسلام، حتى بعد انتشار المشاعر الدينية الفياضة وبروزها فى كل مكان : ويكفى أن نذكر كيف أسرفت الصحف ' المتحررة' فى الحديث عن الشخصيات الدينية التى تقر بعدم ' تحررها' مثل سولجنتسين أو البابا يوحنا بولس الثانى حتى ندرك مدى الانحياز فى الموقف العدائى تجاه الإسلام[٣٣]. وهكذا أيضًا تمكن الغربيون من تفسير سلوك معظم الدول الإسلامية قائلين إنه يمثل ' تقهقرًا' للإحتماء بالإسلام ، من المملكة العربية السعودية التى رفضت المصادقة على اتفاقيات كامب داڤيد فافترض المعلقون أنها لجأت فى ذلك إلى تطبيق منطق إسلامى خاص، إلى پاكستان وأفغانستان والجزائر . وهكذا نرى كيف أصبح العالم الإسلامى يختلف ، فى العقل الغربى بصفة عامة وفى عقل الولايات المتحدة بصفة خاصة، عن سائر مناطق العالم التى يمكن تحليل مواقفها من زاوية الحرب الباردة. وعلى سبيل المثال بدا من المحال الحديث عن المملكة العربية السعودية والكويت باعتبار أنهما ينتميان ''للعالم الحر'' ، بل وحتى إيران إبّان حكم الشاه ، وعلى الرغم من التزامها القاطع بمعاداة الشيوعية ، إذ كان من المحال أن نعتبرها تنتمى حقًّا إلى ''جانبنا'' بالصورة التى تنتمى بها فرنسا وبريطانيا مثلاً . ومع ذلك

فقد دأب واضعو السياسات فى الولايات المتحدة على الحديث عن "فقدان" إيران ، مثلما كانوا يتحدثون فى العقود الثلاثة الأخيرة عن " فقدان" الصين وفيتنام وأنجولا . زد على ذلك أنه كان من سوء الحظ الشديد للبلدان الإسلامية فى منطقة الخليج العربى أن ينظر إليها الأمريكيون المتخصصون فى إدارة الأزمات باعتبارها أماكن جاهزة للتدخل العسكرى الأمريكى . وهكذا قال جورج بول فى مجلة **نيويورك تايمز ماجازين** بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٧٠ ، بلهجة التحذير ، إن "مأساة فيتنام" يمكن أن تؤدى إلى "الاسترضاء والعزلة" الداخلية، ولكن للولايات المتحدة مصالح بالغة الأهمية فى الشرق الأوسط ، إلى الحد الذى يقتضى من الرئيس "تعليم" الأمريكيين ما يلزم بشأن إمكان التدخل العسكرى هناك[٣٤] .

ولابد من ذكر أمر آخر هنا ، ألا وهو الدور المنوط بإسرائيل فى تمثيل رؤية الغرب ، وخصوصًا رؤية الولايات المتحدة للعالم الإسلامى منذ الحرب العالمية الثانية . ففى المقام الأول يندر أن تشير الصحافة الغربية إلى الطابع الدينى لإسرائيل ، وهو الطابع الذى تصرح به إسرائيل نفسها ، ولم نشهد إلاّ فى الآونة الأخيرة إشارات سافرة إلى التعصب الدينى الإسرائيلى . وكانت كلها خاصة بتحمّسى منظمة غوش إمونيم الدينيين ، والذين كان نشاطهم الرئيسى ينحصر فى استخدام العنف لإنشاء مستوطنات غير مشروعة فى الضفة الغربية . ولكن معظم الإشارات إلى

غوش إمونيم فى الغرب تتجاهل ببساطة حقيقة 'مزعجة' وهى أن حكومة حزب العمل " العلمانية" كانت أول من أقر إنشاء المستوطنات غير المشروعة فى الأراضى العربية المحتلة ، أى إن الأمر لا يقتصر على المتعصبين الدينيين الذين يثيرون القلاقل حاليًا. وأعتقد أن هذا الإعلام المنحاز دليل على الأسلوب الذى استخدمه الغرب فى الإيحاء بأن إسرائيل - التى يقولون إنها "الديموقراطية الوحيدة" فى الشرق الأوسط ويؤكدون أنها "حليفنا الوثيق" - تمثل النموذج المقابل للإسلام[٣٥] . وهكذا ظهرت إسرائيل بمظهر معقل الحضارة الغربية الذى أقيم (مع قدر كبير من التهليل له وتهنئة ذواتهم عليه) وسط البرية الإسلامية . وثانيًا نجد أن عيون الغرب أصبحت ترى أن أمن إسرائيل يوازى صد غائلة الإسلام ، وهو ما يريح الغربيين ، وترسيخ الهيمنة الغربية إلى ما لا نهاية ، وتبيان فضائل التحديث ومزاياه . وهكذا نرى أن ثلاث مجموعات من الأوهام تدعم وتولّد بعضها البعض فى سبيل تعزيز صورة الغرب لذاته ونشر سيطرة الغرب على الشرق، وهى : صورة الإسلام، وأيديولوجية التحديث ، وتأكيد القيمة العامة لإسرائيل عند الغرب .

وبالإضافة إلى ذلك ، وحتى تصبح "مواقفنا" إزاء الإسلام فى غاية الوضوح ، نشأ جهاز كامل للإعلام ووضع السياسات فى الولايات المتحدة بحيث يعتمد على هذه الأوهام وينشرها على نطاق واسع . فإذا بشرائح عريضة من المثقفين المتحالفين مع رجال

الاستراتيجيات الجغرافية السياسية يشتركون فى الإدلاء بآراء مفصّلة مُسْهبة عن الإسلام ، وعن النفط ، وعن مستقبل الحضارة الغربية، وعن الكفاح فى سبيل الديموقراطية ضد القلاقل والإرهاب . وللأسباب التى ناقشتها آنفًا ، يقوم المتخصصون فى الإسلام بتغذية هذا التيار الكبير ، على الرغم من الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وهى أن جانبًا مما يجرى فى الدراسات الإسلامية الاكاديمية قد أصابته عدوى الرؤى الثقافية والسياسية التى نجدها فى الجغرافيا السياسية وأيديولوجيا الحرب الباردة . وتحت ذلك المستوى بقليل تأتى أجهزة الإعلام الجماهيرية ، وهى التى تأخذ من الوحدتين الأخريين من وحدات الجهاز ما يمكن ضغطه بأقصى سهولة ممكنة فى صور محددة، ومن هنا تأتى الصور الكاريكاتورية، والجماهير الغوغائية المخيفة ، والتركيز على الحدود (أى العقوبات) "الإسلامية" وهلمّ جرًا . ويترأس هذا كله المؤسسات ذات النفوذ الجبار ، مثل شركات النفط ، والشركات العملاقة ، والشركات المتعددة الجنسيات ، وأجهزة الدفاع والاستخبارات ، والفرع التنفيذى للحكومة . وعندما قضى الرئيس كارتر عطلة رأس السنة الأولى بعد توليه منصب رئيس الجمهورية عام ١٩٧٨ مع شاه إيران ، وقال إن إيران "جزيرة استقرار" كان يتحدث بلسان القوة المحتشدة لهذا الجهاز الجبار ، وهو الذى يمثل مصالح الولايات المتحدة ويغطى الإسلام فى الوقت نفسه .

ثانيا : جماعات التفسير :

ومن الجدير بنا فى هذا السياق أن ننظر فى أساليب "انتفاع" واضعى الاستراتيجيات السياسية الجغرافية والمثقفين الليبراليين بصورة الإسلام فى الولايات المتحدة ، فليس من قبيل المبالغة أن نقول إن ذكر "الإسلام" نادرًا ما كان يرد فى المجالات الثقافية أو الإعلامية قبل الارتفاع المفاجئ فى أسعار النفط الذى أعلنته منظمة "أوبك" فى أوائل عام ١٩٧٤ . كنا نشاهد ونسمع عن العرب والإيرانيين ، وعن الباكستانيين والأتراك ، لكنه كان من النادر أن يشير أحد إلى "المسلمين" . لكن الارتفاع الهائل فى تكلفة النفط المستورد أصبح يرتبط فى عقول الجماهير بمجموعة من الأمور الكريهة : اعتماد الأمريكيين على النفط المستورد (وهو ما كان يشار إليه عادة بعبارة "الوقوع تحت رحمة منتجى النفط الأجانب")؛ والخوف من أن ينتقل التشدد من الخليج العربى إلى الفرد الأمريكى ؛ وقبل هذا وذاك إشارة - كأنما هى صادرة من قوة جديدة لم نكن نعرف هويتها قبل الآن - تقول إن الطاقة لم تعد "ملكًا لنا" ما علينا إلا أن نمد أيدينا فنتالها . وسرعان ما أصبحت بعض الكلمات ، مثل " الاحتكار" و"الكارتيل" (أى اتفاق المنتجين) و"التكتل" ، شائعة بصورة مفاجئة وإن كان شيوعها مقصورًا على سياسات مختارة ، رغم أنه كان من أندر النادر أن يشير أحد إلى المجموعة الصغيرة من الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات باعتبارها " كارتيل" ، إذ اقتصر الكُتّاب

والمتحدثون على إطلاق تلك التسمية على أعضاء منظمة "أوبك". ولكن أهم فى الأمر هو أن تعرّض الاقتصاد لهذه الضغوط الجديدة قد أدى ، فيما يبدو ، إلى نشوء موقف ثقافى وسياسى لا يقل عن هذه الضغوط جدّة . فبعد أن كانت الولايات المتحدة هى القوة المهيمنة فى العالم أصبحت تتعرض لحصار مثير أعلن انتهاء فترة "ما بعد الحرب" على حد وصف فريتز ستيرن للموقف الحالى فى مجلة "**كومنتارى**"[٣٦] .

وكان من أهم الكتابات الأولى التى تحدثت عن التغيير الناشئ سلسلةُ المقالات التى نشرتها مجلة **كومنتارى** فى النصف الأول من عام ١٩٧٥ . جاءت أولاً مقالة كتبها روبرت و. تاكر بعنوان "النفط : قضية التدخل الأمريكى" (يناير) ثم جاءت مقالة دانيل باتريك موينيهان بعنوان "الولايات المتحدة تواجه المعارضة" (مارس) وعنوان كل مقالة يفصح بوضوحٍ قاطع عما تدعو إليه . ثم أصبح موينيهان مندوبًا يمثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة حيث ألقى خطابات كثيرة يحذر فيها العالم قائلاً إن "الديمقوقراطيات الغربية" لا تملك أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء ما تتعرض له من إذلال على أيدى مجموعة من الدول ذات النظم الاستبدادية ، وهى من المستعمرات السابقة ، ولا تمثل إلاّ أغلبية [فى الجمعية العامة] . ولكن حدود القضية كان قد سبق للكاتبين وضعها فى مقالتيهما بمجلة '**كومنتارى**' .

ولم يشـر أى من الرجلين إلى الإسـلام على الإطلاق ، ومع ذلك فإن " الإسلام"، بالصـورة التى ظهـر بها بـعد ذلك بعـام واحد، بدأ يلعب الدور الذى رسـمته له التغـيّرات المفاجئـة وغير المقبولة التى وصفها تاكر وموينيهان . وأدت هذه بدورها إلى رسم صـورة ما كـان الكثـيـرون من الأمريـكيين يمرّون به فى الواقع ، ومعانى الألفـاظ التى يعبرّون بها عنه ، وبنـاء التركيب 'الدرامى' لعناصـره . وهكذا بـدا أن الولايات المتـحـدة ، ولأول مـرة فى تاريخها ، تتعرض لتطبيق مبدأ المسـاواة عليها من الخارج ، بتعبير تاكر ، وإذ بنا نواجه بعض البلدان الأجنبية التى وصـفها موينيهان بأنها ، فى جوهرها ، كيانات أوجدتها الإمبريالية البريطانية ، وقد استعـارت أفكارها وهويتها من الاشتـراكية البريطانية ، كـما إنها تقيم فلسفاتها على أساس نزع المـلكية أو توزيع الثروة إذا لم يتيسر نزع ملكيتها ، ولا يهمـها سوى المساواة ، لا الإنتاج ، ولا الحرية فيما يبدو . وقال موينيهان "إننا حقا من حزب الحرية" ثم أضاف بنبـرة غطرسة عـسكرية "وقد نـدهش لمدى الطاقات الهـائلة التى نستطيع إطلاقهـا إذا رفعنا هذه الرايات" (٣٧) . وقال تاكر إن هذه البلدان الجديدة ، ومن بينها الدول المنتجة للنفط ، تريد إزالة أوجه التفاوت "بيننا" و"بينهم" ، وذلك - فى رأى تاكر - من شأنه أن يأتى بما ينذر بالسوء من "تكافل" وحبذا لو أخذنا أهبتنا لمقاومته ، بغزو هذه الدول ، إذا دعت الضرورة(٣٨) .

ويجدر بنا الإشارة بصفة خاصة إلى عدد من 'الاستراتيجيات' المطبقة فى هاتين المقـالتين ، إذ يتجاهل تاكر فى حـديثه تحديد أى

دولة من الدول المنتجة للنفط ، مثلما يتجاهل موينيهان فى حديثه ذكر بلد بعينه من بلدان العالم الثالث الجديدة ، أى إنه يتجاهل أن لأى منها هوية ، وتاريخًا ، ومسارًا وطنيًا خاصًا بها . فالكاتبان يشيران إليها وحسب ، ويوجزان خصائصها باعتبارها وحدة جماعية ، ثم لا يعودان إلى ذكرها . ولا تزيد المستعمرات السابقة لديهما عن كونها مستعمرات سابقة ، والبلدان المنتجة للنفط تظل دائمًا بلدانًا منتجة للنفط . وفيما عدا هذين الوصفين ، تظهر هذه البلدان فى صورة البلدان المجهولة وذات العناد الغريب بل والذى ينذر بالخطر ، كما إن مجرد **وجودها** يبدو كأنما يمثل خطرًا مضمرًا أو ضمنيًا "لنا" . ونرى ثانيًا أن هذه البلدان لا تزيد عند الكاتبين عن صور مجردة يضعان فى مقابلها صفًا من دول العالم التى سبق لها الرسوخ ، إذ يقول تاكر فى مقال لاحق عن النفط والقوة "إننا نواجه فجأة احتمال قيام مجتمع دولى يستحيل فيه ضمان التوزيع المُنظّم لما اصطلح على تسميته 'بالناتج العالمى' ، وذلك لأن الأطراف الرئيسية التى تتمتع بالقوة بين الدول المتقدمة والرأسمالية قد لا تصبح الأطراف الرئيسية التى تبتكر أصول النظام وترسى قواعده"[٣٩] وما دامت هذه البلدان الجديدة لا تأتى بالنظام ولا ترسى قواعده ، فلابد أن تكون عوامل زعزعة له . ونرى ثالثًا أنها عوامل زعزعة لأنها ، كمجموعة ، لا تمثل - ولا تستطيع أن تكون - سوى قوة معادلة عكسية ومضادة فى الاتجاه "لنا" .

وكان ما يقوله تاكر وموينيهان يتبع إلى حد ما منطق الترنيمة 'المقدسة' للحالة النفسية فى الغرب ، من حيث الشعور بالحصار ،

وهى الترنيـمة التى تعـاود الظهور من وقت إلى آخـر فى التاريخ الحديث للغرب . فنحن نراها مثلاً فى كتاب هنرى ماسيس بعنوان **الدفاع عـن الغرب** (١٩٢٧) وفى المقال الذى كتـبه أنتونى هارتلى منذ عهد قريب بعنوان ''الرابطة الهمـجية : عن 'العنصر المدمر' فى تاريخ الحضارة'' (٤٠) ولكن الذى يقف ضدّ الغـرب عند تاكر وموينـيهان ليس شـيئًـا معـروفًا ''لنا'' ، على نحو مـا يستطيع الإمبريالى الأوروبى أن يتحدث عن ''الشرقيين'' باعتبارهم ''أناسًا نعرفهم'' وذلك ''لأننا'' كنا نحكمهم فى الواقع فى يوم من الأيام فعلاً . وأمـا أفضل ما يصف به موينيـهان هذه الدول الجديدة فى العالم الثـالث فهو أنـها صور مـقلّدة ، لا نعرفهـا إلا من خلال النموذج الذى تُقلّده ، لا بخصائص ذاتية تحـدد هويتها المستقلة . ولا يبدو أن تاكر يشير إلى شىء محدد حين يتحدث عن 'المجتمع الدولى' الجديد إلا القول بأنه ينتهك النظام القديم. ولكن ترى من يكون هؤلاء الناس ، ومـا هى رغبـاتهم الفعليـة ، وما أصـولهم الجغرافـية ، ولماذا يفعلون ما يفـعلون ؟ هذه أسئلة لم تطرح ومن ثم فلا إجابة لها .

وفى الوقت نفسه على وجه التـقريب كانت الولايات المتحدة آخذة فى التقهقر والخروج من الهند الصينية . وعلى كثرة ما كتب فى الآونة الأخيـرة عمـا يسمى ''بالظواهر المَرَضيّـة لفترة مـا بعد ڤيتنام'' فى السياسـة الأمريكية ، فمـا أقل عدد الذين لاحظوا أن تطبيق المزاعم القائلة بأن المصالح الأمريكية فى البقاع النائية القصيّة تحتـاج إلى الدفاع العسكرى عنهـا قد انتقل برمّـته من ڤيتنام إلى

مكـان أقــرب ، وهــو العـــالم الإسـلامى . وصـاحــب ذلك تضعضع ثقة الليبراليين تدريجيا بقـضايا العالم الثالث بصفة عامة، وخصـوصًا تلك القضـايا التى لم تحقق ، فيـما يبدو ، ما انعـقد عليهـا من رجاء . ويخطر على البال فى هذا الإطار مثـلاً الكتاب الذى كتبه جـيرارد شاليانـد بعنوان **ثورة فى العالم الثالث** ، والذى كان بمثابة صرخة ألم من قلب رجل شهير ، ساند حركات التحرير الڤيتنامية ، والكوبية ، والأنجولية ، والجزائرية والفلسطينية . وقد اختتم هذا الكتاب الذى وضعه عام ١٩٧٧ بنتيجة مفادها أن معظم الجهود المناهضة للاسـتعمار قد أدت إلى نشوء دول غير مـتميزة ، تتوسل بالقـمع ، ولا تكاد تستحق حماس أبـناء الغرب لها(٤١) . وقد يخطر على البال أيضًـا ما نشرته مجلة '**ديسّنت**' (الانشقاق) فى عددها الصـادر فى شتـاء عام ١٩٧٨ ، ويتضـمن الندوة التى دعت المجلة إلى عـقدها ودارت حـول السؤال التـالى "هل تبرر الأحداث الأخيرة فى كـمبوديا [أى انتصار قوات الخمـيريين الحمر ومـا ورد من أنباء الفظائـع التى تلته] إعـادة النظر فى مـعارضـتنا للحرب فى ڤيتنام ؟" وقد يدل السؤال نفسه ، وإن لم تدل الإجابة أيضًا، على حالة التراجع عن الحماس الذى امتازت به الستينيات، وما حل محله من ضيق يثيـر القلق إزاء الحقائق الدولية الجديدة ، وهى التى تنذر فى مجموعهـا بكارثة وشيكة الوقوع . وقد استند المعلقون ، مُحِقِّين ، فى إقامـة هذه الحجة إلى الفشل العام للنظام الاقتصادى الدولى .

وباختصار ، كان الإحساس الذى راود من يسمعون الأنباء ويستعملون النفط إحساسًا غير مسبوق بإمكان ضياع شىء ما وزعزعة شىء قائم ، دون أن يكون له وجه معروف أو هوية ظاهرة . فكل ما عرفناه هو أننا نوشك أن نفقد شيئًا لم نتساءل يومًا عن إمكان ضياعه. وإذن فلن نستطيع بعد الآن قيادة سياراتنا كما كنا نفعل؛ وأسعار النفط ارتفعت كثيرًا ؛ ومن ثم فإن أسباب راحتنا وعاداتنا تتعرض ، فيما يبدو ، لتغيّر جذرى وثقيل الوطأة. بل إن النفط نفسه ، وهو موضوع القضية فى الواقع ، ظلت صورته غامضة بالمقارنة بخطر فقدانه ، فلم يكن أحد يعرف ، فيما يبدو، إذا ما كانت إمدادات النفط قد تناقصت فعلاً ، أو إذا ما كانت الصفوف الطويلة من السيارات فى محطات الوقود قد أتى بها الفزع ، أو إذا ما كانت هوامش الربح التى ترتفع ارتفاعًا باهظًا فى أيدى أصحاب شركات النفط لها صلة ما بالأزمة(٤٢) . بل بدا أن الأزمة كانت تتصل اتصالاً أوثق بأشياء أخرى . فلقد بدأت صور العرب بأرديتهم التقليدية ، وأموالهم الخيالية ، وأسلحتهم الشاكية ، تقتحم العيون فى كل مكان فى الغرب . وعندها تيسّر إرجاع التأكيد الجديد على الذات الإسلامية إلى ما أطلق عليه البعض حرب رمضان فى أكتوبر ١٩٧٣ ، ففى تلك الحرب تمكن الجيش المصرى من قهر وعبور خط بارليف المنيع الرهيب ، ولم يفرّ الجنود العرب على نحو ما حدث فى عام ١٩٦٧ ، بل أجادوا القتال بصورة أدهشت الجميع . ثم ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٤ ،

وأصبح الشيخ يمانى شخصًا ذا مهابة وسلطان ، دون أن يُعرف لذلك سبب سوى أنه مسلم وأنه ينتمى إلى المملكة العربية السعودية ذات النفط الوفير . وأصبح شاه إيران أيضًا زعيمًا عالميًا ، ولننظر إلى إندونيسيا والفلبين ونيجيريا وباكستان وتركيا ، وبلدان مختلفة فى الخليج العربى ، والجزائر والمغرب ، ولنتأمل كيف كانت قدرتها المفاجئة على 'تعكير صفو' الولايات المتحدة فى منتصف السبعينيات تتلازم بصورة تدعو إلى القلق مع ندرة المعلومات المتاحة عن ماضيها وهويتها . فإذا بأعداد كبيرة من الدول الإسلامية ، وشخصياتها البارزة ، وحضورها على المسرح الدولى ، تنتقل فى وعى الجماهير ، ودون أن يدرك ذلك أحد ، من مكانة من لا يكاد يدرك الناس وجوده إلى مكانة من يتصدر نشرات الأخبار .

ولكن الانتقال لم يحدث فى الواقع من مكانة إلى مكانة ، ولم تكن أى شريحة يُعتدُّ بها من السكان على استعداد لتفسير أو تحديد ما بدا فى صورة الظاهرة الجديدة ، باستثناء البعض - مثل موينيهان وتاكر - الذين استنبطوا نتائج تاريخية عالمية منها ، فى إطار يقتصر على ذكر الإسلام دون أن يأخذه حقا فى اعتباره . وكان من نتائج صورة الإسلام اليوم أن أصبحت ، فى كل مكان يصادفها المرء فيه ، صورة **طليقة** و **مباشرة**. فالافتراض الذى لا يذكر أحد هو أولاً أن اسم العَلَم "الإسلام" يدل على شيء بسيط يمكن للمرء أن يشير إليه مباشرة مثلما يشير إلى "الديموقراطية" ، أو إلى شخص من الأشخاص أو إلى مؤسسة

مثل الكنيسة الكاثوليكية . ونحن نرى هذا الطابع المباشر مثلاً فى قصة غلاف مجلة **تايم** التى أشرنا إليها آنفًا ، وإن كان يتجلى بصورة تدعو إلى قلق أشد فى كل ما يظهر بصورة منتظمة عند الإشارة إلى الإسلام فى المستويات العليا من المناقشات الثقافية العامة ، وذلك فى معظم الأحوال باعتباره موضوعًا من الموضوعات التى تحظى بالتأمل الرزين الجاد فى المجلات المهمة للعلوم الإنسانية ، والتى أصبحت لا تختلف كثيرًا فى هذا الصدد عن أجهزة الإعلام الجماهيرية بسبب التغيرات التى سبق لى وصفها فى التفكير الثقافى والسياسى الجغرافى .

ومن المقالات الجديرة بالذكر المقال الذى كتبه مايكل وولتزر فى مجلة **نيو ريببلك** ، العدد الصادر بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٧٩ ، بعنوان "الانفجار الإسلامى" ، ويناقش فيه باعتباره 'غير متخصص' ، على حد قوله ، عددًا هائلاً من أحداث القرن العشرين المهمة رغم أنها (كما يقول) تتسم بالعنف ويؤسف لها فى معظمها - فى الفلبين وفى إيران وفى فلسطين وغيرها - ويقول إننا نستطيع تفسيرها باعتبارها نماذج لشىء واحد وهو الإسلام . ويقول وولتزر إن جميع هذه الأحداث تشترك فى أنها أولاً تكشف عن نسق دائم للقوة السياسية التى تتعدّى على الغرب، وفى أنها جميعًا ، ثانيًا ، من إفراز حميّة معنوية مخيفة (إذ يؤكد وولتزر بنبرات قاطعة أن مقاومة الفلسطينيين للاستعمار الإسرائيلى ذات طابع دينى ، أى إنها غير سياسية أو مدنية أو إنسانية) ؛ وتشترك

هذه الأحداث ثالثًا فى أنها "تحطم الواجهة الاستعمارية الهشة من الليبرالية أو العلمانية أو الاشتراكية أو الديموقراطية" . ويضيف أن هذه الخصائص المشتركة الثلاثة تكشف عن شىء واحد هو "الإسلام" ، فذلك "الإسلام" قوة تتجاوز المسافات الزمنية والمكانية وهى التى كان يمكن أن تفصل بين هذه الأحداث جميعًا. ولنا أن نلحظ أيضًا أنك - حسبما يقول ولتزر - إذا أشرت إلى الإسلام فإنك تلغى ، تلقائيًا ، كُلاً من المكان والزمن ، وتستبعد التعقيدات السياسية مثل الديموقراطية والاشتراكية والعلمانية ، وتستبعد الضوابط الأخلاقية . وبنهاية المقال نجد أن ولتزر قد أقنع نفسه (على الأقل) أنه عندما **يذكر** كلمة "الإسلام" فإنه يشير إلى شىء حقيقى مادى يسمى الإسلام، أى إلى شىء له وجود حاضر إلى الحد الذى يجعل من اتخاذ أى وسيط أو وضع أى صفات مميزة بمثابة اهتمام بتوافه لا داعى لها . ويرتبط بافتراض هذا الطابع المباشر نزوع يمثل القرين المحتوم ، ألا وهو النزوع إلى الحديث عن الإسلام باعتباره شيئًا بلا تاريخ خاص به ، وأما إذا سلم أحد بأن له تاريخًا ، فسوف يبدو أن هذا التاريخ لا علاقة له بالموضوع . وهكذا تكتسب حجج المحافظين ، مثل موينيهان وتاكر ، ما يؤكدها ويغذيها على أيدى الليبراليين اليساريين .

ومن الجوانب الأخرى للصورة الجماهيرية للإسلام فى الإطار الفكرى والجغرافى السياسى الجديد هو أنه دائمًا ما يظهر فى علاقة مواجهة مع كل ما يعتبر طبيعيًا، غربيًا، مألوفًا فى الحياة اليومية،

وينتمى "إلينا" . وهذا ولا شك هو الانطباع الذى نخرج به من قراءة ما يكتبه كُتّاب مثل وولتزر ، أو من قراءة ما كتبه الباحثون الذى يعتمد عليهم وولتزر . بل إن مفهوم وجود عالم إسلامى - وهو الموضوع الذى تناولته فلورا لويس فى أربع مقالات متتابعة فى صحيفة **نيويورك تايمز** فى ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، و ٣١ ديسمبر ١٩٧٩ (والذى سوف أتحدث عنها فى الفصل الثانى) - هذا المفهوم نفسه يقوم ضمنًا على عدائه لعالمنا "نحن" . بل إن الدافع على كتابة المقالات نفسه كان وقوف الإسلام (أى أولئك الإيرانيين الذين يحتجزون الرهائن الأمريكيين) ضدنا "نحن" وتعمق هذا الإحساس عندما قامت فلورا لويس بتعديد انحرافات الإسلام الظاهرية عن المعايير "الطبيعية" مثل الخصائص التى تتميز بها اللغة العربية ، و"غرائب" معتقداته ، والشمولية المتزمتة التى يسيطر بها الإسلام على المؤمنين به ، وهلم جرًا . فإذا كان الحضور المباشر للإسلام يجعله يبدو قريب التناول بصورة مباشرة، فإن انحرافه عن الواقع المألوف والمعايير المعهودة يجعله يقف ضدنا مباشرة ، وبصورة جذرية ، ويمثل تهديدًا لنا . والنتيجة المجردة هو أن الإسلام قد اكتسب مكانة متعددة الأشكال لواقع ملموس يسهل التعرف عليه ويتيح لمن يريد أن يصدر الكثير من الأقوال بشأنه ويضع له استراتيجيات منطقية كثيرة (معظمها يضفى عليه صفات بشرية) وذلك دون قيود أو ضوابط .

وهكذا تستطيع بيسر فى رأى هؤلاء أن تعادل بين الإسلام

وبين أى مسلم، وأقرب مرشح لهذه المعادلة هو آية الله الخومينى. وبعد ذلك لك أن تمضى فى مقارنة الإسلام بكل شىء تنفر منه ، بغض النظر عما إذا كان قولك يتسم بالدقة الواقعية أم لا . والمثال على ذلك قيام دار نشر **مانور بوكس** بطبع نسخة شعبية من كتاب **الحكومة الإسلامية** الذى كتبه الخومينى ، ووضعت له عنوانًا خاصًا هو "**كفاحى بقلم آية الله الخومينى**" ، والمعروف أن **كفاحى** هو عنوان الكتاب الذى وضعه أدولف هتلر عن حياته ، كما أرفق الناشر بالكتاب مقدمة كتبها رجل يدعى چورچ كارپوتزى ، وهو من كبار الصحفيين فى **نيويورك پوست** ، وهو يزعم لأسباب لا يعرفها أحد سواه أن الخومينى عربىّ وأن الإسلام نزل فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما يبدأ تحليله بعبارات يحلو وقعها فى السمع على النحو التالى :

> إن آية الله روح الله الخومينى ، مثل أدولف هتلر وإن اختلف الزمن ، طاغية يضمر الكراهية ويبث الغواية ويمثل تهديدًا للنظام والسلم فى العالم والفرق الرئيسى بين صاحب **كفاحى** ومؤلف هذا الكتاب الغث ، أى الحكومة الإسلامية ، هو أن الأول كان ملحدًا والثانى يتظاهر بأنه مؤمن بالله(٤٣) .

وأمثال هذه الصور المرسومة للإسلام ما فتئت تشهد على الولع بتقسيم العالم إلى قسمين أحدهما يناصر أمريكا والثانى يناصبها العداء (أو بيْن من يعادون الشيوعية وبين من يناصرونها)

وعلى العزوف عن الإشارة إلى التحولات السياسية ، وعلى فرض أنساق وقيم إما أنها تكشف عن تعصب عرقى وإما أنها لا صلة لها بالموضوع ، أو أنها تجمع بين هذا وذاك ، وعلى التشويه الخالص للمعلومات ، والتكرار ، وتحاشى الدخول فى التفاصيل، والافتقار إلى المنظور الأصيل . ويمكن إرجاع هذا كله لا للإسلام بل إلى جوانب معينة فى المجتمع الغربى وإلى أجهزة الإعلام التى تتجلى فيها هذه الفكرة عن ''الإسلام'' مثلما تعمل هذه الأجهزة على نشرها . والنتيجة هى أننا أعدنا تقسيم العالم إلى شرق وغرب ، وهى الأطروحة الاستشراقية القديمة دون تغيير يذكر ، وهو ما يزيد من إحكام الغشاوة التى تمنعنا لا من رؤية العالم فقط بل من رؤية أنفسنا أيضًا وإدراك ما آلت إليه حقًا علاقتنا مع ما نسميه العالم الثالث .

وقد أدى ذلك إلى بعض العواقب التى تكتسب قدرًا ما من الأهمية ، أولها أن الإسلام قد نشأت له صورة معينة ، لا تزيد عن كونها صورة . وثانيها هو أن معناها أو رسالتها قد استمرت، بصفة عامة ، أبعادها المحدودة والنمطية ، وثالثها نشأة وضع سياسى يقوم على المواجهة ، إذ يضعنا ''نحن'' فى مواجهة ''الإسلام'' . ورابعها هو أن هذه الصورة المختزلة للإسلام كان لها آثارها التى نستطيع التحقق منها فى عالم المسلمين نفسه . وخامسها هو أن صورة الإسلام فى أجهزة الإعلام والموقف الثقافى إزاءه يستطيعان أن يكشفا لنا عن الكثير ، لا عن ''الإسلام'' فحسب ،

بل أيضًا عن المؤسسات القائمة فى إطارنا الثقافى ، والمناهج السياسية المتّبعة فى الإعلام والمعرفة والسياسات القومية .

ولكن رصدى لهذه الأشياء كلها عن الصورة العامة للإسلام التى تشيع اليوم ، لا يقصد به الإيحاء بوجود إسلام " حقيقى" فى مكان ما فى دنيا الواقع قامت أجهزة الإعلام بتشويهه مدفوعة بدوافع دنيئة . لا أقصد هذا على الإطلاق . فالإسلام يمثل للمسلمين ، مثلما يمثل لغير المسلمين ، حقيقة موضوعية وذاتية فى الوقت نفسه ، فالناس ينشئون هذه الحقيقة فى عقيدتهم ، وفى مجتمعاتهم ، وتاريخهم ، وتقاليدهم ، وأما غير المسلمين من الأجانب فهم مضطرون إلى أن يثبتوا ، بمعنى من المعانى ، هوية ما يشعرون أنه يواجههم بصورة جماعية أو فردية ، وأن يجسدوه وأن يطبعوا هذه الهوية بطابع ما - ومعنى هذا أن صور الإسلام عند أجهزة الإعلام ، وعند الباحث الغربى ، وعند الصحفى الغربى ، وعند المسلم ، ثمرة فعل إرادى وتفسير معين ، وهما من الأفعال التى لا تحدث إلا فى سياق تاريخى ، ولا يمكن لنا إلا أن ننظر إليها فى هذا الإطار التاريخى باعتبارها من أفعال الإرادة والتفسير . ولست شخصيًّا متدينًا ، كما إننى لا أنتمى إلى خلفية إسلامية ، ولكننى أعتقد أننى أستطيع أن أفهم من يعلن أنه مقتنع بعقيدة معينة . ولكننى ، فى حدود رؤيتى لإمكان مناقشة العقيدة على الإطلاق ، أرى أن ذلك يقع فى حدود **تفسيرات العقيدة** التى تتجلى فى الأفعال البشرية التى لا تقع بدورها إلا فى سياق

التاريخ البشرى والمجتمع البشرى . فإذا تصدينا مثلاً لمناقشة الثورة "الإسلامية" التى أسقطت نظام حكم الشاه فى إيران ، علينا أن نمسك عن القطع فيما إذا كان الثوار يمثلون العقيدة الإسلامية **الحقيقية** ؛ لكننا نستطيع أن نعرض لمفهومهم عن الإسلام ، وهو الذى جعلهم يواجهون مواجهة مربكة (أو مواجهة "إسلامية" إن صح التعبير) نظامًا رأوا أنه معادٍ للإسلام ، وظالم ، ومستبد . وعندها نستطيع أن نقارن تفسيرهم للإسلام بما قالته مجلة **تايم** أو صحيفة **لوموند** عن الإسلام وعن الثورة الإيرانية .

وبتعبير آخر فإن ما نعرض له هنا يعتبر ، بأوسع معنى من المعانى ، مجتمعات يعتمد كل منها تفسيرًا معينًا ، يتناقض الكثير منها مع بعضه البعض ، وتبدى الاستعداد فى حالات كثيرة لمحاربة بعضها البعض ، وكل منها ينشئ نفسه ويفصح عن ذاته وعن تفسيره باعتباره من الركائز الأساسية لوجوده . لا يقيم أحد فى حياته صلة مباشرة مع الحقيقة أو الواقع ، فكل منا يعيش فى عالم صنعه البشر فى الواقع الفعلى ، ونحن نرى فيه أن ما يسمى "الأمة" ، أو "المسيحية" أو "الإسلام" من ثمار الأعراف المتفق عليها ، والتحولات التاريخية ، وقبل ذلك كله من ثمار الجهد البشرى المبذول لوضع هوية نستطيع التعرف عليها لكل من هذه الأسماء . وليس معنى هذا أن الحقيقة والواقع لا يوجدان فعلاً ، بل هما موجودان ، ونحن نعرف ذلك حين نشاهد الأشجار والمنازل من حولنا ، أو عندما تتكسر إحدى العظام فى الجسم أو

حين نشعر بالحزن العميق لوفاة شـخص نحبه . ولكننا بصفة عامة ننزع إلى أن نتناسى أو نهـوّن من مـدى اعتـمـاد إدراكنا للواقع لا على التفسيرات والمعانى التى يشكّلهـا كل فرد لنفسه فحسب ، بل أيضًا على التفسيرات والمعانى التى **نتلقاها** من خارج ذواتنا . فهذه التفسيرات المتلقاة تعتبر جـزءًا لا يتجزأ من الحياة فى مجتمع ما . وقد عبر س. رايت ميلز عن ذلك بوضوح قائلاً :

أولى القواعد اللازمة لتـفهم حال الإنسان هو أن الناس يعيشون فى عوالم سبق لغيرهم ' استعمالها' ، ولذلك فهم يدركون مدركـات أكثر كثيرًا مما خبروه شـخصيًا . وخبراتهم الخاصة دائمًا ما تكون غـير مباشرة . ونوعية حياتهم تحددها المعـانى التى تلقوها من الآخرين . وكل شـخص يعيش فى عـالم من هذه المعـانى . ولا يقف إنسان وحده فى مـواجهة مبـاشرة مع عالم من الحقـيقة الصلبـة ، إذ لا وجـود لمثل ذلك العـالم . وأما أشـدُّ اقتراب للإنسان منه فيكون فى مرحلة الطفولة المبكرة أو عندما يصيبه الجنون ، فـعندها ، فى مشهد مرعب من الأحداث التى لا معنى لها والاختلاط المبهم ، كثيرًا ما يستولى عليه الذعر إزاء افتـقاره شبه التام للأمان . وأما فى حياته اليومية فهو لا يَخْبَرُ عالمًا من الحقائق الصلبة، بل إن خبـراته نفسها تختـارها له معان نمطيـة وتشكلها تفسيرات جـاهزة . والصور التى تتكون لديه عن العالم

وعن ذاته يقدمها إليه حشود من الشهود الذين لم يسبق له أن قابلهم ولن يكتب له أن يقـابلهم . ومع ذلك فإن هذه الصور التى يقدمهـا الأغراب والموتى تشكل أساس كل فرد باعتباره إنسانًا .

إن وعى الإنسـان لا يحـدد وجـوده المادى ، كـمـا إن وجـوده المادى لا يحـدد وعـيـه ، إذ تـقف بين الوعى والوجود معان وأشكال ورسـائل خلّفها أناس آخرون ، تتجلى أول الأمر فى لغـة البشر نفسـها ، ثم تتضح فى وقت لاحق فى الرموز المستعـملة . وهذه التفسـيرات المتلقاة والمتلاعب بها تؤثّر تأثيـرًا حاسمًا فى وعى الفرد بوجوده . فهى تـقدم له مفاتيح فهـم ما يرى ، وكيف يستجـيب له ، ومشاعره إزاءه ، وكيف يستـجيب لهذه المشاعر . فالرموز تقوم بتركيز الخبرات ، والمعانى تتولى تنظيم المعارف ، فتـوجه مسيرة المدركـات السطحية فى لحظة من اللحظات بنفس القـوة التى توجه بهـا مسـيرة طموحات عمر بأكمله .

لا شك أن كل إنسـان **يلاحظ** الطبـيـعة ، والأحـداث الاجتـماعيـة ، وذاته نفسهـا ، ولكنه لا يلاحظ ، ولم يسـبق له أن لاحظ مطلقًـا ، مـعظم مـا يفـتـرض أنه حقـيقى، بشـأن الطبيـعة أو المجتـمع أو الذات . وكل إنسـان يفسـر مـا يلاحظه ، إلى جانـب الكثيـر مما لم

يلاحظه ، ولكن المفاهيم التى يطبقها فى التفسير لا تنتمى إليه، فلم يقم بصياغتها بنفسه بل ولا باختبارها. وكل إنسان يتحدث عن الملاحظات والتفسيرات للآخرين، ولكن اللغة التى يستخدمها فى هذا الحديث ليست ، على الأرجح ، إلا العبارات والصور التى وضعها الآخرون فأخذها عنهم واعتبرها عباراته وصوره. وكل إنسان يعتمد اعتمادًا متزايدًا فى معظم ما يسميه الحقائق الصلبة ، والتفسيرات السليمة أو الصحيحة ، وأشكال ' التمثيل' المناسبة ، و'محطات الملاحظة' ، ومراكز التفسير ، و'مستودعات التمثيل' التى ينشئها فى المجتمع المعاصر على ما سوف أطلق عليه تعبير الجهاز الثقافى(٤٤) .

أما فرع الجهاز الثقافى الذى يقوم بنقل الإسلام إلى معظم الأمريكيين (ومعظم الأوروبيين بصفة عامة) فهو يعتمد بصفة رئيسية على شبكات التليفزيون والراديو ، والصحف اليومية ، والمجلات الإخبارية الواسعة الانتشار ، وتلعب الأفلام السينمائية دورًا هنا ، بطبيعة الحال ، وذلك فى حدود ما يتأثر إدراكنا المرئى للتاريخ وللبقاع النائية بما تقدمه السينما فى هذا المجال . ويمكننا أن نقول إن هذا التركيز القوى لأجهزة الإعلام الجماعية يشكل فى مجموعه جوهرًا مشتركًا للتفسيرات التى تقدم صورة معينة للإسلام وتكشف أيضًا ، بطبيعة الحال ، عن المصالح القوية فى المجتمع

التى تخدمـها هذه الأجهـزة الإعلاميـة . وهذه الصورة ، التى لا تقتصر على كونها صورة بل تمثل مـجموعة المشاعر التى توحى بها الصورة ، يصاحبها ما نستطيع أن نطـلق عليه تعبير السياق الشامل لها . وأنا أعنى بالسياق موقع الصورة ، ومكانها فى دنيا الواقع ، والقيم المضـمرة فيها ، وليس بأقل مـن ذلك أهمية 'نوع' الموقف الذى تدفع المشـاهد إلى اتخـاذه حـيـالهـا . وهكذا فـإذا دأب التليـفـزيون على تقـديم الأزمـة الإيرانيـة فى صـورة الجمـاهيـر 'الغوغائية' التى يعلو هتافها ، بمصاحبة تعليق يتحدث عن العداء لأمريكا ، فإن بُعْدَ المسافـة ، وعدم الألفة بما يحدث ، وما يكمن فى المشـهد من تـهديد ، يجـعل " الإسلام" قاصـرًا على هذه الخصـائص ، وهذا يؤدى بدوره إلى الإحـساس بأن شـيـئًا منـفّرًا وسلبيًا فى جوهره يواجهنا . ومـا دام الإسلامُ فيما يبدو "ضدَّنا" وبعيدًا عنا فى "ذلك المكان" ، فلن يبقى مجال للشك فى ضرورة اتخاذ موقف مواجهة للردّ عليه . وإذا شـاهدنا وسمعنا معلقًا مثل والتر كرونكايت وهو يضع عبارة "هذا هو الواقع" إطارًا لبرنامجه المسائى كل يوم ، فسوف نستنتج نحن أيضًا لا أن المشهد الذى نراه هو ما اخـتارت إحدى شركـات التليفزيون أن تعرضـه علينا بهذه الصورة ، بل أن هذا هو الواقع حقًا، وأنه أمر طبيعى، لا يتغير ، و"أجنبى" ومعارض "لنا". ولا غرو إذن أن يقول جان دانييل فى صحيفة لونوفيل أوبزرفاتير فى عددها الصادر يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ إن الولايات المتحدة تشعر أن الإسلام يحاصرها .

وعلى الرغم من شـدة اعتـمادنا على التليـفزيون والصـحف والراديو والمجلات ، فليست هذه هى مصدرنا الأوحد لما 'نعرفه' عن الإسلام ، بل لدينا الكتب والمجلات المتخـصصة والمحاضرين الذين يدلون بآراء أشد تعقـيدًا من المعلومات المشتّـتة فى جوهرها والأنباء المباشرة التى تنقلها وسـائل الإعلام الجماهيرية(٤٥) . ومن المهم أن نذكر أيضًا أن الصحف والراديو والتليـفزيون أجهزة تزخر بالتنوع فيـما نلحظه من اتجاهات المحررين، أو بين وجـهات النظر المختلفـة ، أو بين الصور البديلة أو المضـادة للأعراف الثقافـية أو الصور التقليدية . أى إننا ، بإيجاز ، لا نعـيش تحت رحمة جهاز دعائى مـركزى ، على الرغم من صـدور كم كبيـر مما يعتـبر فى حقيقـته دعاية من أجهزة الإعلام وحتى مـن أقلام الباحثين الذين يتمتعـون بسمعة طيبة . لكنه برغم التنوع والاختـلافات ، ومهما زعمنا العكس ، فـإن ما يصدر عن هذه الأجهزة ليـس تلقائيًا ولا هو يتـمتع "بحرية" كاملة ، ولا يتـصادف أن تأتى "الأخبار" بالصورة التى تأتى بها ، ولا يتصادف أن تنبع الصور والأفكار من دنيا الواقع لتصبّ فى أعيننا وأذهاننا ، ولا يتيسّر لنا أن نجد الحقيقة حـيثـما نطلبـهـا ، وليس بين أيدينا ذلك التنوع المتـوهم الذى لا يخضع لـضابط أو رابط . فإن التـليفزيون والراديـو والصحف ، شأنها فى ذلك شأن جميع طرائق التواصل ، تراعى قواعد وأعرافًا معينة فى توصيل الأفكار فى صور مفهومة ، وكثيرًا ما تلعب هذه القـواعد والأعـراف دورًا أكبـر من دور الواقع الذى تنقله أجهـزة

الإعلام فى تشكيل مـادّتها. ولما كانت هذه القـواعد المتفق عليـها ضمنًا تسـاعد بكفـاءة على اختزال الواقع ، إذا اتسـم بالتعقـيد ، حتى يصبح "أخبارًا" أو "موضوعات صحفية" ولما كانت أجهزة الإعلام تجتهـد حتى تصل إلى نفس الجمهور الذى تعـتقد أن لديه مجـموعـة من الأفكار والافتـراضات الموحّدة عن الـواقع ، فمن المحتمل أن تصبح صورة الإسلام (وصورة أى شىء آخر ، فى هذا الصدد) موحّدة إلى حد بعيـد ، وتتسم باختزال بعض الجوانب ، وتكتسى لونًا واحـدًا . ومن البديهى أنه لما كانت أجـهزة الإعلام شركات تسـعى لتحقيق الربـح ، فـإنها تهتـم بترويج صـور معينة للواقع وتقديمها على غيرهـا ، وهذا مفهوم . وهى تفعل هذا فى سياق **سياسىّ** يكتسب حيويته وتأثيره من أيديولوجيات قائمة على مستوى اللاوعى ، وهى التى تنشـرها أجهزة الإعلام دون تحفظات أو معارضة جادة.

ولابد لنا الآن من وضع بعض الحدود اللازمة لموضوعنا ، إذ لا يمكن الزعم بأن الدول الصناعية الغربية تنتهج سياسات قمعية أو تحكمها الدعاية . فذلك بطبـيعة الحال زعم باطل . ففى الولايات المتحدة مـثلاً ، نجد الفرصـة متاحة للتـعبير عن أى رأى ، مـهما يكن، تقريبًا ، كما يتمتع المواطنون وتتمتع أجهزة الإعلام بطاقة لا تبـارى على تقبل وجـهات النظر الجـديدة وغيـر التقليـدية وغـير ' الجمـاهيرية' . كـما إن التنوع الهـائل فى الصحف والمجـلات وبرامج التليفـزيون والراديو المتاحة ، ناهيك بالكتب والكتـيبات،

تنوعٌ يكاد يستعصى على الوصف أو تحديد طابعه ، فكيف نستطيع إذن أن نقول ، بأى درجة من درجات الإنصاف والدقة ، إنها جميعًا تُعبّر عن وجهة نظر **واحدة** عامة ؟

لا نستطيع بالقطع ذلك بل ولن أقدم على مجرد المحاولة . ولكننى أعتقد أننا نستطيع أن نَلْمَحَ ، على الرغم من هذا التنوع الفذّ ، ميلا كيفيًا وكميًا إلى تحبيذ آراء معينة وتفضيل صور معينة للواقع على غيرها . فلأُقَدّمْ أولاً تلخيصًا سريعًا لبعض المسائل التى أثرتها قبل أن أبين كيف تتفق مع جوانب معينة فى **أجهزة** الإعلام : إننا لا نحيا فى عالم طبيعى ، فالصحف **والأخبار** والآراء ليست موجودة فى الطبيعة ؛ بل إنها **مصنوعة أى إنها** نتجت عن الإرادة البشرية ، والتاريخ البشرى ، والظروف الاجتماعية ، والمؤسسات وتقاليد المهنة التى يزاولها المرء . وأما الحديث عما ترمى إليه الصحافة من موضوعية واقتصار على الحقائق والتغطية الواقعية وتوخى الدقة ، فهو حديث عن مصطلحات نسبية إلى حد بعيد ، وربما كانت تعبر عن النوايا لا الأهداف القابلة للتحقيق . وعلينا ، قطعًا ، ألا نتصور أنها أمور عادية ، لمجرد أننا اعتدنا اعتبار صحفنا صحفًا تنشر الحقائق ويمكن الوثوق بها ، واعتبار صحف البلدان الشيوعية وغير الغربية صحفًا دعائية وأيديولوجية . أما الواقع فهو ، على نحو ما يثبته هيربرت جانز فى كتابه المهم **البت فيما يعتبر خبرًا** ، أن الصحفيين ووكالات الأنباء وشبكات الأنباء هى التى تقرر واعية ما ينبغى

تصويره ، والصورة التى يجب أن يتخذها وما إلى ذلك بسبيل[٤٦] . ولنا أن نقول إذن ، بتعبير آخر ، إن الأخبار ليست "معطيات" ذات قصور ذاتى بل هى ثمرة نشاط معقد عادة ما يتضمن الاختيار المتعمد والتعبير المقصود .

لقد توافرت لنا الأدلة السابغة فى الآونة الأخيرة على طرائق عمل الأجهزة الكبرى فى مجالى جمع الأنباء ونشرها فى الغرب، إذ صدرت الكتب التى كتبها جاى تاليز وهاريسون سولزبرى عن **النيويورك تايمز** ، وكتاب داڤيد هالبرستام بعنوان **القوى التى تشكل** ، وكتاب توكنام بعنوان **صناعة الأخبار** ، وشتى الدراسات التى أجراها هيربرت شيلر عن صناعة وسائل الاتصال، ومايكل شودسون بعنوان **اكتشاف الأخبار** ، وأخيرًا كتاب أرماند ماتلارت بعنوان **الشركات المتعددة الجنسية والتحكم فى الثقافة**[٤٧] وليست هذه سوى مجموعة محدودة من الدراسات التى أجريت من وجهات نظر مختلفة ، والتى تؤكد مدى الالتزام فى تشكيل الأنباء والرأى ، فى المجتمع بصفة عامة ، بقواعد معينة ، ومدى اتخاذه أطرًا وتوسله بأعراف تمنح هذا العمل هوية شاملة واضحة كل الوضوح . فالصحفى ، شأنه فى ذلك شأن كل إنسان ، يفترض افتراضات معينة يراها عادية أو ' طبيعية' ؛ ولديه قيم تمثلها فى أعماقه حتى لم تعد تحتاج إلى اختبار صحتها فى كل حالة ، مثلما يعتبر المرء عادات مجتمعه من ' المسلّمات' ؛ والمرء لا ينسى تعليمه وجنسيته ودينه أثناء وصفه للمجتمعات والثقافات الأجنبية؛

والوعى بأخلاقـيات المهنة وطرائق أدائها يلعب دوره فى تحـديد ما يقوله المرء وأسلوب التعبير عنه والجمهور الذى يشعر أنه يوجه إليه هذا الكلام . ولقـد وصف روبرت دارنتـون هذه المسائل بطريقـة بالغة الجاذبية فى مقال له بعنوان "كتابة الخبر وقص القصص" ، حتى جعلنا على وعى عميق لا بـالواقع الحىّ لعمل الصحفى فقط بل أيضًا "بالتكافل والعـداوات التى تنشـأ وتنمـو بين الصحـفى ومصـادره" ، وبالضـغوط القائـمة فى "التوحـيد والتنـميط" ، وبالأساليب التى "يضيف بها الصحـفى إلى الأحداث التى يغطيها أكثر مما يستقيه منها" (٤٨) .

وتختلف أجهزة الإعلام الأمريكية عن أجهزة الإعلام الفرنسية والبريطانيـة بسبب الاختـلاف البالغ بين المجتـمعات ، واخـتلاف الجمهـور هنا وهناك ، واختلاف المؤسسات والمـصالح . فعلى كل صحفى أمـريكى أن يكون على وعى بأن بلده دولة عظمى ولديها ما تنفـرد به بين الدول من مصـالح وطرائق خاصـة لتحـقيق هذه المصالح . إن استقلال الصحافة شىء رائع ، عمليًا ونظريًا ، ولكن كل صحفى أمريكى تقريبًـا يكتب عن العالم وفى أعماقه وعى بأن الدار الصحـفيـة التى ينتمى إليـها شـريك فى القوة الأمـريكية ، بحيث لو تعـرضت هذه القوة للتـهديد من الدول الأجنبيـة أصبح استقلال الصحافة أمرًا ثانويًا بالمقارنة بما لا يزيد فى حالات كثيرة عن التعبير المضمر عن الإخلاص والوطنية ، أو عن التعبير البسيط عن الهوية القومـية . ولكن هذا لا يدعو للدهشة قطعًـا ، أما ما

يدعـو للدهشـة فهـو أن الناس فى العـادة لا يرون أن الصـحافـة المستقلة تشارك فى السـياسة الخارجية ، على الرغم من مشـاركتها الفـعالة وبأشكـال كثـيرة . فـإذا تغـاضينا عن اسـتـخدام وكـالة الاستخبارات المركزية للصحفيين العاملين فى الخارج ، فسوف نرى أن أجهـزة الإعلام الأمريكيـة تقوم ، وهذا أمـر محتـوم ، بجمع معلوماتهـا عن العالم الخارجى داخل إطار تهيمن عليه الـسياسات الحكومية ، فإذا نشأ تضـارب أو خلاف مع هذه السياسات ، على نحو ما حدث فى حالة فيتنام ، قامت أجهزة الإعلام بتكوين آرائها المستـقلة ، ولكنه حتى فى هذه الحال لا بد من مراعـاة قدرة هذه الآراء على التأثير فى الـسياسات الحكومية وإن لم تغيّـرها فعليًا ، فهـذه السياسـات هى التى تهم الأمريكيين جـميعًـا ، ومن بينهم رجال الصحافة .

أما فى الخارج فـإن الصحفى الأمريكى مضطر إلى الاعـتماد على ما يعرفه خير معرفة ، وهذا أمر مفهوم ، وهذا يحدث دائمًا عندما ينتقل أى إنسان من بيئته ليعيش فى ظل ثقافة أجنبية ، وهو يصدق بصفة خاصة على الصحفى الذى يشعر أن عليه فى الخارج أن يترجم ما يحـدث حوله إلى لغة يفهمهـا مواطنوه داخل أمريكا (ومن بينهم واضعـو السياسات) : إنه يسـعى لمصاحبة الصـحفيين الآخـرين فى الخارج ، ولكـنه يظل على اتصـال بسفـارة بلده ، وبالأمريكيين الآخرين المقيمين فى ذلك البلد ، وبالأشخاص الذين عرف عنهم الارتبـاط بعلاقـات طيبة مع الأمـريكيين . وعلينا ألاّ

نهوّن من أهمية أمر آخر ، وهو إحساس الصحفى فى الخارج أنه يعتمد لا على ما يعرفه سلفًا أو يكتسب علمًا به ، فحسب ، بل أيضًا على **ما ينبغى** لمثل أجهزة الإعلام الأمريكية فى الخارج أن يعرفه ، ويكتسب علمًا به ، ويقوله . فمراسل صحيفة **نيويورك تايمز** يعرف حق المعرفة طبيعة صحيفته وصورتها لذاتها بين المؤسسات الصحفية . وهكذا سوف نرى بالقطع فارقًا بالغ الأهمية وربما يكون حاسمًا بين الموضوع الصحفى الذى يبعث به مراسل **التايمز** فى طهران لنشره فى صحيفته ، وبين الموضوع الذى يرسله مراسل يعمل بالقطعة لنشره فى صحيفة **ذا نيشن** (الأمة) أو فى **إن ذيس تايمز** (فى هذا العصر) ، وهو فى طهران . واختلاف الجهاز الإعلامى نفسه يمارس ضغوطًا كبيرة ، فتغطية الحدث تغطية ميدانية مباشرة لبرنامج الأخبار المسائية فى محطة إن. بى. سى. تتطلب من المراسل فى القاهرة صياغة للخبر تختلف عن صياغة رئيس مكتب مجلة **تايم** لمقال يكتبه ويستغرق فى كتابته وقتًا أطول . وتضاف إلى ذلك أيضًا أساليب إعادة الصياغة التى يقوم بها المحررون فى الوطن للأخبار التى يرسلها المراسل من الخارج ، إذ تتدخل هنا مجموعة مختلفة من القيود السياسية والأيديولوجية ، ولو دون وعى من جانب هؤلاء المحررين .

وتغطية أجهزة الإعلام الأمريكية للبلدان الأجنبية تقوم بإثارة اهتمامات جديدة ، إلى جانب تعميق الاهتمامات القديمة "لنا" بتلك البلدان . فوجهات النظر فى أجهزة الإعلام تؤكد أشياء

معينة للأمريكى وتؤكد غيرها للإيطالى أو الروسى . وتلتقى هذه كلها حول مركز مشترك ، أو اتفاق فى الرأى ، وهو ما تشعر جميع المنظمات الإعلامية شعورًا شبه مؤكد بأنها تتولى إيضاحه وبلورته وتشكيله . وهذا بيت القصيد . فلأجهزة الإعلام أن تفعل شتى الأشياء ، وتمثل شتى وجهات النظر ، وتقدم أشياء كثيرة تتسم بالغرابة الشديدة أو الأصالة بصورة غير متوقعة ، أو حتى الانحراف ، ولكنها فى نهاية المطاف ، ولأنها شركات تخدم وتعزز هوية مشتركة - قل إنها "أمريكا" أو حتى "الغرب" - فهى تضع نصب أعينها هذا الاتفاق الأساسى نفسه ، وهذا ، على نحو ما سوف نرى بعد قليل فى حالة إيران ، هو الذى يشكّل الأنباء ، ويبتُّ **فيما** يصلح خبرًا **وكيف** يصبح خبرًا . ولكنه مع ذلك لا يُملى أو يحدد الأنباء بصورة قسرية ، فليس نتيجة قوانين جبرية ، ولا نتيجة التآمر ولا الدكتاتورية . بل إنه من ثمار الثقافة ، والأفضل أن نقول إنه ثقافة معينة ، وهو ، فيما يتعلق بأجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة ، عنصر مهم من عناصر التاريخ المعاصر . ولن يكون من المجدى تحليل وانتقاد هذه الظاهرة لو لم يكن صحيحًا أن أجهزة الإعلام تستجيب حقا لما نحن عليه ولما نريد[٤٩] .

والأفضل لنا أن نصف اتفاق الآراء المشار إليه بأنه قائم فى الواقع ، بدلاً من القول بأنه مقرر أو مجرد . وفيما يتصل بتغطية أجهزة الإعلام للإسلام وإيران ، سوف أدع اتفاق الآراء المذكور

يفصح عن ذاته حيثما يظهر فى سياق التحليل الذى سوف أقدمه فى الفصل التالى . أما الآن فلا أريد إلا تقديم تعليقين ختاميين على هذا الموضوع .

علينا أن نتذكر أولاً أنه لما كانت الولايات المتحدة مجتمعًا مركّبًا يتكون من ثقافات فرعية متعددة ، وكثيرًا ما لا يتمشى بعضُها مع بعض ، لابد أن يستشعر الناس ، بقوة هائلة ، ضرورة تقديم ثقافة مشتركة وموحّدة إلى حدٍّ ما عن طريق أجهزة الإعلام. ولا ترتبط هذه الظاهرة بأجهزة الإعلام فى عصرنا فحسب ، بل إنها من السمات ذات الأصالة الخاصة ، وتمتد جذورها التاريخية إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية . لقد بدأ الأمر بما كان البيوريتانيون يسمونه "الانطلاق فى البرية" ، وبُنيت على أساسه فى هذا البلد لغةٌ أيديولوجية راسخة للتعبير عن كل ما هو أمريكى قح ، فى الوعى والهوية والمصير والدور المنوط بأمريكا ، وكانت مهمة هذه اللغة هى أن تضم معًا أكبر قدر ممكن من العناصر المختلفة فى أمريكا (وفى العالم) وأن تعيد تشكيلها بأسلوب أمريكى فريد . وقد لقيت هذه اللغة ، ولقى وجودها الراسخ فى الحياة الأمريكية قدرًا كبيرًا من التحليل المُقْنع على أيدى العديد من الباحثين ، كان من بينهم پيرى ميلر ، وآخرهم سكبان بيركوفيتش[٥٠] وكان من نتائج هذه اللغة أن ساد وهم اتفاق الآراء، وإن لم يكن اتفاقًا فعليًّا فى الرأى فى جميع الأحوال ، وهكذا ، وفى إطار هذا الاتفاق الذى يكتسى صبغة قومية بصفة

رئيسية ، تعتقد أجهزة الإعلام أنها تؤدى عملها باسم المجتمع الذى تخدمه ولصالحه .

وتتعلق المسألة الثانية بالتأثير الفعلى لاتفاق الآراء المذكور ، وأرى أن أبسط طريقة لتحديد هذا التأثير ، بل وأدق الطرائق فى اعتقادى ، هى أن نقول إنه وَضعُ الحدود والمحافظة على استمرار الضغوط[٥١]. فاتفاق الآراء لا يُملى على أجهزة الإعلام ما تقوله، كما إنه لا يمثل طبقة معينة أو المصالح الاقتصادية لفئة معينة . بل علينا أن نعتبر أنه العامل الذى يضع الخطوط الخفيّة التى تمثل الحدود التى لا يشعر الصحفىّ أو المعلق أنه يحتاج إلى تجاوزها . وهكذا نرى أن القول باحتمال استعمال القوة العسكرية الأمريكية لتحقيق أغراض خبيثة قول محالٌ نسبيًّا فى إطار اتفاق الآراء المذكور ، مثلما أصبح القول بأن أمريكا قوة تعمل فى سبيل الخير فى العالم قول معتاد و'طبيعى' . وعلى غرار ذلك نجد أن الأمريكيين يتعاطفون تعاطفًا وثيقًا مع المجتمعات أو الثقافات الأجنبية التى تظهر روح ريادة جديدة (مثل إسرائيل) فى انتزاع الأرض من أيدى مَن يسيئون استخدامها أو من أيدى الهمجيين[٥٢]، لكنهم كثيرًا ما يتشككون ، ولا يبدون اهتمامًا كبيرًا بالثقافات التقليدية ، حتى ما يكابد منها عناء التجديد الثورى . ويفترض الأمريكيون أن الدعاية الشيوعية تخضع لقيود ثقافية وسياسية مماثلة ، وأما فى حالة أمريكا فإن أجهزة الإعلام تضع الحدود وتحافظ على الضغوط فى إطار لا يكاد يفصح عن الإقرار

بذلك أو الوعى به[٥٣] . ويعتبر هذا فى ذاته مظهرًا من مظاهر وضع الحدود . ولأضرب لذلك مثلاً آخر . فعندما احتجز الطلاب الإيرانيون الرهائن الأمريكيين فى طهران ، بدأ اتفاق الآراء المذكور فى ممارسة تأثيره فورًا ، فأصدر ما يشبه الأمر بأن الأحداث الخاصة بالرهائن هى وحدها ، تقريبًا ، ما يهم الناس بصدد إيران، وأما ما عدا ذلك ، أى سائر أحوال إيران، من التحولات السياسية إلى الحياة اليومية والشخصيات العامة والملامح الجغرافية والتاريخية، فهو جدير بالتجاهل إلى أبعد حد، أى إن تحديد صورة إيران والشعب الإيرانى يقتصر على البتّ فيما إذا كانا يناصران الولايات المتحدة أو يعاديانها .

وتكفى هذه التعليقات العامة حول ما يمكن اعتباره الجوانب التى تؤكدها أجهزة الإعلام من حيث 'الكيف' فى نقلها للأنباء ونشرها (أى ما يسمى – اصطلاحًا – بالتوزيع) وأما ما نحتاج إلى قوله عن الجوانب 'الكمية' للأنباء باعتبارها 'تفسيرات' للواقع، فنستطيع أن نقول بصورة مباشرة إن أوسع انتشار (أو توزيع) ، ومن ثم أقوى تأثير ، تستأثر به حفنة محدودة من المنظمات ، وكالتان أو ثلاث وكالات للأنباء ، وثلاث شبكات تليفزيونية ، ونصف دستة من الصحف اليومية ، ومجلتان إخباريتان أسبوعيتان (أو ثلاث مجلات)[٥٤] ولن نحتاج إلى أن نذكر أكثر من أسماء معدودة لإيضاح ما نقول : محطة **كولمبيا برودكاستنج سيستيم** (محطة إذاعة كولمبيا) (سى بى اس) التليفزيونية ، ومجلة **تايم** ،

وصحيفة **نيويورك تايمز** ، ووكالة **يونايتد برس إنترناشيونال** . إذ تستطيع هذه مجتمعةً أن تصل إلى عدد أكبر من أفراد الجمهور ، وإحداث تأثير أعمق ، ونشر أنواع معينة من الأنباء على نطاق أوسع مما تستطيعه أجهزة توزيع الأخبار الأصغر والأقل ثراءً . أما معنى هذا فيما يتعلق بالأنباء الخارجية فهو واضح : فأمثال هذه الشركات لديها أعداد أكبر من سواها من المراسلين الميدانيين ، ومن ثم فإن هؤلاء المراسلين هم الذين يضعون أسس المادة الصحفية التي تقوم الأجهزة المشاركة ، من صحف ومحطات تليفزيونية محلية ومحطات إذاعية ، بتوزيعه على عملائها مباشرة . ونلاحظ هنا أن الكمّ الهائل والكثافة الشديدة للأنباء الأجنبية التي تنقلها هذه الأجهزة الكبرى عادة ما يضفى عليها ثقة أكبر ، ومن ثم فإن الذين يستخدمون الأنباء يكثرون من الإشارة إليها ، وهكذا نجد أن النبأ الذى تنشره **نيويورك تايمز** أو تذيعه محطة سى. بى. إس. ، يتمتع بالمصداقية بفضل مصدره ، وهيبة المؤسسة التى صدر عنها وذيوع صيتها ، وكذلك بفضل تواتر ترديده (يوميًّا أو كل ساعة إلخ) وبفضل ما يوحى به من خبرة ودُرْبة . فإذا نظرنا إلى مجموع الأجهزة الرئيسية الصغيرة لنقل الأنباء ، والأجهزة الأصغر التى تتسم بالتنوع الهائل والاستقلال ، وإن كانت تعتمد رغم ذلك من زوايا كثيرة على الأجهزة العملاقة ، وجدنا أنها تقدم مجتمعة صورة **أمريكية** للواقع تتميز بالتماسك الواضح لكل ذى عينين .

ومن العواقب البالغة الخطورة لهذا الوضع هو أن الأمريكيين لا تكاد تتاح لهم فرصة رؤية العالم الإسلامى إلا فى تلك الصورة المختزلة ، والمقتسرة ، والمعارضة . ومصدر المأساة هنا هو أن هذا قد أدى إلى تفريخ مجموعة من 'الاختزالات المضادة' لدينا وفى العالم الإسلامىّ نفسه ، إذ لم يعد مصطلح ''الإسلام'' يدل الآن إلاّ على أحد المعنيين العاميّن التاليين ، وكلاهما مرفوض ويسلبه بعض ثرائه . ففى عيون الغربيين والأمريكيين يمثل '' الإسلام'' نزعة بدائية عادت للظهور ، ولا تقتصر على الإيحاء بالتهديد بالعودة إلى العصور الوسطى بل بخطر تدمير ما يشار إليه بانتظام بمصطلح النظام الديموقراطى للعالم الغربى . وفى مقابل ذلك نجد أن '' الإسلام'' يمثل لعدد كبير من المسلمين رد فعل مضاد لهذه الصورة الأولى للإسلام باعتباره تهديدًا أو خطرًا . وهكذا نجد أن أى شىء يقال عن ''الإسلام'' يتحول ، قسرًا إلى حدّ ما ، إلى صيغة الدفاع عنه بتعديد أوجه إنسانية الإسلام ، وذكر عطائه للحضارة ، والتنمية ، والصلاح الخلقى . وقد أدى هذا النوع من ردّ الفعل المضاد إلى ردّ مضادّ له ، فى بعض الأحيان ، وهى حماقة واضحة ، إذ حاول البعض معادلة ''الإسلام'' بالأوضاع الآنيّة القائمة فى أحد البلدان الإسلامية ، أو إحدى السلطات الإسلامية القائمة . ثم إذا بك ترى السادات وهو يصف الخومينى بأنه مجنون وعار على الإسلام ، وترى الخومينى وهو يرد '' التحية'' بأحسن منها ! وإذا بشتى الأشخاص فى الولايات

المتحدة يناقشون نصيب كل قضـية منها من الصحة ! ماذا يستطيع المدافع عن الإسلام من هذا المنـطلق أن يقول حين يقرأ يومـيًا عن أعداد الذين أعـدمتهم اللجـان الثورية الإيرانيـة ، أو عندما يعلن الخومينى، على نحو ما نقلته وكالة رويتر فى ١٩ سبتمبر ١٩٧٩ ، أنه سوف يقضى قضاءً مبرمًا على أعداء الثورة الإسلامية؟ ما أرمى إليه هنا هو أن جمـيع هذه المعانى النسبية والاخـتزالية ''للإسلام'' تعتمد على بعـضها البعض ، وعلينا أن نرفضهـا كلها لأنها تعمل على استمرار التعقيد القائم .

أما مدى العـواقب الوخيمة لهذا التـعقيد القائم فـيتضح حين نرى كيف اتخذ الإيرانيون من مناصـرة الولايات المتحدة للتحديث الذى أتى به الشاه نداءً لحشد الصفوف لمعـارضته ، وكانت ترجمة هذا تتمثل فى تفسـير للملكية باعتبارها سُـبَّةً فى جبين الإسلام ؛ كما حـددت الثورة الإسلامية بعـض الأهداف ، وكان أحدها هو مقاومة الإمبريـالية الأمريكية التى بدت ، بدورها ، فى صورة من يقاوم الثورة الإسـلامية بإعادة تنصيب الشـاه رمزيًا فى نيويورك . وتوالت بعد ذلك أحداث المسرحيـة كأنما وفق برنامج استشراقى ، فالمستشرقون المزعومون يلعـبون الدور الذى فرضته عليهم توقعات الغربـيين ، والغربيـون يؤكدون مـوقفهم فـى عيون أبنـاء الشرق باعتبارهم شياطين(٥٥) .

بل ولا يقتـصر الأمر على هذا . فـالبرامج التليفـزيونية التى تنتـجـها الولايات المتـحـدة تشـيع فى مناطق كـثيـرة من العـالم

الإسلامى، كما يميل المسلمون ، شـأنهم فى هذا شأن جميع أبناء العالم الثالث الآخـرين ، إلى الاعتماد على مجموعـة ضئيلة من وكالات الأنباء التى تـقوم بنقل الأخبار إلى العالـم الثالث ، حتى فى الحالات الكثيرة التى تكون فيها هذه الأخبار **أخبارًا عن** العالم الثالث . وهكذا تحوَّلَ العالمُ الثالثُ بصفة عامة والبلدان الإسلامية بصفـة خاصة من مصـادر للأنباء إلى جهـاتٍ مستـهلكة للأنباء . وهكذا ، ولأول مـرة فى التـاريخ يجـوز لنا أن نقـول إن العـالم الإسلامى يتلقى المعلومات **عن نفسه** عن طريق الصور والقصص والأخبـار المصنّعه فى الغرب (أو قل لأول مـرة يحدث ذلك على هذا النطاق الهائـل) . فإذا أضاف المرء بعض الحـقائق إلى هذا ، زادت دقة الصورة . وأولى هذه الحقـائق هو أن الطلاب والباحثين فى العالم الإسلامى مـا زالوا يعتمدون على المكتبـات والمؤسسات التعليـمية فى أمـريكا وأوروبا فيمـا أصبح يسمى دراسـات الشرق الأوسط (ولا تَنْسَ أن العـالم الإسلامى برمـتـه يخلو من مكتبـة مركزية مكتملة حـقًا للمصادر العلمية العـربية) وثانى هذه الحقائق هو أن اللغة الانجلـيزية أقرب إلى العـالمية من العـربية والفارسـية والتركية ، وثالثها أن بلدانًا كـثيرة من بلدان العالم الإسلامى التى يعتمد اقتصادها على النفط ، تعـتمد فى تكوين الصفوة فيها على إعداد طبقة إدارية من أبنائها تدين باقتصادياتها ومؤسساتها الدفاعية والكثيـر من فرصها السـياسيـة إلى نظام سوق الاستهـلاك العالمى الذى يتـحكم فيـه الغرب . أقـول إن هذه الحـقائق تزيد من دقـة

الصورة ، على ما بها من دواعى الكآبة البالغة ، ألا وهى صورة ما فعلته "بالإسلام" تلك الثورةُ فى أجهزة الإعلام التى لا تخدم إلا شريحة صغيرة من المجتمعاتٍ التى أنتجتها(٥٦) .

وليس معنى هذا أنه لا توجد فى الواقع نهضة إسلامية بعيدًا عن ردود الأفعال التى أتحدث عنها . ولكنه من الأدق أن نقلل من اللجوء إلى التعميمات فى الحديث عنها. فأنا ، من ناحيتى ، يزداد اطمئنانى إذا تجنّبْتُ استعمال كلمتى "الإسلام" و"الإسلامى" ، إلا فى حدود صارمة ، ومع تمييز الكلمتين فى كل سياق تردان فيه ، وذلك ، على وجه الدقة ، لأن كلمة "الإسلام" قد أصبحت فى الكثير من مجتمعات المسلمين ودولهم (وفى الغرب أيضًا ، بطبيعة الحال) غطاءً سياسيًّا للكثير مما لا ينتمى على الإطلاق إلى الدين . كيف نستطيع إذن أن نبدأ مناقشتنا ، بروح المسؤولية ، لتفسيرات المسلمين للإسلام ، وللتطورات التى شهدها ؟

يجب علينا أولاً ، مثلما فعل مكسيم رودنسون ، أن نرصد التعاليم الأساسية لدين المسلمين ، على نحو ما ورد فى القرآن الكريم ، كلام الله ، وتنزلها منزلتها الفريدة(٥٧) . هذا هو الأساس الراسخ لهوية العقيدة الإسلامية ، وإن كانت صور تفسيرها وتطبيقها فى الحياة الواقعية قد تبعدنا عنها . ويضم المستوى الثانى شتى التفسيرات المتضاربة للقرآن الكريم التى نشأت عنها الطوائف الإسلامية المتعددة ، وشتى المدارس الفقهية ،

والأساليب التفسيرية ، والنظريات اللغوية ، وما شابه ذلك .
وسوف نلمح اتجاهًا رئيسيًا داخل هذه الشبكة الهائلة من الآراء المستقاة من القرآن الكريم ، وهو الذى يطلق عليه رودنسون ''العودة إلى المنبع'' (وقد بنيت على معظم هذه الآراء مؤسسات كاملة ، بل ومجتمعات كاملة فى بعض الأحيان) . ومعنى هذا هو تلك النزعة التى يشبهها رودنسون ''بثورة دائمة'' داخل الإسلام. وإن كان لا يذكر أن جميع أديان التوحيد ، ومعظم الحركات الأيديولوجية ، تضم هذه النزعة فى ثناياها ، ومن أصعب الصعب أن نقول إن الإسلام أشد اتساقًا فى روحه الثورية من سواه فى هذا الصدد . وعلى أى حال فنحن نرى أن ''العودة إلى المنبع'' قد أدت إلى نشأة بعض الحركات (مثل الحركة الوهابية أو ، كما هو واضح ، العنصر الدينى فى الثورة الإيرانية) التى يختلف تأثيرها فى المجتمع الذى تنشأ فيه باختلاف المكان وباختلاف الزمان . فالمهدية باعتبارها من أيديولوجيات القرن التاسع عشر فى السودان تختلف عن المهدية القائمة الآن . وعلى غرار ذلك نرى أن جمعية الإخوان المسلمين فى مصر فى الفترة التى امتدت من أربعينيات القرن الماضى إلى منتصف خمسينياته كانت حركة تتمتع بقوة أيديولوجية أكبر كثيرًا مما تتمتع به الحركة اليوم ، وكلتا الحركتين تختلفان فى التنظيم والأهداف عما يسمى بالإخوان المسلمين فى سوريا اليوم .

لقد تحدثنا حتى الآن من وجهة نظر تعتبر الإسلام بصفة

أساسيـة ، وإن لم يكن ذلك بصفة حَـصْرية ، مذهبًا وعـقيدة ، فوجـدنا أننا قد دخلنا بالفعل مـجالاً زاخرًا بالتنوع والتـضارب . ووجدنا ، باخـتصار ، أن مـصطلحى "الإسلام" و"الإسلامى" لابد لمن يستعملها أن يحدد بطريقة ما **أى صورة** للإسلام يقصدها (بل **وأى فئة** من فئاته) ويزداد الأمـر تعقيدًا حين نضيف مـستوى ثالثًا لتـحليلنا ، ومن جديد وفقًا لرودنســون . ولكن الأفضل هو اقتطاف أقواله كاملة :

> يضم الإسلام مســتوى ثالثًا ، لا مناص من التمـييز بينه بالحـرص الواجـب وبين المسـتـويين الآخـــرين ، وهو المستـوى الذى يتضمن أســاليب تطبيق الأيديولوجـيات المختلفة فى حيـاة الناس ، والممارسات التى ارتبطت بها هذه الأيديولوجيات وأثّرت فيها حـتى وإن لم تستلهمها أصلاً . وكان كل نظام من النظم التى أدى إليها الإسلام فى العصور الوسطى يتـخذ صورة مختلفة عن صـاحبه فى الحياة الواقعـية ، ويمر بتغييرات داخليـة مختلفة عن غيره ، حتى عندمـا ظلت هذه النظم متطابقة من حيث الإحالات المرجـعية لهـا والنصوص التى تستند إليـها ، ومن المحال اختزال القضية هنا بحيث تنحصر فى مجرد التـضـاد بين المذاهب والنصـوص الخـاصـة باتجـاهات "المارقين" من ناحية ، والصورة "الصحيحة" للإسلام التى يعترف بها معظم المـسلمين من ناحية أخرى . ففى

سـياق الالتـزام بالنص ، هنا أو فى أى مـجال آخـر ، كثيـرًا ما يحدث أن تكون إعادة تفسيـر عبارة وردت فى نص مقـدس كافيـة لإحداث تغيـير 'وجودى' واتخاذ موقف النقـد أو موقف الثورة ، وقـد يظل هذا الموقف فرديًا وقد ينتشر بين الآخرين . وفى مقابل هذا ، كثيرًا ما يحـدث أنه ، مع مرور الزمـن ، تتحول الانـطلاقة الثـورية أو التـجـديدية إلى اكـتسـاب مـعنى المحـافظة والالتـزام والسلم. وبين أيدينا نماذج كـثـيـرة على هذا التحول ، ولنا أن نطلق عليه حقًا قانون الأيديولوجيات العـام . والمثـال السـاطع على ذلـك هو تطور المذهب الإسماعيلى . ففى العصور الوسطى دعا الإسماعيليون إلى انقـلاب ثورى فى النظام القـائم. وأمـا اليوم فـإن زعـمـاءه هـم الأغـاخـانات، أصـحـاب السطوة من المليونيـرات ، الذين ينحصر همهم فى التـمتع بأطايب الحياة فى صحـبة نجوم السينما والمشاهيـر، على نحو ما تنشره صحائف الفضائح عنهم دون كلل .

وأقول فى الختام إن النصوص المقدسة لا تتضمن أحكامًا صريحة . فـالواقع هو أن التقاليد الثـقافية بصفـة عامة (سواء كان ذلك فى صـيغها الصريحة ، أو فـيما تعلنه على الملأ ، أو فى نصوصـها المذهبـية ، أو فى المواقف التى تسـتلهم هذه النصـوص) تتـضمن جـوانب بالغـة

التنوع، وتسمح للمرء أن يبرر الأطروحات التى تتميز بأكبر قدر من التناقض فيما بينها(٥٨) .

هذا ، إذن ، هو النوع الثالث من التفسير ، ولكنه من المحال له أن يقوم دون النوعين الآخرين . لابد للإسلام من وجود القرآن الكريم ، وفى مقابل ذلك ، لابد للقرآن الكريم من مسلمين يقرأونه ويفسرونه ويترجمونه إلى مؤسسات وحقائق اجتماعية . وحتى حين يشتد الاتجاه إلى الأخذ بالتفسير الصحيح، على نحو ما نرى فى الإسلام السُّنى ، والسنة نفسها تعنى الصحة القائمة على الإجماع ، فما أيسر أن تنشأ القلاقل الثورية. فالصراع بين حكومة السادات فى مصر وبين ما يسمى بأحزاب المسلمين الأصولية ، يجرى فى ميدان "الصحة" المختلف عليها نفسها ، فالسادات والسلطات المسلمة **التابعة له** تزعم أنها تمثل السّنة ، ومعارضوه يقدمون حججًا قوية على أنهم هم أتباع السُّنّة الحقيقيون.

فإذا أضفنا إلى هذه المستويات الثلاثة للإسلام أعداد المسلمين الهائلة فى الماضى والحاضر والمستقبل ، والامتداد التاريخى الهائل "لانتشار الإسلام" (من القرن السابع حتى الوقت الحاضر) والظروف الجغرافية المذهلة التنوع للمجتمعات الإسلامية (من الصين إلى نيجيريا ، ومن إسبانيا إلى إندونيسيا ، ومن روسيا وأفغانستان إلى تونس) فسوف نتفهم فيما أرى ، الدلالات **السياسية** المترتبة على ما تفعله أجهزة الإعلام الغربية ، وكذلك

المحاولات الثقافية ، لإطلاق لفظ ''الإسلام'' على هذا جميعًا . وأرى أننا سوف ندرك أيضًا أن شتى المحاولات **الإسلامية** للرد أو الاستجابة إلى الظروف الإسلامية والغربية ، بكل ما تتسم به من تنوع وتناقض، ذات طابع سياسى لا يقل عن طابع هذه الدلالات، وأننا نستطيع أن نقوم بتحليلها هى الأخرى من حيث كونها صورًا للتحول والكفاح واستراتيجيات للتفسير(٥٩) . وسوف أحاول الآن أن أرسم الخطوط العريضة للصورة ، حتى أبيّن مدى التعقيد المذهل فيها ، وإن كان ينبغى لى فى البداية أن أقول إن **أكبر** مشكلة هى أن جانبًا كبيرًا مما يتصدى المرء لتقييمه يستعصى أساسًا على التوثيق .

إننا أبعد ما نكون عن إمكان القطع فى أمر وجود شىء نسميه ''تاريخًا إسلاميًا'' إلاّ باعتباره أسلوبًا بدائيًا للتمييز بين العالم الإسلامى وبين أوروبا ، مثلاً ، أو اليابان . وأما فيما عدا ذلك ، فالباحثون الإسلاميون والغربيون يختلفون حول ما إذا كان الإسلام قد ضرب جذوره فى بعض المناطق الجغرافية بسبب الظروف البيئية أو الهيكل الاقتصادى الاجتماعى ، أو العلاقة الخاصة بين أنساق الحياة المستقرة والبدوية . وأما عن فترات التاريخ الإسلامى ، فإنها على درجة من التعقيد لا تسمح بإلصاق الطابع '' الإسلامى'' البسيط بها. فما هى أوجه التشابه بين الدول العلوية ، والعثمانية، والصفوية ، والأوزبكية ، والمغولية (والتى تمثل النظم السياسية الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، حتى القرن العشرين ، فى الهند

وتركيا والشرق الأدنى والشرق الأوسط) وبين الدول الإسلامية الحديثة ؟ كيف نستطيع تفسير الفرق بين (أو حتى أصول) ما يسمى بالشريحة الإيرانية التركية والشريحة التركية العربية فى البقاع الإسلامية ؟ وباختصار ، كما يبين ألبرت حورانى ذلك بوضوح ، فإن مشكلات التعريف ، والتفسير ، وتحديد الطابع ، فى إطار الإسلام نفسه ، مشكلات هائلة ترغم الباحثين الغربيين (ناهيك بغير الباحثين الغربيين) على التمهّل . وهاك ما يقوله :

> الواضح إذن أن بعض الكلمات مثل 'التاريخ الإسلامى' لا تفيد المعنى نفسه فى السياقات المختلفة ، وأنها لا تكفى فى ذاتها لإيضاح كل ما هو موجود ، فى أى سياق من السياقات . والواقع ، بتعبير آخر ، أن "الإسلام" والكلمات المشتقة من هذا اللفظ تمثل "أنماطًا مثالية" لا مناص من توخى الحرص فى استعمالها ، إلى جانب عدد لا يحصى من التحفظات والتكييفات للمعنى، ولابد من اقترانها بأنماط مثالية أخرى ، إذا كنا نريد لها أن تقوم بوظيفتها باعتبارها مبادئ للتفسير التاريخى . ويتغير مدى إمكان استعمالها تبعًا لنمط التاريخ الذى نكتبه . فهى أقل ما يصلح للتاريخ الاقتصادى ؛ وعلى نحو ما بين رودنسون فى كتابه **الإسلام والرأسمالية** لا يمكن تفسير الحياة الاقتصادية للمجتمعات التى يسود فيها الإسلام تفسيرًا يقوم على

العقائد أو الشرائع الدينية فى المقام الأول . فعلى الرغم من تأثير الشريعة الإسلامية فى الأشكال التجارية ، نجد أن ألوانًا أخرى من التفسير أقرب إلى الواقع ، وعلى نحو ما يقول كاهين وآخرون ، نجد أن بعض المفاهيم الأخرى ، مثل مفهوم مجتمع "الشرق الأدنى" أو مجتمعات "البحر المتوسط" أو "العصور الوسطى" أو "ما قبل العصر الصناعى" أكبر نفعًا من مفهوم المجتمع الإسلامى . فقد يستطيع الإسلام أن يقدم بعض التفسيرات للتاريخ السياسى الاجتماعى ، لكنه لا يقدم جميع التفسيرات المطلوبة ، إذ لا يمكن تفسير المؤسسات والسياسات القائمة حتى فى أشد الدول حماسًا "للإسلام" دون أن نأخذ فى اعتبارنا الموقع الجغرافى ، والحاجات الاقتصادية ، ومصالح الأسر الحاكمة والحكام. بل إن تاريخ المؤسسات التى تقوم ، فيما يبدو ، على أساس الشريعة الإسلامية لا يمكن تفسيره من جميع جوانبه فى هذا الإطار وحده ، إذ إن مفهومًا مثل مفهوم "الرّق" سوف يتلاشى إذا أنعم المرء النظر فيه ، وعلى نحو ما بين ميليوت فى فحصه لكتابات 'العمل' التراثية فى المغرب الأقصى ، دائمًا ما توافرت الأساليب اللازمة لإدراج العادات المحلية فى الشريعة الإسلامية عند تطبيقها عمليًا . ولا يمكننا أن نفسر إلا

بعض أنواع التاريخ الفكرى ، على الأقل فى الفترة التى سبقت العصر الحديث ، فى إطار المفاهيم الإسلامية أساسًا ، باعتبارها عملية تحوّل ، إذ تسربت أفكار خارجية فاختلطت بالأفكار المولّدة من رحم الإسلام نفسه ، فشكلت نظامًا يحافظ على نفسه ويطور نفسه ؛ بل لابد من النظر إلى فلاسفة المسلمين لا باعتبارهم فلاسفة يونانيين يرتدون ملابس عربية ، بل باعتبارهم مسلمين يستخدمون مفاهيم الفلسفة اليونانية ومناهجها فى تقديم تفسيرهم الخاص للعقيدة الإسلامية(٦٠) .

فإذا ضربنا فى شعاب أخرى لم نجد عند علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) إجابة لسؤالنا عما إذا كان قد وجد إنسان ينتمى علميًا إلى 'الجنس الإسلامى' ، أو إذا كان لمثل هذا النمط قيمة تحليلية أو معرفية على الإطلاق . إن معلوماتنا عن توزيع السلطة فى المجتمعات الإسلامية أقل كثيرًا مما نحتاج إلى الإحاطة به ، بسبب كثرة هذه المجتمعات واختلافها الشديد على امتداد التاريخ والمواقع الجغرافية ، وهى القلة التى تمنعنا من البت فى أسلوب تقييم العلاقة ما بين المدونات الفقهية الإسلامية وبين تنفيذها فى الواقع ، أو بين مفاهيم الحكم وبين تطبيقها أو تحولاتها أو استمرارها . ولا نستطيع القطع بأى درجة من درجات اليقين ، مثلاً ، فيما إذا كانت بعض المجتمعات الإسلامية ، أو إذا كانت كلها أو كان أىٌّ منها قد غيّر أسس السلطة فيه فأحل مفاهيم

المذاهب القانونية محلّ المفاهيم المقدسة. ولننظر إلى عوامل اللغة، والهياكل الجمالية، وسوسيولوجيات الذوق، ومشكلات الشعائر، وعوامل الحيّز المدنى، والتحولات السكانية، وثورات الأحاسيس والمشاعر: إنها جميعًا من العوامل المتصلة بالسياقات المختلفة والتى لم يشرع فى دراستها عدد يُذكر من الباحثين المسلمين أو غير المسلمين. هل يوجد شىء حقا يسمى السلوك السياسى الإسلامى؟ كيف تتكون الطبقات وتتشكل فى مجتمعات المسلمين، وكيف تختلف هذه عن نظائرها فى أوروبا؟ وما هى المفاهيم وأدوات البحث والأطر التنظيمية والوثائق التى نستطيع بها رصد أفضل مؤشرات الحياة اليومية للمسلم بصفة عامة؟ وهل يفيدنا استعمال مصطلح "الإسلام" فى نهاية المطاف باعتباره فكرة، أم تراه يخفى أكثر مما يقول فى الواقع أو يشوهه أو يحرفه أو يضفى عليه دلالات أيديولوجية أوسع؟ وقبل كل شىء، ما مدى تأثير موقع الشخص الذى يطرح أيا من هذه الأسئلة أو يطرحها كلها فى الإجابات عليها؟ كيف يختلف موقف عالم الدين المسلم الذى يطرح هذه الأسئلة فى إيران، وفى مصر، وفى المملكة العربية السعودية عن موقفه منذ عشر سنوات؟ وما العلاقة بين هذه الأقوال وبين الأسئلة التى يطرحها المستشرق السوفييتى، أو المتخصص فى الدراسات العربية بوزارة الخارجية الفرنسية أو عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى فى جامعة شيكاغو؟

وفى مجال السياسة نجد أن الاستجابة الإسلامية أو الرد

الإسلامى الموحد الذى ظهـر أخيرًا لا يقل فى " تشييئه" للأمر ، ولا يقل فى اعتلاله ، وفى كونه ستـارًا يخفى العديد من العناصر التى تتسم بالتناقض المدمر ، عن استعمال مصطلح "الإسلام" فى الغرب . ففى كل حالة تقريبًا نجـد أن الدولة فى المنطقة الإسلامية الوسطى (التى تمتد من شمـالىّ إفريقيا إلى جنوبىّ آسيـا) تعبّر عن ذاتها واعيـةً بعبارات إسلامـية . وهذه حقيقـة سياسيـة مثلما هى حقيقة ثقافية، ولم يبـدأ إدراكها فى الغرب إلا منذ عهد قريب[٦١].
فالمملكة العربية الـسعودية ، مثلاً (على نحو ما يدل عليـه اسمها) هى دولة البـيت الملكى لآل سعـود وهو الذى أدى انتصـاره على القـبائل الرئيـسيـة فى المنطقة إلى نشـأة الدولة . وما تقـوله هذه الأسرة ومـا تفعله باسم الدولة وبـاسم الإسلام يعبـر عن سلطان الأسرة ، بالإضـافة إلى مـا شهدته باعـتبارها عـضوًا من أعـضاء المجتمع الدولى، ومـا كسبته هى نفـسها من سلطة وشرعية كـبيرة فيما يتعلق بالشعب فيها . ويمكن ترديد أقوال مماثلة عن الأردن ، وعن العـراق ، وعن الكويت ، وعن سـوريا ، وعن إيران قـبل الثورة ، وعن باكستان ، باسـتثناء واحد وهو أن حكم الأقلية فى جميع هذه الحالات ليس فى يد أسرة واحدة . ولكن الصحيح أن أقلية نسبية - سواء كانت طائفة دينية ، أو حزبًا واحدًا ، أو أسرة ، أو تجمعًا إقليـميًا - هى التى تهيمن على الآخرين جـميعًا باسم الدولة وباسم الإسـلام ، ويسـتـثنى مـن ذلك لبنان وإسـرائيل ، فكلاهما تنتـمى إلى العالم الإسلامى جغرافـيًا ، ولكن الحكم فى

أيدى أقلية مسيحية فى إحداهما ، وفى أيدى أقلية يهودية فى الأخرى ، ومع ذلك فكل منهما تعبر عن جانب كبير من هيمنتها تعبيرًا دينيًا .

ولقد أحست جميع هذه الدول إلى حد كبير ، كل منها بأسلوبه الخاص ، بأنها ترد على تهديدات خارجية ، ولجأت من ثم إلى الدين أو التقاليد الوطنية ، على الترتيب ، فاتخذت بذلك صورة رد الفعل على هذه التهديدات . ولكن كل دولة منها - وهذا هو جوهر الموضوع - تواجه معضلة عسيرة الحل إلى حد مذهل . فمن ناحية معينة نرى أن هيكل الدولة لا يستجيب استجابة كاملة للتعددية فى القوميات والأديان والطوائف القائمة فى كل منها . وهكذا نجد فى المملكة السعودية أن قبائل أو عشائر مختلفة قد تشعر بالضيق لوجود دولة تقول إنها دولة العرب التابعة لعشيرة آل سعود . ونجد فى إيران كذلك ، وحتى يومنا هذا ، أن هيكل الدولة لا يتيح مكانًا لأبناء أذربيجان ، وبلوخستان ، وللأكراد وللعرب وللآخرين الذين يشعرون بأن هويتهم العرقية الخاصة معرضة للخطر نتيجة ذلك . ونرى التوتر نفسه ، وعلى جبهة أعرض ، وهو يتكرر فى سوريا ، والأردن ، والعراق ، ولبنان ، وإسرائيل . ومن ناحية أخرى نرى أن السلطة المهيمنة فى كل من هذه الدول قد استخدمت أيديولوجية وطنية أو دينية للإيحاء بمظهر الوحدة فى مواجهة ما ترى أنه يمثل تهديدات خارجية . وهذا ، بوضوح ، هو الحال فى المملكة العربية

السعـودية ، حيث يمثل الإســلام التيـار الأيديولوجى الذى يتمـيز بالسعة والمشروعية الكافية لضم صفوف الشعب تحت لوائه . وهكذا غدا "الإسلام" فى المملكة العربية السعودية وفى إيران قبل الثورة معادلاً للأمن القومى . ولما كانت هذه الهيــاكل السياسية تتفق مع الأنماط الغـربية للإســلام ، فقـد أصبـحت تتـعرض للمـزيد من الضغوط الخارجية والداخلية .

وهكذا فإن "العودة إلى الإسلام" أبعد ما تكـون عن الحركة الموحَّدة أو حتى الحـركة ذات المعنى المتسق ، بل إنها تجسـيد لعدد من حقـائق الواقع السـياسيـة . فهى فى عـينى الولايات المتـحدة صورة انفصـام لابد من مقاومتـه فى بعض الأحيان وتشجـيعه فى أحيـان أخرى . فنـحن نتـحدث عن المسـلمين السُّنِّيين المعـادين للشيوعية ، وعن المسلمين المتمردين البواسل فى أفغانستان ، وعن المسلمين "المعتـدلين" مـثل السادات ، ومـثل الأسـرة السعـودية الحاكـمة ، ومـثل ضيـاء الحق . ومع ذلك فنحن ننتقـد المسلمين المناوئين من أتباع الخومـينى ، والطريق الإسلامى "الثالث" الذى ينادى به القذافى ، كـما ننزع فى افـتتاننا المريض بإقـامة "الحدود الإسلامية" (أى العقوبات الشرعية) مثل الحدود التى أمر بإقامتها خلكالى فى إيران ، إلى تضخيم سطوتها كأنما يتخذها الحكام أداة لاستـمرار سلطانهم . ولننـظر إلى الإخوان المسلمين فى مـصر ، وإلى المناوئين الإســلامـيين فى المملكة العـربيـة السـعـودية الذين استـولوا على مـسجد المديـنة المنورة ، وإلى جمـعيـات الإخوان

المسلمين والطلائع الإسلامية التى تعارض حزب البعث الحاكم فى سوريا ، وإلى المجاهدين فى إيران ، وكذلك إلى الفدائيين ودعاة التحرير : إنهم يمثلون جميعًا جانبًا صغيرًا مما يمثل تيارًا معارضًا يجرى فى أرجاء الأمة ، وإن كنا لا نعلم إلا أقل القليل عنه . أضف إلى ذلك أن شتى القوميات التى ينتمى إليها المسلمون الذين حرموا من هوياتهم فى شتى الدول التى تخلصت من الاستعمار ترفع أصواتها فى طلب الإسلام الذى تدين به . وتحت هذا كله - فى المدارس والمساجد والنوادى وجمعيات الإخوان والنقابات والأحزاب والجامعات والحركات والقرى والمراكز الحضرية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى - تعلو أمواج المزيد من أنواع النزعات الإسلامية ، والتى يزعم عدد كبير منها أنها تهدى أعضاءها حتى يعودوا إلى "الإسلام الحقيقى" [٦٢] .

ولا يحيط أبناء الغرب الذين تطالبهم أجهزة الإعلام ويطالبهم المتحدثون بلسان الحكومات بالنظر فى "الإسلام" إلا بقدر بالغ الضآلة من هذه الطاقات المنوعة لدى المسلمين . وأما أخطر أنواع سوء التصوير فنراها حين يُطلب إلى الناس النظر فى " عودة ظهور" الإسلام[٦٣] . فأما المستمسكون به فدائما ما كانت صورته تتميز ، قطعًا ، فى أذهانهم وقلوبهم ، بالانتعاش ، والحيوية ، والثراء الفكرى والشعورى والإنتاج الإنسانى . ودائمًا ما كانت "الرؤية الإسلامية" (إذا استعرنا التعبير المفيد الذى أتى به الباحث و. مونتجومرى واط[٦٤]) تثير فى تفكير المؤمنين معضلات خلاقة.

مـا العدالة ؟ ومـا الشـر ؟ متى ينـبغى الاسـتناد إلى النقل طلبًـا للصـحيـح والمأثور ؟ ومتى يجـوز الاجـتـهاد (الرأى الفـردى) ؟ وتتكاثر الأسئلة ويقوم العاملون بعملهم - ومع ذلك فنحن لا نكاد نرى أو نسمع فى الغـرب شيئًا عـنه . والواقع أن جانبًا كبـيرًا من الحياة الإسلامية غير مرتبط بالنصوص ولا مقصور على شخصيات بعينها أو على هياكل واضحة حتى لقد أصبح مصطلح "الإسلام" ، الذى زاد استعمـــاله عما ينبغى ، دليلاً لا يعتـمد عليه إلى ما نحاول أن نفهمه.

ومع ذلك فـإن النزاع بين " الإسلام" و" الغرب" نزاعٌ جدٌ حقيـقى. ونحن نتناسى أن كل حرب من الحروب يسـتخدم فيـها صفّان مـتقابلان من الخنادق ، وصفّان مـن المتاريس ، وآلتان من آلات الحرب . وعـلى نحو مـا أدت الحرب مع الإسـلام ، فيـما يبدو، إلى توحيد العرب حول معارضة قوة الإسلام ، أدت الحرب مع الغرب إلى توحيد الكثير من القطاعات فى العالم الإسلامى . فإذا كان الإسـلام من العوامل الحديثـة العهد نسبيًّا فى الولايات المتحدة ، فلقـد بدا للكثير من المسلمين أن الولايات المتـحدة جزء من الغرب ، وهو ما جعلها ، من ثم ، من الظواهر التى كثيرًا ما نوقشت فى العديد من الدوائر الإسلامية على امتداد عقود طويلة. وأعتقد أن الكثير من الباحثين الغـربيين فى الثقافة الإسلامية يميلون إلى تضخـيم تأثير " الغرب" فى الفكر الإسلامـى فى المائتى عام الأخـيرة ، وهم يفـترضـون خطأ من " الغرب" و" التحـديث"

يشـغلان بؤرة الـوعى الإسلامى منذ عـهـد بعـيد ، من المحـيط الأطلسى إلى الخليج الـعربى . ولكن هذا غـيـر صحـيح ، لأن المجتمعـات الإسلامية ، شأنها فى ذلك شـأن غيرها ، تركز على بعض الأشياء أحيانًا ، وعلى سواها فى أحيان أخرى . ولكن من الصحيح أن ''الغرب'' كان موضـوعًا شغل مئات الصـفحات من المجادلات والدراسـات والتفسيـرات الأصيلة ، إلى جانب توفـير شتى المشروعات والمهام للعديد من الشـخصيات العامة والأحزاب والحـركات فى العـالم الإسـلامى(٦٥) ، ولكنه من الخطأ ومظاهر الغرور أن نتصور أن العالم الإسلامى كله لم ينشغل إلا بهذا الذى لا يعدو أن يكون ، فى نهاية المطاف ، من الشئون الخارجية .

ومما له أهميـته البالـغة أيضًا أن نتـذكر أن إحدى الخـصائص العظمى للثقـافة الإسلامـية تتمـثل فى ثراء طاقتهـا على التفسـير وحذقها الشاسع فى هذا المجـال . ربما يكون صحيحًا أن الإسلام قد خلّف تراثًا بالغ الروعة والإبهار فى الفنون الجـمالية البصرية ، ولكن الأهم من ذلك ، وما لا يقل عنه صـحة ، هو أن الإسلام لا تكاد تجاريه حضارة أخرى فى تشجيع فنون التفسير اللفظى على مثل هذا النطاق الواسع . فلقـد بُنيت مؤسسـات كامـلة ، وتقاليد قائـمة برأسـها ، ومـدارس فكرية مسـتقلة ، من بعض مـذاهب الشرح والتعلـيق ، والنظريات اللغوية ، والإبداعات التفـسيرية . وليس معنى هذا أن التقاليد الدينية الأخرى تخلو من ذلك ، فهى لا تخلو منهـا ، ولكن علينـا أن نتذكـر أن الخـبـرات الشفـاهيـة

واللفظيـة فى الإسلام قـد نمت وتطورت دون منافسـة تباريـها أو تضارعها ، وامتد نطاقها ليصبح أشمل وأكثر تخصصًا من سواه . ولا غرو إذن أن يطلق الدستـور الإيرانى الجديد على الفقيـه صفة مرشد الأمة، فليس الفقيه هو الفيلسوف الملك الذى تتصوره أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، بل هو - حرفيًا - أستاذ الفقه ، أى أستاذ علوم التفسيـر للشريعة الإسلامية ، أو هو ، بتعبـير آخر ، قارئ عظيم .

ومما يدعو للأسى أن المجتمع الإسلامى القائم على ما أخذ به من تفسـير ، والمجتمع الغـربى أو الأمريكى الذى شكلته أجـهزة الإعلام فى المقام الأول ، يراهنان بجانب كبـير من طاقاتهما على نقطة الخلاف الضيقة والمواجهة بينهما ، وفى غمار ذلك يتجاهلان كل ما يتصل بتلك المواجهة . ولما كنا على أتم استعداد لتصديق ما يقال عن المسلمين الذين يعارضـون أمريكا "الشيطـانية" ، فمن المجدى أن نلتفت إلى حـقيقة ما حـدث فى الواقع . فإذا كان من المؤكد أن السيطرة على "الأخبار" و"الصـور" فـى الغرب ليسـت فى أيدى المسلمين ، فمن المؤكد أيضًا أن تأخر المسلمين الشامل فى تفهم أسبـاب تبعيتـهم هو الذى يمنعهم من اتخاذ إجـراء ما بشأن ذلك . ولا تستطيع الدول الغنية بالنفط من جانبها أن تشكو نقص الموارد . إذ لا ينقص حقًا إلا بعض قرار سياسى متكاتف بدخول العالم دخولاً جادًا ، وهو النقص الذى يثبت أن الدول الإسلامية أبعد ما تكون عن تشكيل جبهة موحدة ، فهى لم تحتشد لذلك بل

ولم تتماسك سياسيًا حتى الآن . فعليها أولاً تشجيع العديد من المواهب المتوافرة ، وليس أقلها شأنا طاقتها على رسم صورة واضحة قوية واعية لذاتها ، ولكن هذا معناه إجراء تقييم جاد للقيم الإيجابية التى يمثلها المسلمون (أى عدم الاقتصار على الدفاع وردود الأفعال) . ولقد دارت ولا تزال تدور مناظرة كبرى حول هذا الموضوع فى العالم الإسلامى ، وهى عادة ما تتخذ صورة مناقشات للتراث (والمقصود هو التراث الإسلامى دون غيره)[٦٦] :
وقد آن أوان نقل ما انتهت إليه من نتائج وما بحثته من قضايا إلى سائر أقطار العالم . لم تعد أمامنا ذريعة تبرر النحيب على عداء "الغرب" للعرب والإسلام ثم القعود عن العمل والإحساس بغضبة صاحب الحق المظلوم . فإذا أقدم المسلمون على تحليل أسباب هذا العداء ، دون خوف ، وكذلك تحليل تلك العوامل التى تشجعه فى "الغرب" ، فلسوف يتخذون خطوة مهمة على طريق تغيير الموقف ، ولكن الخطوة لا تشمل الطريق كله : إذ لابد من إحلال شىء ما محله حتى لا تكون النتيجة موجة جديدة من الدعاية المعادية للإسلام . ولا شك أن المسلمين يواجهون اليوم خطرًا بالغًا يتمثل فى فعل ما قد يثبت صحة الصورة السائدة المعادية للإسلام ، وإن كان ذلك حتى الآن مقصورًا على **بعض** المسلمين ، و**بعض** العرب ، و**بعض** السود من أبناء إفريقيا .
ولكن هذه الأفعال التى تثبت صحة الصورة تؤكد أهمية ما لم يفعله المسلمون حتى الآن ، وما عليهم أن يفعلوه .

أعتقد أن عددًا كبيرًا من البلدان الإسلامية ، فى غمرة اندفاعها نحو التصنيع والتحديث والتنمية ، قد استجابت ، وبدرجة أكبر مما ينبغى أحيانًا ، لإغراء التحول إلى أسواق استهلاكية . وأما دحض أساطير الاستشراق وصوره النمطية فيقتضى من أجهزة الإعلام ومن المسلمين أنفسهم أن يتيحوا الفرصة للعالم كله لرؤية المسلمين وأبناء الشرق وقد أصبحوا منتجين (لا مستهلكين فقط) . والأهم من ذلك أن ينشروا صورة مختلفة للتاريخ ، ونوعًا جديدًا من علم الاجتماع ، ووعيًا ثقافيًا جديدًا : وباختصار ، لابد للمسلمين أن يؤكدوا الهدف من أن يعيشوا فى كنف شكل جديد للتاريخ ، باستكشاف ما يطلق عليه مارشال هودجسون "العالم الإسلامى المركب"(٦٧) ومجتمعاته الكثيرة المتنوعة ، وأن يتسلحوا فى سبيل ذلك بجدّيّة الغرض ، وبالعجلة والإلحاح اللازم لإبلاغ النتائج إلى خارج العالم الإسلامى. ولقد كان ذلك قطعًا ما قصد إليه على شريعتى فى حديثه للمسلمين الإيرانيين عندما أضفى الطابع العالمى على هجرة النبى محمد ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة ، فجعلها تنطبق على وضع الإنسان ذاته باعتباره "اختيارًا ، وكفاحًا ، وصيرورة متواصلة. إنه هجرة لا نهائية، هجرة داخل نفسه، من الصلصال إلى الإله ؛ إنه مهاجر داخل روحه نفسها" (٦٨) .

كانت أمثال هذه الأفكار التى أتى بها شريعتى تغذو الثورة الإيرانية فى مراحلها الأولى ، وهى التى وضعت نهاية حاسمة

للافتراض القديم الذى جمـدت عليه أذهان البعض ، أى افتراض أن المسلمين عاجزون بصفة أساسية عن القـيام بثورة حقيقية أو عن تحرير أنفسهم من أغلال الطغيان والظلم . وكان مما ازدادت أهميته حتى عن ذلك أن الثورة الإيرانية أثبتت فى مراحلها الأولى ، على نحو ما كان يقول به شريعتى دائمًا ، أن على المسلم أن يجعل من الإسلام فى أعماقه تحديًا وجوديًّا يهبه القوة ، لا استسلامًا سلبيًّا للسلطة ، بشـرية كـانت أم إلهيـة . ففى الدنـيا التى تفـتقـر إلى "المعايير الثابتة" ، ولا يصح فيها إلا الأمر الإلهى "بالهجرة" من الصلصـال إلى الإله ، يكون علـى المسلم ، حسبـمـا يقـول به شريعتى ، أن يشق لنفسه طريقًا خاصًّا به وحده . بل إن المجتمع البشرى نفسه هجره ، أو تأرجحٌ ما بين "قطب قابيل" (الحاكم ، الملك ، الأرستـوقراطية : أى السلطة المركزة فى يدى فـرد واحد) وبين "قطب هابيل" (طبقة العـوام أو ما يطلق عليه القرآن تعـبير **الناس** : الديموقراطية ، الذاتية، التواصل الاجتماعى)[١٩]. وكانت تعاليم الخـومينى الأولى على نفس المستوى من الـقوة ، وإن كان يقل مرونة عن شـريعتى فوصف مـحنة المسلم بأنه قد كـتب عليه دومًا ، أن يواجه الاختيار بـين الحلال والحرام (أو الخير والشر) . ومن ثم كانت دعوته إلى إقامة جمهورية "إسلامية" وكان يقصد بهـا ترسيخ أسس الخـيـر وإنقاذ المسـتضـعـفين (أو المظلومين) مما يكابدونه .

ولقد أدت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال ، إلى قلقلة رهيبة فى

إيران ، ولكن الثورة الإسلامية لم تجتذب فى الغرب أى تعاطف. بل لقد واجهت الأحداث الإيرانية ، حتى فى الأقطار الإسلامية ، الخوف من طاقتها ، ومن حماسها ، وتعصبها الدينى المؤدى إلى التمزق ، والذى يشبه تعصب المؤمنين بعودة العصر الذهبى . وهكذا نرى فى العالم الإسلامى اليوم انقسامًا عريضًا بين تيارين، الأول يمثل الآراء ' الصحيحة' الرسمية للحياة الإسلامية والثانى يعارضه ويتخذ أشكالاً كثيرة متفاوتة ، ولنقل إنه ''إسلام ضد ثقافى'' ، وكانت الثورة الإيرانية من صور التعبير الرائدة عنه[٧٠]. والمفارقة هى أن الآراء الغربية فى الإسلام تفضل أن تربط بين ''الإسلام'' وبين ما يعارضه كثير من المسلمين أنفسهم فى الوقت الراهن ، ألا وهو الحدود ، والتسلط ، وأساليب المنطق القروسطى، وحكم رجال الدين .

ثالثًا: حادثة الأميرة فى سياقها:

لا تزال صورة الإسلام فى أعيننا تتعرض لما يسلبها القوة ، حتمًا ، وأقصد بذلك قدرتنا على تمثيل الإسلام فى الصورة التى تناسب أغراضنا ، وقد تقوم دولة أو حكومة أو جماعة بالاستجابة لنا فتختزل الإسلام حتى يتفق مع مناسبة من المناسبات ، وتقدم لنا صورة أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقى، وهكذا نجد أن التلاقى بين الجانبين - "نحن" و"هم" - لا يضفى الشرف السابغ على أيهما . والأهم من ذلك أن هذه الصورة تخفى فى تغطيتها الإعلامية أكثر مما تكشف عنه صراحة . ولسوف أضرب المثال لما أعنيه بحادثة أتولى تحليلها بعد أن كثر فيها القيل والقال .

فى يوم ١٢ مايو ١٩٨٠ عرضت محطة "هيئة الإذاعة العامة" فيلمًا بعنوان **"موت أميرة"** أخرجه مخرج سينمائى بريطانى يدعى أنطونى توماس . وقبل ذلك بشهر ، كان الفيلم قد تسبب فى أزمة دبلوماسية بين المملكة المتحدة والمملكة العربية السعودية ، أدت إلى سحب السفير السعودى من لندن ، ومقاطعة السياح السعوديين لانجلترا، والتهديد بفرض المزيد من العقوبات. ولماذا ؟ لأن الفيلم فى نظر السعوديين يمثل إهانة للإسلام ، ويقدم صورة خاطئة للمجتمع العربى بصفة عامة وللعدالة السعودية بصفة خاصة . ويقوم الفيلم على حادثة ذائعة ، وهى حادثة إعدام إحدى الأميرات مع عاشق لها من أبناء الشعب ، ويتخذ شكل الدراما الوثائقية (التسجيلية) التى يبحث فيها أحد الصحفيين عن

الحقيـقة . فالصحـفى البريطانى يحاول أن يعرف مـا حدث على وجه الدقة للعـاشقين ، ويسافر فى سبـيل ذلك إلى بيروت حيث يتحدث مع اللبنانيين والفلسطينيين ، ثم يسـافر إلى المملكة العربية السعودية حيث يتعرض ، بطبيـعة الحال ، للمماطلة والمراوغة من جانب المسـئولين . وفى غـمار ذلك لا يخرج إلا بنـتيجـة واحدة وهى أن الذين قابلهم وتحدث معهم يفسرون قصة الأميرة باعتبارها رمزًا لمعـضلاتهم السيـاسية والأخـلاقية . فالفـلسطينيون يرون أن الأميرة، مثلهم ، منبوذة تسعى للحرية والتـعبير عن نفسها سياسيًا . ويرى بعض اللبنانيين فـيها نموذجًا للصـراع فيمـا بين العرب ، وهو الذى أدى إلى تمزيق لبنان . ويرى المسـئولون السـعوديون أن القضيـة لا تخص أحدًا سواهم ، ويقولون إن الغربيين لم يهـتموا بهـا إلا لأنها تسئ إلى النظام الحـاكم . وأخيـرًا تقول حـفنة من المطلّعين على الخبايا إن محنتـها توجه الاتهام لنفاق ذلك النظام ، الذى يستغل ''الإسلام'' وقانون القـصاص الإسـلامى فى التكتّم والتسـتّر على فساد الأسـرة المالكة . وأما نهاية الفيلم فـهى نهاية مفتوحة ، فكل تفسير من هذه التفسيرات يتضمن قدرًا من الحقيقة ، ولكن أيًا منها لا يكفى فى ذاته لإيضاح ما حدث فى الواقع .

وفى الولايات المتحدة أعلنت الحكومة السعودية عن معارضتها لعرض الفـيلم ، وقد أدى ذلك إلى بعض النتائج التى لم يقـبلها الجمـهور ، من بينهـا أن وارين كريستـوفر ، من وزارة الخارجـية الأمريكية ، لفت نظر المحطة التليفزيونيـة المذكورة علنًا إلى استياء

المملكة العربية السعودية ، ومنها أن شركة إكس كون للنفط نشرت إعلانات فى الصحف الكبرى تدعو المحطة فيها إلى " مراجعة" قرارها . وقد ألغت المحطة عرض الفيلم فى عدة مدن، كما قامت، إقرارًا منها بطبيعة الفيلم الخلافية ، بإذاعة مناقشة تحليلية استمرت ستين دقيقة عقب عرض الفيلم مباشرة ، شارك فيها ستة من المتحدثين إلى جانب رئيس الجلسة ، وكان أحدهم مندوب الجامعة العربية ، والثانى أستاذًا للقانون فى جامعة هارفارد ، والثالث رجل من رجال الدين الإسلامى يقيم فى منطقة بوسطن ، والرابع أمريكى شاب قيل إنه متخصص فى الدراسات العربية (وكانت تلك تسمية غريبة ، نظرًا لأنه لم يكن أكاديميًا ولا مسئولاً حكوميًا) إلى جانب امرأة فى مقتبل العمر تتمتع بخبرة فى مجال التجارة والصحافة فى الشرق ، وأخيرًا صحفى بريطانى التزم بالأمانة فى إبداء كراهيته لما يجرى فى المملكة العربية السعودية . واشترك هؤلاء الستة فى تقديم ساعة كاملة من الكلام الذى كان يفتقر ، دون مبالغة ، إلى الترابط . فالذين كانوا يعرفون شيئًا عن المنطقة كانوا كثيرًا ما يلتزمون بسبب مناصبهم بموقف الدفاع الرسمى الذى يلتزم به "المسلمون". و ىذين لا يعرفون إلا القليل، أثبتوا ذلك ، بطبيعة الحال ، والباقون كانوا، إلى حد ما، يقولون كلامًا لا صلة له بالموضوع .

وكانت الضغوط المبذولة لمنع عرض الفيلم تستند مُحقّةً إلى مسائل تتعلق بالتعديل الأول للدستور الأمريكى ، وأعتقد أنه كان

ينبغى عرضــه . وأما أهم المسائل التى لم يفصح عنهـا أحد بشأن الفيلم (وهو فى رأيى عمل تافه إذا قـيس بمقاييس الفن السينمائى) فهى ما يلى : (أ) أن الذى صنع الفيلم **ليس** مسلمًا ، و(ب) من الراجح أن يكون الفيـلم الوحيد الذى يُحـتمل أن يشاهده المتـفرج العادى ، فإن لـم يكن الوحيد فهـو بالتأكيد أشد الأفـلام تأثيرًا ، و(ج) أن المناقشـات التى دارت حول الفيلم ، سـواء فى البرنامج التحليلى الذى أعقبه أو فى أى مناسبة أخرى ، كان من أندر النادر أن تتعرض لقضايا السياق ، والسلطة ، والتمثيل . فلقد تمتع عمل توماس ، كما هو واضح ، بقوة الجاذبية ''الجاهزة'' التى لا يتمتع بها فـيلم عن اليمن ، مـثلاً ، إذ إن الجنس ، والحـدود الشرعـية ''الإسلامية'' (وخصوصًا تلك التـى تؤكد أسوأ ما نرتاب ''نحن'' فـيه بشـأن همجـيـة المسلمين) إذا تَزَيَّتْ بأزياء الدرامـا الوثائقيـة (التسـجيلية) قادرة على اجـتذاب جمهـور واسع من المشاهدين .

وقالت مـجلة **ذا إيكونوميست** فى إبريل ١٩٨٠ : '' الشريـعة الإسـلاميـة لا تعنى عند مـعظم الغـربيين إلا الحـدود الشـرعيـة الإسلامية ، وهذه أسطورة مبسطة قـد يكون الفيلم قد دعمها'' .

وازداد اتسـاع نطاق الجـمهـور عندمـا تسـرب نبأ لجـوء الحكومـة السعودية إلى استخدام نفوذها فى الكواليس لمنع عرضه (وكان من بين من استعانت به أيضًـا شركة إكس كون) . وقد أدى ذلك كله إلى تأكيد أن فيلم ''**موت أميرة**'' **ليس** فيلمًا من صنع المسلمين ، بل فـيلم لم يكن للمـسلمين مـا يقـولونه بشـأنه إلا مـا هو جـد محدود، وكريه نسبيًا ، ولا تأثير له على الإطلاق .

ولابد أن منتجى الفيلم والمحطة التى عرضته كانوا يدركون ، شأنهم فى ذلك شأن أىّ مسلم أو فرد من أفراد العالم الثالث ، أنه مهما يكن مضمون الفيلم، فإن القدرة على إنتاجه أو صناعته، أىْ مجرد عرض المشاهد المتوالية فى صور ، كان مزيّة ترجع إلى ما سبق لى أن أطلقت عليه القوة أو السلطة الثقافية ، وهى فى هذه الحال القوة أو السلطة الثقافية للغرب(٧١) . كان امتلاك السعوديين للمزيد من المال ، ببساطة ، أمرًا لا صلة له بالقضية : فإن إنتاج الأنباء والصور فعليًّا وتوزيعها - عمليًّا - أقوى من المال لأنها تمثل القوة أو النظام الذى يُعْتَدُّ به فى الغرب أكثر من مجرد رأس المال. وفى مقابل هذا النظام ، كانت الاعتراضات السعودية على الفيلم باعتباره مهينًا للإسلام تمثل بدورها محاولة لحشد قوى نظام تمثيلى أو رمزى أضعف ، أى صورة النظام الحاكم لنفسه باعتباره المدافع عن الإسلام ، ابتغاء 'تحييد' ما يطلق عليه الصورة الغربية للإسلام (بمعنى إلغاء تأثيرها) .

وأحرز النظام الغربى انتصارًا آخر فى المناقشة التحليلية التى أذاعتها المحطة التليفزيونية المذكورة ، إذ استطاعت - من ناحية - أن تزعم صادقة أنها قد استجابت لاستياء السعوديين بإتاحتها إذاعة تلك المناقشة للقضايا المطروحة ، فأثبتت حساسيتها أو إدراكها للموقف ، ولكنها استطاعت ، من ناحية أخرى ، أن تتحكم فى المناقشة ، وذلك بأن ضمنت تحقيق ''التوازن'' بين الآراء المتباينة التى لم يحسن المتحدثون التعبير عنها ، وهم حفنة من الأفراد

المجهولين نسبيًا والذين لا يمثلون حقًا أصحاب تلك القضايا ، وبذلك ضمنت أيضًا أن تسلب أى مناقشة عميقة أو مديدة قوتها أو حدّتها . بل إن إذاعة المناقشة فى ذاتها كانت بمثابة البديل لأى تحليل دقيق . وكان من الأدلة على نجاح تلك الحادثة عدم قيام أحد بالتعليق على البناء غير المحكم للفيلم ، ولا على ''التوازن'' فى المناقشة التحليلية ، وهما العاملان اللذان انتهيا نهاية مفتوحة مضللة حالت دون الحكم الصائب على الموضوع الفعلى وهو أحوال أحد المجتمعات الإسلامية المعاصرة . فنحن لا نعرف حتى الآن (وربما لم يكن يهمنا أن نعرف حقًا) ما فعلته الأميرة فى الواقع ، مثلما سمعنا المشاركين فى المناقشة وهم يقولون ''إن الفيلم ردئ'' أو ''إن الفيلم جيد وصادق'' . ولكن الحقيقة التى لم يعترف بها أحد ، والتى تكمن وراء الفيلم ووراء المناقشة ، هى أن مثل هذا الفيلم **يمكن** إنتاجه وعرضه فيأتى بعواقب أخطر من أية عواقب يمكن أن يأتى بها فيلم سعودى يعتبر مُسيئًا إلى المسيحية أو إلى الولايات المتحدة أو الرئيس كارتر .

والواقع أن النظام السعودى الحاكم حين بذل جهوده لمنع عرض الفيلم قد وجد نفسه فى موقف من ينكر وقوع شىء لا يستطيع حقا إنكار وقوعه (الحادثة نفسها) ، وأيضًا موقف العاجز عن تقديم صورة للإسلام تناقض ما جاء فيه . وهكذا فإن التعقيد الشديد المصاحب لاختزال صورة الإسلام ، وهو ما سبق لى التحدث عنه ، قد سلب أى اعتراضات على الفيلم قدرتها

على التأثير ، إذ أصبح الاختيار محصورًا بين أمرين : إما أن يقول المشاهد "لا ! ليست الأحوال حقا على هذا النحو" أو "ذلك هو الحال حقا" ، وهذا يتطلب ، بطبيعة الحال ، توافر الفرصة لمن يقول بهذا أو ذاك فيحدث تأثيرًا ما ، ووجود مكان يقول ذلك فيه. أما المتحدث الرسمى باسم المملكة العربية السعودية ، فلم يتوافر له هذا ولا ذاك ، ولم يجد سوى الأسلوب الذى تدينه ثقافتنا وهو محاولة منع عرض الفيلم على الإطلاق . وقد بذل المسئولون السعوديون بعض الجهود التى لا تفصح عن الحماس الكامل للإشارة إلى جوانب الإسلام "الحسنة" ولكن هذه الجهود لم تكن لها أصداؤها فى المناظرة الجارية . والأسوأ من ذلك أنه لم يتوافر على الساحة الأمريكية عدد من المتحدثين الذين يتمتعون بالقوة الكافية والقدرة على تبيان الأسس الثقافية التى تثبت أن الفيلم تافه من الناحيتين الفنية والسياسية معًا ، بل أتفه من أن يستطيع أن يحمل أى رسالة مهمة . ولم نشهد ، لسوء الحظ ، ما هو أسوأ من أن يظهر معارضو الفيلم - فى أمريكا وفى انجلترا - بمظهر عملاء للمصالح المالية السعودية (على نحو ما أشار إليه ، وبألفاظ لا تخفى احتقاره ، ج. ب. كيلى فى صحيفة "**نيو ريبليك**" بتاريخ ١٧ مايو ١٩٨٠) وفى النهاية ، فإن معارضى الفيلم لم تكن فى أيديهم أجهزة النشر والإذاعة اللازمة للطعن فى الفيلم على أسس نقدية . ولنا أن نتبين مدى سخافة الخلاف كله ، وبسرعة ، إذا نحن قارنّاه بالمناظرة التى دارت حول

فيلم **ذكرى العدالة** للمخرج مارسيل أوفلس ، أو حول فيلم **المحرقة** أو عند إعادة عرض الأفلام التى أخرجها لينى ريفستال .

ولقد مكننا عرض فيلم **موت أميرة** من ملاحظة ما هو أبعد من ذلك . لقد كانت أجهزة الإعلام الأمريكية ، والأوساط الفكرية والثقافية من حولها ، تعج - دون مبالغة - بالإهانات الموجهة للإسلام والعرب قبل أن يسمع أحد عن '**الأميرة**' بوقت طويل . فلقد شهدنا فى مناسبتين سابقتين على الأقل كيف وجه عمدة مدينة نيويورك إهانة مباشرة إلى عاهل المملكة العربية السعودية ، حين رفض تحيته أو مجاملته بأبسط ألوان المجاملات وأكثرها شيوعًا . وأظهر البحث الجاد أنه لا يكاد يخلو برنامج تليفزيونى يعرض وقت الذروة من عدة قصص تتضمن صورًا هزلية للمسلمين وتتسم بالعنصرية السافرة والإهانات المباشرة ، ومن الاتجاه إلى تمثيل المسلمين جميعًا بصور عامة قاطعة ودون تخصيص أو تحديد ، بحيث يظهر كل مسلم ممثلاً لجميع المسلمين وللإسلام بصفة عامة(٧٢) . ولننظر إلى الكتب المقررة فى المدارس الثانوية ، وإلى الروايات والأفلام والإعلانات ، ولنتساءل كم منها يتضمن حقًا معلومات عن الإسلام ، ناهيك بإظهاره فى صورة حسنة ؟ ما مدى انتشار المعرفة بالفرْق بين الإسلام الشّيعى والإسلام السُّنّى ؟ لا يكاد يعرف الفرق أحد ! ولننظر فى العلوم الإنسانية التى تُدرّس فى جامعاتنا : إن معظمها ، إن لم نقل كلها، تضع مقرراتها الدراسية بحيث توازى بين ''العلوم الإنسانية''

وبين الروائع الأدبية التى تبـدأ بالشاعر اليونانى هوميـروس وكُتّاب المأساة اليونانيين وتنتهى بالروائى الروسى دوستويفسكى والشاعر ت.س. إليوت، مرورًا بالكتاب المقدس ، وشيكسبير ، ودانتى ، وثيـربانتيس . ومـا مكان الحـضارة الإسـلامـية المجـاورة لأوروبا المسـيحـية وسط هذا المنهج الذى يتـسم بالتركـيز العـرقى ؟ وإذا استـثنينا الكتب الحديثـة إلى أبعد حـد مثل **الإسلام المحـارب أو خنجر الإسلام** أو كتاب "**كفاحى بقلـم آية الله الخومينى**" ، فما هى الكتب العامة عن الحضارة الإسلامية التى يجرى توزيعها على نطاق واسع ؟ أو يُرجع إليـها ؟ أو يطلب قراءتهـا أحد ؟ هل من الممكن أن نقول إن بين السكان قطاعًا محبًّا للإسلام مثلما نقول إن بينهم من يحبون الإنجليز أو الفرنسيين مثلاً ؟

وبعد أن خفّت حدة النزاع حول **الأميرة** ، نسى السعوديون ، لسوء الحظ ، أن يغضبوا من مجلة **أميريكان سپكتاتور** التى نشرت مقالة كتبها إريك هوفنر بعنوان "كسل محمد" ووضع لها عنوانًا فرعيا هو "محمد ، رسـول التثاقل" (٧٣) . بل ولم يدرجوا فى القائمة التى تضم نماذج لسـوء إدراك الإسلام بعض ما يذكّر الناس بذلك ، مثل ما نعرفه من أن البلدان الثلاثة التى لا تزال محتلة فى عـالم اليوم وتحـتلهـا قوات أحـد حلفـاء الولايات المتحـدة بلدان إسلامية . ولم يُقْدم النظام السعـودى الحاكم على التهديد بالعقاب إلا حين تعرضت سمـعة الأسرة المالكة للتلطيخ مـباشرة . فكيف تأتّى أن يكون الإسلام قد أسئ إليـه فى حالة واحدة دون الحالات

الأخـرى ؟ لماذا لم يقم السعـوديون حـتى هذه اللحظة إلا بجهـد محدود نسبيًا لتعزيز تفهم الإسلام ؟ وحتى الوقت الحاضر لا يزال إسهامـهم الكبير فى مجـال التعليم مقتصـرًا على برنامج دراسات الشـرق الأوسط بجامـعة جنوبى كـاليـفورنيـا ، وهو الذى يديره موظف سابق فى شركة أرامكو(٧٤) .

ولكن السياق الكامل لحادثة فيلم **موت أميرة** أشد تعقيدًا من ذلك . فلقد كان مـوضوع التدخل الأمريكى فى الخليج مـوضوعًا شائعًا فى المناقشـات الدائرة لمدة لا تقل عن خمس سنوات . فمنذ أواخر عام ١٩٧٨ عندما أحجم السعوديون عن المشاركة فى عملية كامب ديفيد السلمية ، والمقـالات التى تبرز أخطاء النظام الحاكم المتعددة وعيوبه الكثيرة تنشر علينا بصـورة منتظمة (وبعضها محشو بالأكاذيب التـى تكتسى مظهر الحـقائق الصـادقة) . وقد اعـترف المسئولون فى أواخـر يوليو ١٩٨٠ أن وكالة الاستخـبارات المركزية (سى آى إيه) كانت من وراء بعض تلك الموضـوعات الصحفـية : انظر التحقيق الذى نشره ديفيد لى بعنوان "المعلومات التى تسربت من واشنطـن فـضلّت الطريـق : هفـوة السى آى إيـه التى هزت المملكة العربية السعودية" (**واشنطن بوست** ، ٣٠ يوليو ١٩٨٠). وفى الأعوام السـتة عـشر من عـمر **صحيفة نيـويورك لمراجعة الكتب**، كانت تتجاهل تقريبًا شئون الخليج العربى ، ثم قامت فى السنة التالية مباشرة لكامب ديفيد بنشر عدة مقالات عن الخليج ، وكلها تؤكـد هشاشة ' ترتيبات' الحكم السعـودى الحالية . وفى

الوقت نفسه ، بدا أن الصحافة قد اكتشفت صعود نجم الإسلام ، والخصائص القروسطية للحدود الشرعية ، والفقه الإسلامى ، وصورة المرأة . ولم يشر أحد فى ذلك الوقت إلى أن الحاخامات اليهود يعربون عن آراء مماثلة إلى حد مذهل فى المرأة ، أو فى غير اليهود ، أو فى نظافة الجسم (الطهارة) وفى العقاب ، أو إلى أن مختلف رجال الدين المسيحى اللبنانيين يتسمون بنظرة لا تقل تعطشًا للدم وروح القرون الوسطى . وكان اختيار التركيز على النظام الإسلامى السعودى فيما يبدو يتميز بتوزيع الألحان المعزوفة على نغمتين هما ضعفه وغرابته ، ولم يؤد أى لحن منها إلى التقليل من ذلك الضعف وتلك الغرابة . ولكن المقصد من وراء ذلك كان ، فيما يبدو ، أن المملكة العربية السعودية قد تحدّت الولايات المتحدة ، وعليها بسبب ذلك أن تكابد مزية الكتابة " بأمانة" عنها ، وكذلك أن تخضع لمطلب رفع التكتم على ما تفعله الرقابة السعودية (ولكنْ لم يَشْكُ أحد من الحقيقة المعروفة وهى أنه لا يخرج أى نبأ من إسرائيل دون أن يمرّ أولاً على الرقيب العسكرى) وانتشر التعبير عن مشاعر الغضب وانتظم ترديدها إزاء انعدام حرية الصحافة فى المملكة العربية السعودية (ترى كم عدد مشاعر الغضب التى عبر أصحابها عنها إزاء القيود التى فرضتها إسرائيل على الصحف والمدارس والجامعات العربية فى الضفة الغربية ؟) لقد أصبحت المملكة العربية السعودية ، فجأة ، حالة فريدة تعلو أصوات الليبراليين والصهيونيين فى الجوقة المشتركة التى

تُقَرِّعُـها ، وأصـوات المادحين ، ومن يكادون يدللونها فى الجـوقة المشتركة الأخرى التى تضم رجال المال المحـافظين وكبار شخصيات المؤسـسة الاجـتمـاعيـة . وقد أدى ذلك إلى زيادة خـفض منزلة المملكة العربيـة السعودية ، وزاد من النفور منهـا وظهورها بمظهر الشاذ فكريًا.

وكان من نتائج ذلك أنه ما إن وقعت حادثة فيلم **الأميرة** حتى ارتفعت أصـواتنا ''نحن'' لتنعى مـا يتسـمون ''هم'' به من نفاق وفساد ، كـما أنهم ، بدورهم ، أعربوا عن ضيـقهم بما لدينا من قوة وما نفتقر إليه من الحسـاسية . وتدفقت فى تيار هذه المواجهة شتى جوانب الموازنة بيننا ''نحن'' وبين ''هم'' ، الأمر الذى جعل من المستبعد فعليًا إجراء مناقشة حقيقية ، وتحليل حقيقى ، وتبادل حقيقى . وهكذا فقـد أخذ وعى المسلمين بهويتهم يزداد قوة وهم يخسرون المقـابلات مع كتلة صلبة متـحجرة ، تقدم نفـسها باسم ''الحضارة الغربية'' ، وعندما أدرك ذلك مثيرو الدهماء فى الغرب شرعوا فى الانقضاض على التعصب القروسطى وقسوة الطغيان . ومن ثم يصبح مجـرد تأكيد الهوية الإسـلامية ، فى ذاته ، ولكل مـسلم تقريبًـا ، بمثابة خطـوة يعلن بها عن ضـرب من التحـدى الكونى ، بل وبمثابة ضـرورة من ضرورات البقاء . وتبـدو الحرب فى هذا السياق هى النتيجة المنطقية إلى حد بعيد .

ومن النتـائج الأخرى غـير العـسكرية ، وغيـر المنظورة هذه المرة، أن بعض الناس هنا وفى العـالم الإسـلامى قد يكتـشفـون

الحـدود المؤسفـة التى تفـرضهـا بطاقـات العناوين القـسرية مـثل ''الغرب'' و''الإسلام'' . وربما نكون مبـالغين إذا توقعنا أن يؤدى ذلك إلى أن تفقـد هذه العناوين ، والأطر التى تدعمها ، قـدرتها على تكـبـيل الناس بهـــا ، ولكنه من المحـتـــمل أن يؤدى ذلك الاكتشاف إلى ظهور ''الإسلام'' بمظهر أقلّ تصلّبًا وبثًّا للخوف ، وأن يتضح أن 'العنوان' أقرب إلى أن يكون من عواقب التفسيرات التى تخدم أغـراضنا السياسـية المباشرة ومـن ثمار بواعث قلقنا ، سواء كنا ''نحن'' مسلمين أو غير مـسلمين . فإذا ما توصلنا آخر الأمر إلى إدراك مدى قوة التفسير وعناصره الذاتية ، وإذا أدركنا أن الكثير مما نعرفه (عن العالم) ينتمى **إلينا** من جوانب تزيد عما نقر به فى العادة ، فلســوف نكون قد قطعنا مســافة كبـيرة على طريق التخلص من بعض السذاجة ، ومن قدر كبير من سوء النية ، ومن أساطيـر عديدة عن أنفسنا وعن الـعالم الذى نعيش فـيه . وهكذا فإن تفهّم ''الأنباء'' نفسه قد يوازى ، من زاوية مـعينة ، تفهّم ما نحن عليه، وكيف تجرى الأمـور فى قطاع معين من المجتمع الذى نعيـش فيه . ولابد لنـا من تفهم هذه الأمـور أولاً قبل أن نتـخذ الخطوة التـاليـة لفـهم '' الإسلام'' الذى تعـرض صـوره علينا ، والأشكال المختلفة من الإسلام القائمة لدى المسلمين .

فلنحاول القيام الآن بتحليلٍ تفـصيليّ للحادثة التى تسبّبت فى أكبـر قدرٍ من تكدير الـصفو مـا بيننا ''نحن'' وبين ''الإسلام'' : أزمة الرهائن فى إيران . فـالحادثة تخفى الكثـير الذى لابد لنا أن

ندركه ، وتثير من اختلاط الفكر من الناحية السياسية ما لابد لنا من إزالته ، لأنها تسببت فى صدمة بالغة لنا ويكتنفها غموض شديد، وكذلك لأنها تقول لنا الكثير ، إذا نظرنا إليها بعين الناقد، عن التيارات الجارية حاليًا فى عالم المسلمين . فإذا فرغنا من تناول مسألة إيران استطعنا أن نمضى على الطريق لمناقشة القضايا الأشمل التى تربط ما بين الإسلام والغرب فى هذه المرحلة الأخيرة .



الفصل

الثانى

2

قصـــة

إيـران

أولاً: الحرب المقدسة :

أثارت إيران مشاعر غضب لا تزال متأججة فى صدور الأمريكيين ، أولاً بسبب الإستيلاء دون وجه حق على السفارة الأمريكية فى طهران وبأسلوب مهين إلى حد بعيد ، وهى التى احتلها الطلاب الإيرانيون فى ٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، وثانيًا بسبب اهتمام أجهزة الإعلام بالحادثة وتركيزها الشديد عليها ووصف تفاصيلها بدرجة لا تكاد تصدق من الدقة . فمعرفة المرء أن الدبلوماسيين الذين يمثلون بلادهم محتجزون وأن الأمريكيين عاجزون عن تخليص أنفسهم ، أمر يختلف تمامًا عن مشاهدة ذلك أثناء وقوعه ليلة بعد ليلة على شاشات التليفزيون فى ساعة الذروة. ولكننا وصلنا إلى المرحلة التى نحتاج فيها ، فى رأيى ، إلى وضع تقييم نقدى لمعنى ما يشار إليه الآن بتعبير "قصة إيران"

حتى نـتفهم حـضورها فى الوعى الأمـريكى ، بأسلوب عـقلانى ودون انفعال ، خـصوصًا لأن نسبة تبلغ نحـو تسعين فى المائة من الأمريكيين قـد عرفت ما تعـرفه عن إيران فى الآونة الأخـيرة عن طريق الراديو والتليفـزيون والصحف . إننا لا نستطيع مهـما نفعل تخفيف الإحـساس بالغضب الشديد وبالجـرح الذى أصابنا بسبب احـتجـاز الرهائن الأمـريكيين ، ولا بالاضطراب الذى أدت إليـه الصراعات الدائرة فى العالم الإسلامى ، ولكننى أرى أن علينا أن نشعر بالامـتنان لأن الولايات المتحدة لم تلجأ إلى استعـمال القوة المسلحـة إلا فـى مناسـبـة واحـدة . وعلى أية حـال، علينا أن نستـعرض موقـع إيران فى عيون الأمـريكيين ، فى السيـاق العام لعلاقـات الولايات المتحدة والبلـدان الغربية بالعـالم الإسلامى ، لنرى الصـورة التى ظهرت وتظهـر إيران بها ، وكـيـف قدمتـهـا

أجهـزة الإعلام ، حرفيًـا ، وأعادت تقديمها إلى الأمـريكيين يومًا بعد يوم.

بدأت إيران تشغل جانبًـا كبيرًا من نشرات الأنبـاء المسائية فى الشبكات الإعـلامية فـور احتلال السفـارة . وعلى امتداد شـهور متعاقبة خصصت شركة **إيه بى سى** برنامجًا تليفزيونيا يوميًا خاصًّا يذاع فى وقت متأخر من المساء بعنوان **احتجاز أمريكا رهينة** وقدم برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** الذى تقدمه هيئـة الإذاعة العامة (بى بى إس) **عددًا من الحلقات** لم يسبق لهـا مثيل عن الأزمة . وعلى امتداد شهور ظل وولتر كرونكايت يضيف إلى عبارته المميزة ('هذا هو الواقع') عبارة تذكر المشاهدين بعدد الأيام التى قضاها الرهائن فى الحجـز ، مثل ''اليوم السـابع بعد المائتين'' وهلم جرًّا . وفى غضون أسبوعين تقريبًا أصبح هودنج كارتر ، المتحدث باسم وزارة الخارجـية فى تلك الأثناء ، يعامل مـعاملة النجوم ، ومن ناحـية أخـرى ، لم يكثـر ظهور وزير الخـارجـية سـايرس ڤـانس ، ولا مستـشار الأمن القومى زبيجنيو برزنسكى ، حـتى وقعت المحاولة الفـاشلة لإنقاذ الرهائن فى أواخـر إبريل ١٩٨٠ . وكانـت إذاعة المقابلات التليفزيونية مع أبو الحسن بنى صدر ، ومع صادق قطب زاده ، ومع آباء الرهائن ، تعرض بالتناوب مع مـشاهد المظاهرات الإيرانية ، والدروس التى لا تـستغـرق إلا ثلاث دقائق عن تاريخ الإسلام ، والنشرات الطبية الصادرة من مـستشفى الشاه السابق ، وأوجه المعلقين والخبراء المتجهمة وهم يحلّلون ، ويتأملون الموقف،

ويتناظرون، ويخـطبـون ، ويقـدمـون النظريات ، ويقـتـرحـون الإجراءات اللازمة ، ويحدسون تفسيرات الأحداث فى المستقبل ، والاتجاهات النفسية ، والخطوات السوفييتية ، وردود الفعل المتوقعة من المسلمين ، ومع ذلك ظل الأمريكيون الذين يربو عددهم على الخمسين فى محبسهم .

واتضح خـلال تلك الفتـرة أن الإيرانيين كـانوا يستـخدمـون أجـهزة الإعـلام لما يرون أنه فى صـالحـهم ، وهو الرأى الذى لم يفت قطعًا شـبكات وكالات الأنبـاء . فكثيرًا مـا كان الطلاب فى السفارة يحددون مواقيت "الأحداث" حتى تدرك آخر موعد لبثها بالأقمار الصناعـية ، ويمكن إدراجها فى نشرات الأنـباء الليلية فى الولايات المتحـدة . وكان المسئـولون الإيرانيون يشـيرون من وقت لآخر إلـى أنهم يعتـزمون بذلك تحـريض الشعب الأمـريكى على معارضة سـياسة حكومته . ولقد كان ذلك سـوء تقدير خطير فى البداية . ولكن هذا أتى فى وقت لاحق بتأثيـر غريب ، ومرغوب فيـه إلى حد مـا ، وهو حث أجهـزة الإعلام على اتخـاذ موقف التحـقيق الصادق فى الأمر . ولكـننى أريد أن أناقش هنا الصورة الذى ظهرت بهـا إيران للأمريكيين فى أشد فتـرات الأزمة توترًا ، وأما الجـانب الآخـر للقصـة فأضعـه فى المرتبة الثانوية لما اهتممت به هنا .

كان جـانب كبـير من الأخـبار المثـيرة التى حـفل بها العـقد المنصرم، علـى نحو ما ذكـرت فى الفصل الأول ، وهى الأخـبار

التى لا تقتصر على إيران بل تشـمل الصراع العربى الإسرائيلى ، والنفط ، وأفغانستان ، أخـبارًا عما يسمى "الإسلام" . ولم يبرز ذلك بصـورة أوضح من الصـورة التى برز بهـا فى أثناء الأزمـة الإيرانية المديدة ، إذ قـدمت أجهزة الإعـلام إلى الأمريكيين الذين يتابعـون الأنباء غذاء متـواصلاً من المعلومات عن شـعب معين ، وثقافـة معينة ، ودين مـعين - وإن لم تزد تلك ' المعلومات' عن تجريدات ساء تعريفها وساء فهمها إلى حد بعيد - فصورته دائمًا، فى حالة إيران ، فى صورة المناوئ الخطر المعادى لأمريكا .

أما ما جعل الأزمة الإيرانية مناسـبة ممتازة لفحص أداء أجهزة الإعلام فـهو ، على وجه الدقـة ما جعلهـا مصـدر هـذه الآلام التى لها ما يبررها للكثيـر مـن الأمريكـيين ، وأقصد طولها وأن ما أصـبحت إيران ترمـز له أصبح يمثـل العـلاقـات الأمريكـية بعالم المسلمين . ومع ذلك ، فأعتقد أن علينا أن نفحـص بدقـة ما ظهر واتضح ، فى الفترة الأولى التى امتدت شهرين أو ثلاثًا ، فى مواقـف أجهزة الإعـلام ، وفى قيـامها بـأعمال من شـأنهـا ترسـيخ هذه المـواقف ، على الرغم من التـحـديات الجـديدة ، والتغييـرات والأزمات السياسية غير المسـبوقة التى لابد للغرب أن يواجهها من الآن فصاعدًا . ومع ذلك ، ومع مرور الوقت ، بدأنا نلمح تغـييرات مـعينة فى معـالجة أجـهـزة الإعـلام للأنبـاء ، وهى تغييرات تبـعث بصفة عامة على التفاؤل أكـثر مما شهدناه فى البداية .

لابد لمن يفحص الكم الهائل من المادة ' الإعلامية' التى أفرزتها أزمة الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى طهران ، وعلى الأرجح أن قد تكون قد انفرجت عندما يظهر هذا الكتاب فى الأسواق ، أن تستوقفه عدة أمور مهمة ، أولها أن موقفنا "نحن" كان ، فيما يبدو ، موقف المحاصر ومعنا نظام الحياة السوية الديموقراطية العقلانية . وبعيدًا عنا ، فى مكان ما ، يوجد "الإسلام" بصفة عامة ، وقد استولى على أصحابه جنون نابع من ذواتهم يدفعهم إلى التلوّى هياجًا ، وهو ما يتجلى فى هذه اللحظة فى إيران المصابة باضطراب الأعصاب بصورة تدعو للقلق. فقد نشرت مجلة '**تايم**' فى برواز خاص كلمة موجزة عن الإسلام الشيعى فى إيران بعنوان "أيديولوجية الاستشهاد" ، فى عددها الصادر فى ٢٦ نوفمبر ، وفى اليوم نفسه نشرت مجلة **نيوزويك** صفحة كاملة عنوانها "عقدة الاستشهاد عند إيران" فكأنما كانت تنقل ما تقول من المصدر نفسه .

ويبدو أن الأدلة على ذلك كانت متوافرة بكثرة . ففى يوم ٧ نوفمبر نشرت صحيفة **سانت لويس بوست دسباتش** محضر حلقة العمل التى عقدت فى مدينة سانت لويس حول إيران والخليج العربى ، جاء فيه أن أحد الخبراء قال "إن ضياع إيران ، بقيام شكل من أشكال الحكومة الإسلامية ، يعتبر أكبر نكسة واجهتها الولايات المتحدة فى الأعوام الأخيرة" . وبتعبير آخر ، يعتبر الإسلام، تعريفًا ، معاديًا لمصالح الولايات المتحدة . ونشرت

صحيفة **وول ستريت جورنال** فى ٢٠ نوفمبر مقالاً افتتاحيًا تقول فيه إن "انحسار الحضارة" يرجع "بداية إلى تدهور القوى الغربية التى كانت تنشر هذه المثل العليا [للحضارة]" ، فكأنما كان عدم الانتماء إلى الغرب - وهو مصير معظم سكان العالم ، ومن بينهم المسلمون - معناه الافتقار إلى أية مثل عليا للحضارة . وعندما سأل أحد المذيعين بمحطة إيه بى سى ، يوم ٢١ نوفمبر ، الأستاذ ج. سى. هوريفيتس ، من جامعة كولمبيا ، إذا ما كان اعتناق الإسلام الشيعى يعنى "العداء لأمريكا" رد الأستاذ عليه بالإيجاب القاطع .

وكان جميع كبار معلقى التليفزيون ، ومن أهمهم وولتر كرونكايت (محطة إذاعة كولمبيا) وفرانك رينولدز (محطة إيه بى سى) ، يتحدثون بانتظام عن "كراهية المسلمين لهذا البلد" أو ، بألفاظ أكثر شاعرية ، عن "هلال الأزمة ، ذلك الإعصار الدوار فوق المروج" (رينولدز إيه بى سى ، ٢١ نوفمبر) . وفى مناسبة أخرى جاء صوت رينولدز المصاحب لصورة مظاهرة تهتف "الله أكبر" وهو يقول ما يفترض أنه المقصد الحقيقى للجمهور "كراهية أمريكا" . وجاء فى البرنامج بعد ذلك من يخبرنا أن النبى محمد، عليه الصلاة والسلام ، "هو الذى قال إنه نبى" ، (ألم يقل كل نبى قبله إنه نبى ؟) ويذكرنا بعد ذلك بأن تعبير "آية الله" "لقب من ابتداع صاحبه فى القرن العشرين" وأن معناه هو "صورة الله" (ويفتقر هذا وذاك ، للأسف ، إلى الدقة الكاملة) .

أما الدرس القصير فى الإسلام (ثلاث دقائق) فقدمته حطة إيه بى سى ، وقد قدمته فى موقع أصحابه الذين لا يكادون يستحقون الظهور فى الصورة ، وقد أفتى كل منهم بالفتوى البغيضة نفسها وهى أن رد الفعل الصحيح على " الإسلام" هو الاستياء والاسترابة والاحتقار ، وينطبق ذلك على "الديانة المحمدية" ، ومكة ، والحجاب ، والشادور ، والسُّنّى والشيعى (وكانت الصور المصاحبة للدرس تصور بعض الشبان الذين يدقون صدورهم) والمُلاّ وآية الله الخومينى ، وإيران . وتحولت عدسة البرنامج بعد هذه الصور مباشرة إلى مدينة جيمزڤل ، بولاية ويسكونسن ، حيث يقوم بعض التلاميذ الصغار العقلاء والذين يدعون إلى الإعجاب - فليس بينهم محجبات أو من يدق الصدر أو فقهاء - بتنظيم احتفال وطنى للتعبير عن "الوحدة" .

"الإسلام المجاهد : الإعصار التاريخى" - هذا ما أعلنته مجلة الأحد المصاحبة لصحيفة **نيويورك تايمز** يوم ٦ يناير ١٩٨٠ ، وأما مايكل وولترز فكتب مقالاً بعنوان "الانفجار الإسلامى" فى صحيفة **نيو ريببلك** يوم ٨ ديسمبر . وقد حاول المقالان ، شأنهما فى ذلك شأن غيرهما ، إثبات أمور لا تقتصر على أن الإسلام كيان لا يتغير وأننا نستطيع أن نفهمه ، علاوة على التنوع الشديد فى التاريخ والجغرافيا والهيكل الاجتماعى والثقافة الخاصة بأربعين أمة إسلامية وما يقرب من ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ مسلم يعيشون فى آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية (بالإضافة إلى ملايين كثيرة

فى الاتحاد السوفييتى والصين) ، بل تتعدى ذلك إلى "الكشف" - بتعبيـر وولتزر - عن أنه حيثما ارتكب القـتل ، ونشبت الحرب ، واندلع الصراع المديد الذى يجرنا إلى بشاعات رهيبة "فالواضح أن الإسلام قد لعب فى ذلك دورًا مهمًا" . ولم يكترث أحد ، فيما يبدو، لتجـاهل قواعد الأدلة المعمول بـها عادة، أو بأن الكاتب لا يعرف اللغـات ولا المجتمـعات التى يتحـدث عنها، أو بأن المنطق السليم ينسحب خارجًا دون جلبة كلما حانت مناقشة "الإسلام". وأما مقالة **نيو ريببلك** الافتتـاحية فقد اخـتزلت إيران فى صورة "العـاطفة الدينـية المكبـوتة التى انطلقت فى هيـاج" وإلى صورة "الإسلام المستقتل" وقدمت كلامًا يوحى بالعلم والمعرفة عما تقوله الشريعة الإسلاميـة بشأن التجسس ، وحق المرور الآمن (فى أرض الغير) وما شابه ذلك . وقد دعم ذلك كلُّه الحجة الرئيسيةَ وهى أنه إذا كان الإسلام فى حرب معنا فالأفضل لنا أن ننزل الحلبه وعيوننا مفتوحة .

وقد لجأت جهات أخرى إلى وسائل أشد دهاءً وخفاءً لإلصاق الجرائم "بالإسلام" مما لجأت إليه **نيو ريببلك** ، ويتمثل أحدها فى إحضـار خبير لمواجـهة الجمهـور وجعله يقول إن الخومـينى قد لا يكون فى الحقـيقة "ممثلاً لرجـال الدين الإسلامى". (وكان هذا الخبـير هو ل. دين براون ، السفـير الأمريـكى السابق فى الأردن والمبعـوث الأمريكى الخاص إلى لبنان ، والذى يعمل الآن رئـيسًا لمعهد الشرق الأوسط ، وكان يتحدث إلى برنامج **تقرير ماكنيل /**

ليرى يوم ١٦ نوفمبر) ثم يضيف بعد ذلك أن المُلاّ "المدرّع" يمثل نكوصًا إلى عصر إسلامى أقدم (والواضح أنه يتميز بأصالة أكبر) وأن الجماهير الغوغائية فى طهران ذكّرت براون بأحداث نورمبرج (المعادية لليهود) تمامًا مثلما كانت المظاهرات فى الطرقات أدلة على "أن السيرك هو وسيلة التسلية الرئيسية" التى يقدمها الحكام المستبدون فى العادة .

ومن الوسائل الأخرى الإيحاء بأن ثمة خيوطًا خفيّة تربط ما بين شتى الجوانب الأخرى للحياة فى الشرق الأوسط وبين الإسلام الإيرانى ، ثم إدانة هذا وذاك جميعًا ، وقد يكون ذلك ضمنًا أو صراحةً وفقًا لكل حالة على حدة . فعندما قام عضو مجلس الشيوخ السابق جيمز أبو رزق بزيارة طهران ، صاحب الإعلانَ عن الزيارة فى محطتى إيه بى سى وإذاعة كولمبيا التذكيرُ بأن أبو رزق ينحدر "من أصول لبنانية" . ولكن أحدًا لم يشر مطلقًا إلى الخلفية الدانمركية لعضو مجلس النواب جورج هانسن ، أو إلى أن أسلاف رمزى كلارك من أصول أنجلوسكسونية بروتستانتية . ولكن رجال الإعلام رأوا أهمية ما فى الإيحاء بوصمة إسلامية غامضة تشوب ماضى أبو رزق ، على الرغم من أصوله المسيحية اللبنانية . ويتصل بهذا استخدام صور زائفة لبعض ' الشيوخ' العرب للتمويه فى قضية أبسكام) .

وأما أشد ضروب استخدام الإيحاء صفاقةً فقد بدأت بمقال قصير نشرته صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** فى صفحتها الأولى

(بتاريخ ٨ نوفمبر) ويزعم فيه دانييل ب. دروز أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت من وراء الاستيلاء على السفارة . وأما مصادره فكانت ، كما يقول ، سلطات "الاستخبارات الدبلوماسية والأوروبية" . وقال جورج بول ، بلهجة من ينطق بالحكم والأمثال ، في مجلة **واشنطن بوست** يوم ٩ ديسمبر "إن ثمة أساسًا للاعتقاد بأن بعض الماركسيين الذين أجيد تدريبهم هم الذين ينظمون هذه العملية كلها" وفي ١٠ ديسمبر أذاعت محطة إن بي سي في برنامج يسمى "**توداي شو**" مقابلةً مع عاموس پيرليموتر ، وهاسي كارميل ، وقالت إن الأول "أستاذ في جامعة أمريكية" والثاني "مراسل مجلة **الاكسبريس** الأسبوعية الباريسية" (بصفة أساسية) والحقيقة أن الرجلين إسرائيليان . وسألهما روبرت أبيرنيثي عما زعماه بشأن "تلاقي مصالح" الاتحاد السوڤييتي ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، و"الأصوليين" المسلمين في إيران . وكان سؤاله هو : هل صحيحٌ أن هذه القوى الثلاث شاركت **فعليًّا** في عملية احتلال السفارة ؟ وأجابا بالنفي بعد تردد طفيف ثم عادا إلى الإشارة إلى توافق المصالح وتلاقيها . وعندما قال أبيرنيثي بأسلوبه المهذب إن ما يقولانه يوحي بأنه محاولات إسرائيلية "لتلطيخ سمعة منظمة التحرير الفلسطينية" اعترض الأستاذ پيرليموتر بغضب ، قائلاً إن رائده فيما يصدر عنه هو "الأمانة الفكرية" الجليلة !

وأبت محطة إذاعة كولمبيا أن يتفوق عليها أحد في هذه

المزايدات فقدمت فى نشـرة أنبائها الأخيرة (واسـمها **نايتلى نيوز**) يوم ١٢ ديسمبر مسئولاً من وزارة الخارجية الأمريكية يدعى مارڤن كـولب ، فإذا به يستشـهد (دون تحـديد أسـماء) بنفس المصـادر "الدبلوماسـية والاستخبارية" التى كان دروز قد أشار إليها قبل شـهـر كـامل ، وإذا به يؤكـد من جـديد أن منظمـة التحـرير الفلسطينية، والأصوليين الإسلاميين، والاتحاد السوڤييتى قد تعاونوا فى العملية . وقال كولب إن رجـال منظمة التحرير الفلسطينية هم الذين وضعوا الألغام فى المجمع، ثم واصل حديثه ، قائلاً بلهجة الحكيم الحصيف ، إن هذا قد تأكد بفضل "أصوات اللغة العربية" التى سُمعت داخل السفارة . (ونشرت صحيفة **لوس أنجيليس تايمز** فى اليوم التالى موجزًا "للقصة" التى رواها كولب). ولم يبق إلا أن تأتى شخـصية بارزة ، أى كونسـتانتين منجيـز ، الخبير بمعـهد هدسون ، لترديد هذه الأطروحة نفسها ، أوّلاً فى عدد ١٥ مارس ١٩٧٩ من **نيو ريبـبلك** ، وبعد ذلك ، مـرتين فى برنامج **تقرير ماكنيـل/ ليرار** . ولم تزد الأدلة عن ذلك ، إلا بطبيـعة الحال ، تكرار الإشارة إلى الشيوعـية الجهنمية المتحالفة بصـورة طبيعية مع 'شياطين' منظمة التحرير الفلسطينية و'أبالسة المسلمين' . (ونحن ندهش لامتناع ماكـنيل وليرار عن دعوة منجيز للـعودة حتى يعلق على غزو الاتحاد السوڤييتى لأفغانستـان أو على الانتقاد الإيرانى الرسمى لهذا الغزو) .

"حيثما وجدت الشـيعة وجدت المتاعب" - هذا ما أفتى به

دانييل ب. دروز فى صحيفة **أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن** يوم ٢٩ نوڤمبر ، وهو يشبه ما قالت به **نيويورك تايمز** ، وتحت عنوان أصغر ، وبألفاظ أشد تعقّلاً ، يوم ١٨ نوڤمبر ، "كان الاستيلاء على السفارة يرتبط بعاملين : موافقة الشيعة على السلطة وغضبهم لمسألة الشاه" . ولم يمض أسبوع على احتلال السفارة يوم ٤ نوڤمبر حتى انتشرت صور الخومينى المتجهم ، والتى لا تُغيّر مطلقًا ما يُفترض أن تقوله لمن يطّلع عليها ، مثلما انتشرت الصور لا تنتهى للجماهير الإيرانية الغوغائية . وأصبح قيام الأمريكيين الغاضبين بإحراق الأعلام الإيرانية (وبيعها) من وسائل التسلية المعتادة ، وتولّت الصحف بإخلاص نقل أنباء هذا اللون من ألوان الوطنية . كما تواترت أنباء لها طرافتها تدل على الخلط فى أذهان الجماهير بين العرب والإيرانيين ، مثل النبأ الذى نشرته صحيفة **بوسطن جلوب** يوم ١٠ نوفمبر عن مظاهرة غاضبة فى مدينة سبرنجفيلد تردد هتافات تقول "عودوا إلى أوطانكم أيها العرب". وانتشرت التحقيقات الصحفية الخاصة فى كل مكان عن الإسلام الشيعى ، وإن كان من المدهش ألا تتعرض إلا مقالات محدودة نسبيًا لتاريخ إيران **الحديث** ، أو تشير إلى المقاومة السياسية ذات الأهمية الفريدة التى أبداها رجال الدين الإيرانيون للتدخل الأجنبى وللحكم الملكى منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أو تبحث قدرة الخومينى على إسقاط الشاه والانتصار على جيش لم يهزم فى حرب من قبل ، وكان أهم ما توسل به الخومينى فى ذلك الأشرطة الإذاعية وجماهير الشعب العزلاء إلى حد كبير .

وربما وجدنا دلالة رمزية ما لعجز وولتر كرونكايت عن النطق الصحيح بالأسماء فلقد كان اسم قطب زاده يتغير فى كل مرة يُنطق فيها تقريبًا ، وعادة ما كان يقرب من ''جابوزاداى'' (وفى ٢٨ نوفمبر أطلقت محطة إذاعة كولمبيا على بهشتى اسم ''بشاتى'' ، وأرادت محطة إيه بى سى الانضمام إلى الركب فغيرت - فى ٨ ديسمبر - اسم منتصرى إلى '' منتسورى''). وكانت كل ''كبسولة'' تاريخية عن الإسلام ، تقريبًا ، تتسم بدرجة من الخلط تهبط بها إلى مستوى الهراء ، أو تفتقر إلى الدقة إلى الحد الذى يجعلها تثير الرعب . خذ مثلاً ما جاء فى الحديث عن الإسلام الذى ورد فى برنامج محطة إذاعة كولومبيا ''**نايتلى نيوز**'' يوم ٢ نوفمبر ، إذ جاء فى حديث راندى دانييلز عن شهر المحرم أنه الفترة التى يحتفل فيها المسلمون الشيعة ''بتحدى محمد لزعماء العالم'' ، وهو قول يهبط الخطأ به إلى مستوى السخف والسفه ، فشهر المحرم من الشهور الهجرية ، والمسلمون الشيعة يحيون ذكرى استشهاد الحسين بن علي ﷺ فى العشرة الأوائل من هذا الشهر . وقيل لنا بعد ذلك إن الشيعة يعانون من عقدة الاضطهاد، ولذلك ''فلا غرو أن يخرج من بينهم خومينى'' ، وكان مما يبعث على الاطمئنان ، وإن كان لا يقل تضليلاً ، أن يقال لنا إنه لا يمثل الإسلام كله . وقد أجرى البرنامج نفسه معى مقابلة للإفادة من 'حكمتى' وأخطأ المذيع فى تعريف الجمهور بى إذ وصفنى بأننى أستاذ للدراسات الإسلامية . وفى ٢٧ نوفمبر قال أحد مراسلى

المحطة إن إيران كلها تعاني من "صداع خمر الثورة" فكأنما كانت إيران هي السكّير الأول .

ولكن القوة التى "تحتجز أمريكا رهينة" لم تبرز تأثيرها الحقيقية إلا حين تصدت صحيفة **نيويورك تايمز** للحديث عن الإسلام ، فمارست أقصى سلطان لها باعتبارها صحيفة النخبة المثقفة . ولكن الصورة التى رسمتها تلك الصحيفة للإسلام ترجع فى كثير من جوانبها إلى طابع الصحيفة نفسها . فلا يقتصر الأمر على كونها أولى وأهم الصحف الأمريكية ، إذ إننا إذا جمعنا بين الشمول الذى تتحلى به ، ومستوى الخبرة الرفيع فى نقل الأنباء ، والإحساس بالمسئولية ، وأهم من ذلك كله قدرتها على الكتابة بمصداقية من وجهة نظر الأمن القومى ، وجدنا أنها تتميز بقوة ذات ثقل فريد . وبعبارة أخرى ، تستطيع الصحيفة أن تكون موضع ثقة إذا تحدثت فى موضوع ما ، وأن تجعله يهم الأمة كلها فى الوقت نفسه : وهى تفعل ذلك عامدة ، وتنجح، فيما يبدو ، فى أدائه . وهكذا يقول هاريسون سولزبرى فى مذكراته إن الرئيس كيندى قال فى ربيع ١٩٦١ للصحفى تيرنر كتليدج ، المحرر فى **التايمز** ، إن الصحيفة لو نشرت المزيد من التفاصيل عن الغزو الوشيك لخليج الخنازير فى كوبا (وهى التفاصيل التى جمعتها الصحيفة بنفسها) "لأنقذتنا من ارتكاب خطأ فاحش" [١] . ويقول سولزبرى إنه لم يدرك أحد ، بعد حادثة خليج الخنازير ، لا فى الصحيفة ولا فى العالم ، أن ما كتبه تاد زولك عن الحادثة لم

يكن يمثل عمـلاً استـثنائيًا ، بل وأن إنجاز الصـحيفـة كله لم يكن خارجًا عن المألوف هو الآخر، بل لقد كان أمرًا معتادًا فى الواقع. كانت **التايمز** قد أصبحت مؤسسة ذات قوة فذة ، وأصبحت تمارس عملها بسـلطان عُمره يقارب عمـرَ الأمة نفسـهـا . وهاك ما يقوله سولزبرى :

كانت **التـايمز** قـد وصلت آنذاك إلى مـسـتـوى الكتلة الحـرجة، بلـغة الفـيـزياء ، لا من حيـث عدد القـراء والمعلنين ، وإن كـان هذا وثيق الصـلة بذلك ، بل من حيث مـستوى العمل الصـحفى والخبرة . فلقـد كانت تقوم فعليا بالتغطية الإعلامية للعالم، وتغطية واشنطن، والأمة ، والمدينة ، بالعـاملين فيها من رجـال ونساء ، ولم يكن عملهم يقـتصر على المشاوير الصحـفية ، بل كـانوا أفضل المـراسلين والمحررين الذين يمـكن العثـور عليهم . وقد تجمعوا فى **التايمز** لا من أجل المكافأة المالية فقط ، فجدول الأجور فى **التايمز** لا بأس به . لكنه لم يكن بالغ الجاذبيـة فى يوم من الأيام . ولكنهم تجمـعوا لأن **التايمز** كانت تمثل مـجالاً فريدًا لممـارسة الإبداع فى نقل الأخـبار وتحريرهـا . ولم يكن يضارع الصـحيـفةَ جهازٌ إعلامى آخر فى مستوى الأداء المهنى والاحتراف وكانت الكتلة الحـرجة من الصحفـيين قد وصلت آنذاك [أى بعد حادثة خليج الخنازير] إلى مـستوى رفيع ، من

حيث الكمّ والكيف ، حتى إنها كانت تمارس عملها دون الوعى بأى توجيه . كان رجال **التايمز** ينتشرون فى أرجاء العالم كله ، وقرون الاستشعار الإخبارية حساسة مشرعة ، يبحثون وينقبون ويطرحون الأسئلة[٢] .

وهكذا ، جاء الوقت الذى أصبحت فيه ممارسة السلطة الحاسمة تمثل المهمة الجماعية للصحيفة ، وكان المراسلون يؤدون عملهم الصحفى بما تمليه العادة عليهم ، على نحوٍ ما ، ''دون الوعى بأى توجيه'' . وفى عام ١٩٧١ ، عندما بدأت **التايمز** تنشر أوراق البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) كانت قد مرت مائة عام على نجاحها فى الإطاحة بعصابة 'الريّس تويد' (وليام مارسى تويد ١٨٢٣ - ١٨٧٨) فى تامانى هول (المقر المحلىّ للحزب الديموقراطى) بنشرها الوثائق الحكومية ذات الصلة بالقضية . وها هى تعود الآن ، حسبما يقول سولزبرى ، لتتجاوز القانون بما تتحلى به من بصيرة معنوية نفاذة أصبحت مضرب الأمثال ، فى سبيل المصلحة القومية[٣] ، وتبين للجميع قدرتها على أن تكشف الحقيقة وتدفع الحكومات إلى العمل . صحيح أن نجاحها المالى ، فى ظل مدير تحريرها الأخير أ. م. روزنتال ، جاء نتيجة إضافة أبواب جديدة مثل باب ''المنزل'' وباب '' المعيشة'' إلى الطبعة اليومية ، ولكن الدخل الإضافى مكّنها من التوسع فى نقل الأنباء الخارجية أيضًا :

أتاحت الأبواب الجديدة للصحيفة بعض الموارد المالية التى هيأت لها موقعًا منيعًا ، تقريبًا ، فى الوقت الذى كانت فيه صحيفتا **نيوز ويوست** تتعثران . وهكذا وبخلاف أى صحيفة أخرى فى البلد ، كانت **التايمز** تستطيع أن تنفق ٣٠٠٠٠ دولار فى الشهر ، وربما ٥٠٠٠٠ دولار فى الشهر، إلى جانب الرواتب والموظفين ، على التغطية الإعلامية لسقوط إيران : كانت النقود جاهزة، دون التسبب فى ضائقة مالية(٤).

وفى آخر العام الذى " سقطت" فيه إيران ، بدأت **التايمز** تلتفت أخيرًا إلى الإسلام . ففى ١١ ديسمبر خصصت الصحيفة صفحتين كاملتين لنشر ندوة عنوانها "الانفجار فى عالم المسلمين". وكان من بين المشاركين السبعة ، ثلاثة باحثين من العالم الإسلامى ، يقيمون ويعملون فى الولايات المتحدة ، وكان الأربعة الآخرون من الخبراء البارزين فى التاريخ الحديث للعالم الإسلامى وثقافته ومجتمعاته ، وكانت جميع المسائل التى طُلب إليهم أن يناقشوها مسائل سياسية ، وكانت جميعًا تتعرض لتهديد الإسلام للمصالح الأمريكية . وكان الخبراء يحاولون هنا وهناك أن يناقشوا العالم الإسلامى كما لو كان الماضى فيه يختلف من بقعة إلى بقعة ، شأنه شأن التحولات السياسية وضروب المسلمين أنفسهم ، ولكن هذه المحاولات كانت تتلاشى أمام قوة بعض الأسئلة ، مثل السؤال التالى : "إذا كنا اكتسبنا هذه الصورة

الشيطانية فى أعين الكثيرين من المسلمين فى هذه اللحظة ، فكيف ينبغى لنا التعامل مع من نحس بالتآلف معه من القوى والزعماء والحكومات ؟ يأتى بازرجان ويصافح برزنسكى فينتهى ويمضى . وبنى صدر يقول إنه يريد أن يأتى إلى نيويورك فتكون فى هذا نهايته . هل نستطيع أن نتعلم درسًا ما فى التعامل مع النظم الأخرى ؟ هل فى هذا درس فى ضبط النفس أم ماذا ؟" والواضح أن **التايمز** أحست أنها تتجه بذلك إلى المنبع ، فإذا كان المسلمون يخضعون "لحكم" الإسلام ، فعليك أن تستجوب الإسلام وجهًا لوجه . والطريف هنا هو أن الخبراء كانوا يحاولون تقسيم "الإسلام" إلى أهم العناصر التى يتكون منها ، و**التايمز** تعيد تجميع هذه العناصر وبناءها فى قوى عامة ، إما أن تكون "معادية" لمصالح الولايات المتحدة أو "صديقة" لها . وكانت النتيجة التى خلص إليها الحوار فى الندوة هى السخط والانزعاج ، إذ إن آخر مجموعة من المسائل التى طرحتها **التايمز** قد أوحت بوضوح بأن الاقناع والمنطق لن يكتب لهما النجاح ، ومن ثم فقد يلزم استخدام القوة باعتبارها الملاذ الأخير .

وقد انقشعت الشكوك التى تكتنف ما عسانا "نحن" أن نراه فى الإسلام عندما نشرت "**التايمز**" فى الأيام الأربعة الأخيرة من عام ١٩٧٩ سلسلة من أربع مقالات طويلة بقلم فلورا لويس ، تحاول فيها جميعًا أن تعالج موضوع "أزمة الإسلام" ("فورة الإسلام" - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ديسمبر) . وتتسم مقالاتها

ببعض السمات الممتازة ، مثل نجاحها فى تصوير مدى التعقيد والتنوع فى عالم الإسلام ، ولكنها تتضمن نقاط ضعف خطيرة أيضًا ، يكمن معظمها فى جوهر النظرة المفترضة إلى الإسلام اليوم؛ إذ لم تقتصر فلورا لويس على الحديث عن الإسلام وحده ودون غيره فى الشرق الأوسط (فهى لا تكاد تذكر "الثورة" المماثلة فى اليهودية ، أو فى المسيحية فى مصر ولبنان) بل تنطلق إلى إصدار بعض الأحكام ، خصوصًا فى المقالة الثالثة ، عن اللغة العربية (مستشهدة بآراء الخبراء التى تقول إن الشعر العربى "طنّان وخطابىّ ، وليس حميم النبرة فردىّ المشاعر") وعن الذهن الإسلامى (قائلة إنه يعجز عن "التدرج فى التفكير") وهذه من الأحكام التى قد تعتبر عنصرية أو من قبيل الهراء إذا أطلقت على أى لغة أخرى ، أو على أى دين آخر ، أو على جماعة عرقية أخرى . وهى تكثر من الاستشهاد بأقوال لبعض المستشرقين الذين سبق لهم الإفصاح عن آرائهم العامة . فقد اقْتَطَفَتْ بعضَ أقوالِ إيلى قدورى الذى نشر فى أواخر ١٩٧٩ دراسة عن الثورة الإسلامية يحاول أن يبين فيها أنها معادلة للماركسية اللينينية(٥) ، واسْتَشْهَدَتْ بقوله إن "الفوضى فى شرق عميقة ومستوطنة" واقتطفت أقوال برنارد لويس (وهو ليس من أقربائها) الذى كان قد أعلن "نهاية حرية التأمل والبحث" فى العالم الإسلامى ، ومن المرجح أن يكون ذلك نتيجة لعلم التوحيد الإسلامى "الجامد" والقائم فى رأيه على "النظرة الجبرية ، والعَرَضيّة ، والتسلطية" .

ومن المحال أن يخرج أحد بنظرة متسقة للإسلام من قراءة مقالات فلورا لويس ، فإن هرولتها ما بين المصـادر وعدم إلمامها بالموضوع يوحيان للقراء بطائر جارح يحاول اصطياد صيد متفرق مشتت : إذ كـيف يلم المرء بأحـوال عـدة مـئـات من الملايين الذين ينطقـون بكلمات ''أقرب إلى التعبير عن الأمانى منها إلى تبيان الحقائق'' ؟ (قارن بهذا ما نشرته صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** يوم ١٩ نوڤمبر عن ''الطابع المراوغ للغة الفارسية واستـعصاء دلالاتها الدقيقة'') . ولكن الكاتبة قد حققت مقصدها من الحديث عن الإسلام على أى حال ، فحتى لو لم يكن ''الإسلام'' واضحًا على الإطلاق ، فلا شك فى وضوح مواقفنا ''نحن'' إزاءه (أو قل ما لنا الحق كل الحق فى مساندته من المواقف) .

وقد نشـرت مجلة **إسكواير** فى عدد مايو ١٩٨٠ مـقابلة مع فلورا لويس ، تكشف فيـها ، ربما دون قصد ، عن الافـتراضات التى كانت لديها وما دفعتهـا عليه من أعمال أثمرت تلك المقالات عن الإسلام . وأما 'الترقيع' الذى اتسم به نقلها الأنباء ، وطابع العجلة والسرعة فيه ، فيوحيان بأن صحيفة **التايمز** تستطيع أن تنجو من اللوم لأن الإسلام هو الإسلام و**التايمز** هى **التايمز** . وفيما يلى نص ما قالته (ولاحظ اللهجة 'غير الرسمية' التى تشى بموقع الثقة والسلطة فيمـا توحى به عبارة ''لا يدرى أحد مـا يجرى الآن فى الإسلام'') :

منذ بضعة أشهر ، على سبيل المثال ، شاركت فى القيام بمشروع أبعاده هائلة مذهلة . إذ كانت نيويورك قد كلفتنى لتوها بالقيام بهذه المهمة الخاصة فى المعمعة داخل العالم الإسلامى . كانوا قد عقدوا اجتماعًا فى نيويورك ، وقال فيه أحدهم : "يالله ! لا أحد يدرى ما يجرى الآن فى الإسلام . فلنرسل فلورا" . وهكذا استدعونى ، وذهبت . كان ذلك من قبيل الجنون . ولم أكن واثقة حتى من أسلوب استخدام المادة التى سأجمعها .

وكان علىّ أن أنتهى من الترتيبات بسرعة محمومة حتى أتأكد من مقابلة من أريد قبل السفر ، ولم أستطع الذهاب إلى أى مكان أو المكوث فى أى مكان لمدة ثلاثة أيام .

بدأت رحلتى فى باريس ولندن . ثم ذهبت إلى القاهرة ، **فهى مقر الجامعة الإسلامية الحقة** ، وكذلك إلى الجزائر وتونس . وعدت أحمل عشرين كراسًا وأوراقًا وزنها عشرون رطلاً وجلست لأكتب .

وكانت مزية هذا ، بطبيعة الحال ، أننى أتعلم شيئًا جديدًا . اذكرْ طلب العلم مدى الحياة ، وسوف تقدم إليك **نيويورك تايمز** منحًا دراسية متوالية .

أنا دائمًا ما أكتب التحقيقات الصحفية بنفسى ، باستثناء واحد وهو عجزى عن الذهاب إلى مكان ما بسبب ضيق الوقت . فمثلاً ، فيما يتعلق بموضوع الإسلام ،

كنت أحتاج إلى ملف ضخم إلى حد ما عن الفلبين . واتضح أن مكتب [أخبار] آسيا لا يستطيع تدبير أحد يقوم بإعداده لى - إذ كانوا غارقين حتى آذانهم فى أنباء الحرب فى كمبوديا والورطة فى جنوب كوريا والأزمة السياسية فى طوكيو - وهكذا كان على شخص آخر أن يقوم بتجميع المادة التى أريدها قبل مغادرتى نيويورك .

ويزداد الأمر وضوحًا إذا قارنّا بين التحقيقات الصحفية التى تغطى "الإسلام" فى **التايمز** وصحيفة **لوموند** الفرنسية . إذ إن **التايمز** جعلت فلورا لويس تقوم بإعداد التحقيق بسرعة ، فهى لا تناقش القضايا اللاهوتية والمعنوية الكبرى التى يناقشها الناس فى شتى أرجاء العالم الإسلامى (كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن الإسلام اليوم ، ولا يشير ولو مرة واحدة إلى الصراع المحتدم بين أنصار الاجتهاد (أى التأويل الفردى) وأنصار التقليد (أى الاعتماد على تفاسير الثقات) باعتبارها من طرائق تفسير القرآن ؟) كما إنها لا تناقش أيضًا تاريخ وهياكل المدارس الإسلامية المختلفة التى تلهب نيران "الفورة" التى تحاول توثيقها ، ولكنها تستعيض عن ذلك بالاعتماد على مقتطفات عشوائية ، مقتبسة من أفواه من اختارتهم بأسلوب عشوائى ، وتستخدم الحكايات التى تحل فى تحقيقها محل التحليل ، بل إنها لا تقدم حتى الجوانب الحقيقية للحياة الإسلامية ، سواء كانت خاصة بالعقيدة ، أو بالمبادئ الميتافيزيقية ، أو بالسياسة .

من المفيد ، كما قلت ، مقارنة ما فعلته كبرى الصحف الأمريكية فى هذا الصدد بما نشرته كبرى الصحف الفرنسية ، إذ كانت **لوموند** ، **قبل هذا** التاريخ بعام كامل (فى ٦ ، ٧ ، ٨ ديسمبر ١٩٧٨) قد كلفت مكسيم رودنسون (وهو مستشرق ماركسى فرنسى بارز تقتطف فلورا لويس أقواله) بدراسة الظاهرة نفسها[٦] . ولن نجد اختلافًا يفوق الاختلاف بين هذين . فإن رودنسون يلم بالموضوع إلمامًا تامًا ، فهو يعرف اللغات ، ويعرف الدين ، ويفهم السياسة . ولا يعتمد على حكايات ، ولا على مقتطفات مثيرة ، ولا يقيم "التوازن" فى الاعتماد على الخبراء بالإسلام "المناصرين" أو "المعادين" ، بل يحاول أن يبين طبيعة القوى القائمة فى المجتمع الإسلامى ، وفى التاريخ الإسلامى ، والتى تضافرت مع 'التشكيلات' السياسية الحالية حتى أدت إلى الأزمة الراهنة . ومن ثم فهو يقدم لنا خبرة متكاملة ذات دلالة – عن الإمبريالية ، والصراع الطبقى، والنزاع الدينى ، والأخلاق الاجتماعية – وهى لا تبرز فى عمله فى صورة المواقف التى يعرضها 'لفائدة' قراء تعتريهم الشكوك والمخاوف .

ثانيًا : فقدان إيران :

من المحتمل أن يلجـأ من تشبع بالأنباء السطحيـة التى يرويها الثرثارون عن إيران ، إلى طلب 'الخلاص' والبصيرة الصادقة فى البرنامج الذى تذيعه محطة الإذاعة العامة (التليفزيونية) كل ليلة ، وهو **تقرير مـاكنيل / ليرار** ، الذى يحظى بالتقـدير مثل **نيويورك تايمز** فى عالم الصحافة المطبوعة باعتباره صنوة البرامج وأرقاها فى دنيـا الصحـافة التليـفزيونيـة ، ومع ذلك فلقد وجـدتُ أن برامج ماكنـيل / ليرار لا تشـبع النهم إلى حد بعـيد ، سواء مـن حيث شكل التقديم الذى يتسم بالتقييد والروح المحافظة إلى درجة تدعو للدهشة ، أو من حيث اختيار الضيوف ونطاق المناقشة . ولنتناول الشكل أولاً . لمّا كان موضـوع البرنامج يتناول منطقة غيـر مألوفة من مناطق العالم ، وهى إيران ، فسوف يشعر المشاهد على الفور بالتفاوت الشـديد بين الجماهير الغـوغائية "هناك" وبين الضيوف الذين يراعون أدق أصول الهندام ، ويتسمون بالتوازن فيما بينهم، وإن كان يجمعهم مؤهل الخبرة ، وليس بالضرورة عمق البصيرة أو الفهم . ولا غبـار على محاولة تفهم موقف ما تفـهمًا عقلانيًا ، على نحو مـا يحاول البرنامج تحـقيقه ، ولكن الأسـئلة المطروحة على الضيـوف تدل بوضوح وجلاء على أن ماكنيل وليـرار ينزعان إلى طلب ما يدعم الحالة النفسـية السائدة فى البلاد ، أى الغضب الشديد من الإيرانـيين ، والتحليلات التى لا عـلاقة لهـا بالتاريخ لدوافع وسلوك الإيرانيين ، ومحاولات إجراء المناقشة بحيث تلائم

إطار الحرب الباردة أو نموذج "إدارة الأزمات" . وقد ظهر مؤشر عميق الدلالة على هذا فى برنامجين (أذيعا يومى ٢٨ ديسمبر و ٤ يناير) وكان الضيوف فيهما مجموعتين من رجال الدين المسيحى الأمريكيين الذين عادوا قبل مدة قصيرة من طهران، وتحدثوا فى البرنامجين عن تعاطفهم مع مشاعر الإيرانيين الذين عانوا ما عانوه من حكم الشاه المستبد الذى استمر خمسة وعشرين عامًا . وقد أعرب ليرار صراحة عن التشكك ، ولا أقول عن ريبته، فيما يقولان. وعندما ظهر وزير الخارجية آنذاك ، بنى صدر ، ومن خلفه فى المنصب ، وهو قطب زاده (٢٣ و ٢٩ نوفمبر) استمر اتجاه الأسئلة قريبًا إلى أبعد حد من موقف الحكومة الأمريكية الذى كان قد اتضح وينحصر فى السؤال عن موعد إطلاق سراح الرهائن، مع تجاهل التنازلات ولجان التحقيق اللازمة للنظر فى سوء تصرفات الشاه وجرائمه . ومن المفارقات أن بنى صدر لم يعد يصر ، ولأول مرة ، على عودة الشاه السابق ؛ بل إنه اقترح الصيغة التى نفذتها فيما بعد لجنة الأمم المتحدة التى ذهبت إلى طهران بعد ذلك بعدة أشهر . أما فى البرنامج فقد تجاهل ماكنيل وليرار هذا الاقتراح - وهو الموقف المعهود منهما .

وأما قائمة الضيوف الذين ظهروا فى البرنامج من أوائل نوفمبر ١٩٧٩ حتى منتصف يناير ١٩٨٠ فكانت ذات دلالة أكبر. فباستثناء المرات الخمس التى ظهر فيها إيرانيون ، وباستثناء ظهور إقبال أحمد مرة واحدة ، وريتشارد فولك مرة واحدة هو الآخر ،

وهما المعروفان بمناصرة قضايا العالم الثالث ومعاداة الحروب ، كان جميع المشاركين فى الحوار من الصحفيين ، والمسئولين الحكوميين، وخبراء الشرق الأوسط الأكاديميين ، وبعض الأفراد المرتبطين بمؤسسات تجارية أو شبه حكومية ، أو بعض أبناء الشرق الأوسط الذين اشتهروا بمواقفهم المعادية فى جوهرها للثورة الإيرانية . ولم يدع تواتر ظهور بعض الأفراد مجالاً للشك . فقد ظهر منجيز من معهد هدسون مرتين ، وظهر كل من روبرت نويمان ، السفير الأمريكى السابق فى أفغانستان ، ول. دين براون مرتين أيضًا . وكانت المحصلة النهائية هى وضع كل ما قاله الإيرانيون وفعلوه خارج الحدود الأخلاقية ، وهو ما زاد من مشاعر الغضب دون أن يساعدنا فى تفهم الأنباء . ولقد أذهلنى هذا ، وأدهشنى ألا يحاول ليرار أو ماكنيل النظر فيما كان بنى صدر يعنيه ، مثلاً ، عندما أشار إلى ما يحسه "المقهورون فى العالم" قائلاً إن إجابة مطالبهم لا تقتضى تسليم الشاه للحكومة الإيرانية الجديدة (أى أن المسألة تتجاوز مجرد تراجع الولايات المتحدة) ولكنها تقتضى مجرد بادرة من جانب الولايات المتحدة تعترف فيها بأن للمقهورين مظالم مشروعة .

وهكذا فإن أسلوب البحث نفسه فى برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** كان ، فيما يبدو ، دليلاً على رقابته على ذاته ، فحال دون خوض البرنامج فى المجالات الأوسع للخبرة الإنسانية التى كان المتخاصمون أو المتحاورون يعتبرونها مهمة . لقد شاهدنا صفوفًا

دقيـقة التنظيم من المشاركين الذيـن يجلسون حول منضـدة يسيطر عليها مضيفان يطرحان الأسئلة بلا هوادة ، ولاحظنا وجهات النظر المتـسمـة بالتوازن العـام ، والتى لم تتح لأى ضـيف أن يُسْمِـعَنَا بصدقٍ تلـك اللغة "الغريـبة" فى جوهـرها ، أى لغة الشـعوب المقهورة والبعيدة عنا ، والتى ظلت حتى عهد قريب تكابد التدخل الأمريـكى الظالم فى حيـاتها ، فى صـمت وعلى امـتداد عـقود طويلة؛ واسـتمـعنا إلى الأسئلـة التى دائمًا مـا كانت تركـز على أسلوب التـعامل مع هذه الأزمـة ، لا على محـاولة فهم الآفـاق الجديدة التى تتفتح فى كل مكـان فـى عالم الأجـناس غير البيضاء وغير الأوروبية ؛ وأدركنا ذلك اللجوء شبه الغريزى إلى 'الحكمة' التقليدية عن الجغـرافيا السياسية ، والقلاقل الطائفـية ، والنهضة الإسلامية ، وتوازن القوى ، وكانت تلك جميعًا تمثل إطار القيود التى يمارس مـاكنيل وليرار عـملهما فى ظلـها ، ومهـما تغـيرت الظروف ، كـانت تلك القـيـود نفسـهـا هى الإطار الذى تعـمل الحكومة فى ظله .

وفى هذا السـياق الذى أوجـدته الصـحافـة التى تعـانى من الحرص المفرط على اتساق موقفها إزاء قضية إيران ، وهو الاتساق الذى فرضته على نفسها ، نسـتطيع أن نقدر عمق البصيرة المدهش الذى أبداه أ. ف. سـتون فى مقـال له بعنوان "هل تكون الخطوة التالية إنشاء اللوبى اللازم لمناصرة الشاه ؟" ، وهو الذى كتبه فى ١٧ يناير ١٩٧٩ ونشـرته صحيـفة **نيويورك ريڤـيـو أوف بوكس**

(مراجـعة الكتب) فى ٢٢ فبـراير . لقد تحـدث فى هذا المقال عن نجاح الشـاه فى "حشـد أصدقـاء أقوياء" ، من مصـرف تشيس مانهـاتان إلى شركات صناعة الأسلحـة ، إلى احتكارات النفط ، إلى وكالة الاستخبارات المركزية ، و"دنيا الجامعات المتعطشة" . أما وقد حضر الشاه "إلينا هنا شخصيًّا" فقد نصادف احتمال اتخاذ إجراءات مغرية ، على الرغم من أنه "كان ينبغى علينا أن نتعلم ، لكننا لم نتعلم الابتعاد عن الشئون السياسية الداخلية لإيران ، وقد نتعلم درسًا آخـر فى القريب العاجل فى إقصـاء الشئون السيـاسية الإيرانية عن حياتنا السياسية" . ولماذا ؟ ويجيب ستون ، مواصلاً تنبؤاته الغـربية قائلاً "ماذا يكون عليـه الحال لو أن النظام الإيرانى الجـديد تقـدم بمطالب خاصـة من جـانبـه . . . فزعـم حقـه فى الاستـيلاء على أملاك الشـاه فى الخارج والحـسابات المصرفـية له وللمؤسـسة البهلوية ؟ ومـاذا يكون الحال عليـه لو أنه طلب عودة الشاه لمحاكـمته بتهمة نهب ثروات البلد ؟ ومـاذا يكون الحال عليه لو أنه اتهمه ، باعـتباره الحاكم المطلق ، بالمسئوليـة المطلقة عما لا حصر له من وقائع التعذيب والإعدام التى ارتكبتها الشرطة السرية التابعة له ؟" .

وأنا لا أقـتطف أقوال سـتـون لمجرد أن تـنبؤاته تصـادف أن صدقت، لـكننى أستشـهد به أيضًـا لأنه ليس من " الخبراء" فى شئون إيران ، ولم يـلجأ إلى إدعاء ذلك يومًا مـا ، كما أنه رجل لم يعرف عنه أى تعاطف مع المسلمين . وما عليك إلا أن تفحص

مقاله حتى تتأكد من خلوه من أية إشارات إلى العقلية الإسلامية أو غرام الشيعة بالاستشهاد أو سوى ذلك من الهراء الذى يطالعنا باعتباره من " المعلومات" ذات الصلة بإيران . إنه رجل يفهم السياسة ، ويفهم دون أن يحاول أن يكذب بشأن ما يدفع الرجال والنساء للعمل فى هذا المجتمع وفى غيره من المجتمعات، وقبل ذلك كله ، فإنه لا شك لديه فى أن الإيرانيين، وإن لم يكونوا أوروبيين أو أمريكيين ، قد تكون لديهم مظالم وطموحات وآمال مشروعة ومن الحماقة أن يتجاهلها الغربيون . لن تجد فى المقال كنايات أو مبالغات . فما دام ستون لا يعرف الفارسية ، فإنه لا يسمح لنفسه بترف تعويض النقص بإطلاق التعميمات عن "مراوغة" اللغة الفارسية واستعصاء معانيها على الفهم .

ولقد عبر جوزيف كرافت ، بما يميزه من واقعية ، عن رؤيته **الخاصة** للقضية فى مقال بعنوان "حان وقت استعراض القوة" ، ونشرته **واشنطن بوست** يوم ١١ نوفمبر ، وكان ما كتبه فى هذا المقال قد أوضح وألقى بأضواء تزيد عما ألقته جميع الإشارات النمطية إلى الحصانة الدبلوماسية وقداسة سفارتنا ، على بعض جوانب **الأساس المنطقى** الذى يقوم عليه كل ما تقوله وما تفعله أجهزة الإعلام ، وربما دون وعى منها . كتب كرافت يقول إن سقوط الشاه يمثل "كارثة للمصالح القومية الأمريكية" . إذ لم يقتصر الشاه على توفير كميات النفط التى نحتاجها ، بانتظام ، لنا، بل إنه قد فرض النظام على الهضبة الإيرانية من خلال

"طمـوحات الامبـراطورية" . وكان هذا خـيرًا لأمريـكا ، فلقد حافظ على تدفق النفط ، وحـافظ على تبعية المنطقـة له وإخضاع "الوطنيين الكامنين"، الأمر الذى أتاح لنا "نحن" أن نظهر بمظهر القوة . ويمضى كـرافت فى مقـاله ليوصى "بالعثور علـى مناسبة لتأكيد قوة أمريكا بصورة لا يمكن إغفالها وحبذا لو كانت مفاجئة، لصالح وباسم النظم التى تشعـر بتهديد آية الله لها" باعتبار ذلك جانبًا من جـوانب محاولة "إعادة بناء السـياسات الأمـريكية إزاء إيران" . وما الطرق الأخرى لتنفيذ ذلك ؟ يقول كرافت :

> قد يتخذ ذلك شكل مساعـدة العراق فى جهودها لبعث المقاومة المحلية داخل إيران . وقـد يعنى تقديم مساعدة عسكرية إلى تركيا . . . وإيجاد هذه الفرص واستغلالها يتطلب تغـيـيـرًا داخليًّا حـاسمًـا فى واشنطن . وعلى الولايات المتـحدة أن تتـمتع بالقـدرة على أن تفعـل ما يتجـاوز إرسال مـشاة البـحرية وإلقـاء القنابل ، أى إن عليها أن تعيد بناء قدرتها (وهى القدرة التى دمرت ذاتها منذ أعوام معدودة فحسب) على التدخُّل الخفىِّ المقنَّع .

ويتـضح من مـقال كـرافت أنه يرفـض أن يتقـبل أن الثـورة الإيرانية قد قـامت أصلاً . ومن ثم فلابد من "تنقيـحها" بمعنى إعادة النظر فـيها وفى كـل ما يتصل بهـا - آية الله ، والإسلام ، والشعب الإيرانى - باعتـبارها انحرافًا يتـمنى أن يقول به قراؤه . وبعبارة أخرى ، نجد أن كرافت "يسقط" رؤيته الخاصة للواقع على

واقع إيرانى وأمريكى معقد إلى درجة بعيدة ، ويريد من ثم أن يستعيض بهذه الرؤية عن الواقع الفعلى . كما تتميز رؤية كرافت بميزة ' تعليمية' إضافية وهى مجافاتها الكاملة للأخلاق : إنها تتعلق بالقوة ، القوة التى تمكّن أمريكا من صوغ العالم وفقًا لشروطنا "نحن" ، فكأنما لم نتعلم شيئًا من استمرار تدخلنا ، فى الواقع ، فى إيران ، على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية. وأما إذا وجد نفسه ، فى غمار ذلك ، ينكر حق الآخرين فى إحداث ما يرونه من تغيير فى شكل حكومتهم ، بل وينكر حتى أن تغييرًا ما قد حدث بالقطع، فذلك لا يهمه كثيرًا. فهو يريد لأمريكا أن تعرف العالم (وأن يعرفها العالم) بما لها من قوة ، ومن احتياجات ومن رؤية خاصة . وأما ما عدا ذلك فهو إساءة بالغة .

وأما ما يعيب هذه النظرة فهو أنها ، حتى من الزاوية البراجماتية والأنانية المحضة ، نظرة فظة وعمياء . ففى الوقت الذى كان كرافت ومن لفّ لفّه يهاجمون الثورة الإيرانية وينعون فقدان الشاه ، كان الموقف فى إيران قد أصبح مزعزعًا ومقلقلاً إلى أقصى حد ، إذ كانت الجماهير التى أسقطت نظام حكم الشاه تتصدّر ائتلافًا سياسيًا يرأسه آية الله الخومينى . كان يتمتع وحده بالسلطة وبالشرعية الروحية والسياسية القادرة على اجتذاب أنظار البلد . أما تحت السطح الذى يهيمن عليه فكان الصراع يدور بين العديد من الفصائل ، وكان من بينهم بطبيعة الحال رجال الدين

(الذين انتظم أتباعهم فـى الحزب الجمهورى الإسلامى) وليـبراليو الوسط (وبتـصـدرهم بازرجـان) وتجـمُّعٌ عـريض من أحـزاب وشخصيات إسلامية تتفاوت مـيولها ما بين الليبرالية واليسار (وقد برز بنى صدر من بين هذه الشخصيـات) واليسار غير الإسلامى ، وهو الذى يتشكل من أحزاب وتجمعات كـثيرة مختلفة . وقد ظل الصراع على السلطة قائمًا بين هذه الفـصائل المختلفة لما يزيد على عام كامل بعد قيام الثورة - أى من فبراير ١٩٧٩ حتى مارس على الأقل أو إبريل ١٩٨٠ ، وكـان يبـدو أحـيـانًا أن بنى صـدر قـد انتصر، وفى أحيان أخرى - أسـاسًا فى أواخر أيام الشتاء وأوائل الربيع عـام ١٩٨٠ - أن رجـال الدين (بزعـامـة آية الله محـمـد بهشتى) قد انتصروا . **ولم يُنشر فى الولايات المتحدة من أنباء هذا الصـراع أثناء احتـدامـه إلا قدر بالغ الضـآلة** . فلقد بـلغ الالتزام الأيديولوجى بفكرة جمـود الإسلام وثباته درجة من القـوة حالت دون ملاحـظة التحـولات السيـاسية الجـارية **فى داخل** ذلك البلد المعين. وعندمـا انتصـر التجمـع الإسلامى المحافـظ نتيجـةً لذلك الصراع بعد ذلك ، بدا للناس أن الأوصاف الأولى للإسلام كانت صحيحة على أى حال . لكنه عندمـا فشلت محاولة إنقاذ الرهائن بالطائرات العمودية ، وبعد أن قـررت إدارة الرئيس كارتر تخفيض أولوية قضية إيران لفترة مـا (ومن زاوية معينة بعد أن فات الموعد) بدأت الصحافة تؤدى واجبها فى نشر أنباء الصراع على السلطة بين بهشـتى وبنى صدر . وكـما جـرت العادة صورت بـنى صدر فى

صورة الشخص الذى نستطيع التعامل معه لولا وجود بهشتى ، وأما حين كان نجم بنى صدر ساطعًا صاعدًا فى أواخر عام ١٩٧٩، فلم يكن يلقى إلا التجاهل أو الازدراء .

لا شك أن القوة مسألة معقدة ، فالقوة لا تلمحها العين فى جميع الأحوال . وتتغير أشكالها بسرعة ، إلا إذا اقتصرنا فى تفكيرنا على القوة العسكرية . ومع ذلك فقد تنشأ مواقف تصعب فيها رؤيتها أو فهمها ، على نحو ما أشار إليه كرافت بدقة ، ويستعصى فيها استعمالها مباشرة (غارة ، تخريب تدبره وكالة الاستخبارات المركزية ، ضربة تأديبية من لون ما) ولا يمكن استعمالها إلا بصورة غير مباشرة (''احتجاز أمريكا رهينة'' هو النموذج الذى قدمه وأعاد تقديمه جهاز إعلامىٌّ يتمتع بموارد لا حصر لها فيما يبدو) . فمنذ زمن بعيد وأجهزة الإعلام مشغولة بتأكيد ما تتمتع به هى من قوة مباشرة . ولا أرى أنه من المبالغة أن نقول إن الإحساس ''بالعجز القومى'' الذى تحدث عنه كرافت كان بمثابة طغيانٍ مؤقتٍ لنوعٍ من أنواعِ القوةِ الأمريكية على نوعٍ آخر : طغيان قوة أجهزة الإعلام التى حجبت قوة العسكريين الذين أحسوا بعد احتلال السفارة بالإحباط إذ أحرجتهم قوة أخرى كانت فيما يبدو خارج نطاق القوة العسكرية الأمريكية (وهى الحقيقة التى أثبتتها بوضوح محاولة الإنقاذ الفاشلة فى أواخر إبريل ١٩٨٠) .

ولكن هذه القوة نفسها ظلت مع ذلك خاضعة للحدود التى فرضتها عليها قوى أجهزة الإعلام الغنية القادرة على الرمز

والإيحاء . فمهما يكن ما كسبه الفرد الإيرانى من حريته أو تحرره من الشاه ومن الولايات المتحدة ، استمر ظهوره على شاشات التليفزيون الأمريكى فى خضم جمهور غوغائى كبير مجهول الاسم ، فسلبته الصورةُ فرديته وإنسانيته وعادت للتحكّم فيه نتيجة لذلك . وسواء كانت أجهزة الإعلام على وعى بما تفعله أم لا ، فإنها كانت فى الواقع تستخدم طاقاتها على التمثيل والرمز لتحقيق غرض معين ، شبيه بالأغراض التى قصدت إلى تحقيقها حكومة الولايات المتحدة فى الماضى : ألا وهو توسيع نطاق الوجود أو الحضور الأمريكى ، أو ما كان لا يختلف معناه فى نظر الإيرانيين أىْ إنكار وجود الثورة الإيرانية . ولم يكن هذا يعنى فى المقام الأول تقديم الأنباء أو تقديم تحليلٍ أو تأمّلٍ لمرحلة جديدة مهمة من مراحل العلاقات الخارجية الأمريكية ، بل ، وباستثناءات جد قليلة، كان غرض أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، أن تشن حربًا من لون ما على إيران .

وقد أعد صحفيان فى صحيفة **واشنطن بوست هما** وولتر بنكاس و دان مورجان مجموعة رائعة من التقارير التى تتضمن ثمار بحوثهما وتحقيقاتهما ونشراها فى ديسمبر ويناير وفبراير ومارس ١٩٨٠ ، فكانت من باب الاستثناء للقاعدة ، إذ وضعا أمام القارئ أدلة قاطعة على الصفقات المربحة التى عقدها الشاه مع شركات السلاح الأمريكية ، وعلى ما يملكه فى المؤسسة البهلوية ، وعلى تلاعبه وقمعه للشعب (وقد نشر روبرت جراهام تفاصيل

بعضهـا فى كتابه **إيران : وهم القوة**) ولكن أمثال هذه المقالات ، إلى جانب المقال الذى كتبه برنارد نوسـيتر فى نيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ نوڤمبر ويقارن فيـه الخومينى بالشاه ، كـانت قليلة العدد، إذا قارناها بحالة الاستياء السـائدة التى تنقلها أجهزة الإعلام وتنشرها مـرارًا وتكرارًا . ومـن الغـريب أن أحـدًا لم يحـاول النظر إلى سياسـات الولايات المتحدة فى إيران فى إطار ما يسمى بامـتيازات الأجانب التى كـان معمولاً بهـا على امتداد قرن كـامل ، وكانت هذه السياسة تمنح شتى الدول ، ابتداءً بانجلترا ، امتيازات اقتصادية ودبلومـاسية وقـضائيـة خارج أراضـيها ، فى إيران (وهـكذا قال الخومينى فى عام ١٩٦٤ "لو أن الشاه صدم بسيـارته كلبًا أمريكيًا لتعرض للحساب ، ولو صـدم طبـاخٌ أمريكىٌّ بسيارته الشاه . . . فليس لأحد أن يطالبه بأى شىء" (٧)). ولكن أجهزة الإعلام لم تشر قط إلى هذه السياسة ، وإن كان يمكن بوضـوح أن نستخدمها فى تفسيـر الحدّة الشديدة لمشاعر الإيرانيين ضـد جميع "الشياطين الأجانب" وخصـوصًا من الدبلوماسـين الأجانب ، لا الولايات المتحدة فقط . وقد كان يمكن أن يؤدى ذلك إلى إسكات صيحات الاستنكار والتظاهر بالتـقوى التى سمعناها من الكثـير من المعلقين الذين قـالوا إن إيران قد ظلمت أمـريكا ظلمًـا بيّنًا فادحًـا ، وإن أمريكا بريئة لم تقدم إلى الإيرانيين إلاّ الخير السابغ الفياض .

وليس من المدهش إذن ألا يخرج القـارئ بمعلومات كثـيرة مما نشر عن الأزمة فى شهورها الثلاثة الأولى ، إذ لا تقدم لنا أجهزة

الإعلام إلاّ **الإصرار** على موقـفها ، بدلاً من التحليل أو التـغطية المتـعمقـة للتعـقيـدات الحافلة التى تـزخر بهـا القضيـة وأظن أن الأمريكيين سوف يقـولون إن أجهزة الإعلام قد قدمت أدلة كـثيرة على قـدرتها على الوجـود ، وهناك فى طهران ، وعلـى طاقتـها على حفز الأحـداث على اتخاذ أشكال يسهل هضمها مـهما بدت ساذجة. ولـكنها لم تر فائدة فى تحليل الجوانب الـسياسية المـعقدة للأحداث ، ولم يشعـر أحد قطعًا بأن أجهزة الإعـلام كانت تقوم بتسـجيل وتوثيق التحـولات التاريخية المـعقدة التى تحيـر الألباب أحيـانًا. ولكننا استطعنا أن نكتـسب بعض المعرفة بأسـاليب عمل أجهزة الإعلام .

فإذا نحـينا جانـبًا ذلك التـصوير الذى لا هوادة فـيه لتـجربة المواجهة التى أشرت إليها ، فسوف نقدر مدى ما أنفق على تغطية أنبـاء إيران والكم الهائـل لتلك الأنباء . فـعلى امـتداد الأسـابيع العشرة التـى قمت فيها برصـد ثمانى صحف يوميـة ، والشبكات الثلاث ، ومجلة **تايم** ومجلة **نيوزويك** ومحطة الإذاعـة العامة ، بدا لى أن كل صحيفة كبرى فى البلد قد غطت وأبرزت الأحداث الإيرانية ، إلى جانب "لمحات عن خلفيـتها" وبعض التحقـيقات الصغـرى المرتبطة بها . وقـال چون كيـفنر ، المحرر فى **نيويورك تايمز** فى ١٥ ديسمـبر ١٩٧٩ إن فيلقًـا من الصحفـيين الغربيين ، الذين لا يقل عـددهم عـن ثلاثمـائة ، يقـيم فى طهـران (وكـان معظمـهم ، إن لم يكونوا جمـيعًا ، فى حـاجة إلى متـرجمين).

وذكر كول ألن يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧٩ فى صحيفة **ذى أستراليان** أن مجموع ما تنفقه الشبكات الأمريكية الكبرى فى طهران يبلغ مليون دولار يوميًا . وقال ألن إن محطة إذاعة كولمبيا كان لديها فى طهران ، إلى جانب رئيس مكتب المحطة "فريق يتكون من ٢٣ صحفيا ، ومصوّر تليفزيونى ، وخبير تسجيل الصوت ، وخبراء أفلام وفنيين يساعدهم ١٢ مترجمًا إيرانيًا ، وسائق ومرشد" . وكانت تستخدم جناحًا فى أحد الفنادق ، إيجاره الشهرى ٦٠٠٠ دولار ، مركزًا للعمليات ، إلى جانب خمس وثلاثين غرفة أخرى إيجار الغرفة الواحدة ٧٠ دولارًا فى اليوم للصحفيين والسائقين والمترجمين ؛ وتضاف إلى هذا تكاليف الطائرات الخاصة ، وآلات التليكس ، والسيارات والتليفونات ، إلى جانب قمر صناعى للاتصالات يستخدم أربع ساعات يوميًا بتكلفة قدرها ١٠٠ دولار فى الدقيقة ، وترتفع التكاليف بمعدل جد كبير .

وعندما عاد ڤيرمونت رويستر إلى الولايات المتحدة من رحلة إلى الخارج ، كتب فى **وول ستريت چورنال** يقول ، فى ١٩ ديسمبر ١٩٧٩ ، إن الكومة التى تجمعت لديه من الصحف ومن برامج التليفزيون التى بدأ يستعرضها كانت شاهدًا

"على مدى ضآلة ما وجدته من معلومات لم أكن أحيط بها سلفًا عن الأزمة الإيرانية على الرغم من التغطية الهائلة لأنبائها . وعندما استقر بى المقام فى المنزل وجدت نفسى أغرق فى طوفان يومى من التحقيقات التليفزيونية

والإذاعـية والصـحفـية عن إيران . كـانت الصحف تنشـر موضوعات مطولة بعناوين ضخـمة ، والتليفزيون يخصص معظم نشرات الأنباء المسائية لـلقضية ثم يذيع برامج خاصة فى وقت متأخر كل ليلة تقريبًا .

وخطرت لى ، استنادًا إلى ذلك ، فكرة كالزندقة وهى أن أجهزة الإعلام تقوم عمدًا بالمبالغة فى التغطية لغاية ما .

وقد يبدو ذلك رد فعل غريب بشأن قـضية تتمتع بهذه الأهمية الواضحة . . . ولكن عدد الـكلمات المستخدمة فى الحديث عن موضوع مـا لا يعادل بالضرورة المعلومات التى يقدمـها الحديث . والحقـيقة أن جـانبًا كبيـرًا من الكلمات المسـتخدمـة لم تكن له أى قـيمـة إخباريـة حقيـقيـة على الإطلاق .

اليوم ٢٨ . . الـيوم ٣٥ . . اليوم ٤٠ - لـم أجد فى معظم الأيام خبرًا يختلف عما جاء به اليوم السابق .

ربما لم يكن رد فعل رويسـتـر موجهًا فقط إلى تشـابه الأخبار بل كذلك إلى ضيق نطاق الافتراضـات المستخدمة فى البحث عن الأنباء ، والتى سريعًـا ما تنفد ، وهو أمر غيـر مرضٍ . فإلى أى مدى زمنـى نستطيع الاعـتماد عـلى الخبراء أو الـصحفـيين الذين يساورهم قلق مـفهوم بشـأن الرهائن ، وتغضبـهم بذاءة الحادثة ، وربما أحسوا بالغـضب من الإسلام كذلك ، ثم نأمل رغم هذا أن

نحـصل على الجـديد من المعلومـات والأنبـاء والتـحـليل ؟ لو أن شخصًا قرأ صحيفة **شيكاغو تريبيون** يوم ١٨ نوفمبر ، واطلع على المقال المطول الذى كتبه چيمز يانجر ويسـتشهد فيـه بالخبراء الذين يقولون "إن هذا الأمـر ليس مطروحًـا للمناقـشة علـى المسـتـوى الوطنى" وإن الإيرانيين "متـعطشون للاستشـهاد" وإنهم "يميلون إلى البحث عن كـباش فداء" ، ثم انتقل إلى قـراءة مجلة **تايم** أو مجلة **نيوزويك** فى الأسبوع التالى ، ومنها إلى قـراءة التحقيقات العديدة فى **نيويورك تايمز** فى الأسبـوع الذى يعقبه ، فـإنه سوف يواجه فـى كل حالة المعلومـات التى تقول إن الإيرانيين شـيعـيون يتحـرقون شـوقًا إلى الاسـتشـهاد بقـيادة رجل غـير عقـلانى هو الخومينى ، وأنهم يكرهون أمريكا ، وأنهم مصـممون على تدمير شياطين الجواسـيس ، ولا يرغبون فى حل وسط وهلم جرًا . ألم تقع فى إيران أحداث **قبل** الاستيـلاء على السفارة ، ربما ألقت لنا الضـوء على الوضع الراهن ؟ ألم يكن لإيران تاريخ أو مـجتـمع جدير بالـكتابة أو الحديث عنه دون تـرجمتـه إلى الصور البـشرية لإيران الملتاثة التى تقـوم ، دون سبب ، بتعيـير واستفـزاز أمريكا وهى 'البطل الصالح' فى القصة ؟ وقبل كل شىء ، هل كان همُّ الصحـافة ينحصر فى نشـر أنباء تتفق ، فيـما يبدو ، مع سيـاسة حكومة الولايات المتحدة الرامية إلى الحفاظ على "وحدة الصف" الأمريكـى فى المطالبة بالإفـراج دون قيد أو شـرط عن الرهائن ، وهو المطلب الذى وصفه روجر فيشر ، الأستاذ بجامعة هارڤارد ،

فى برنامج ''**توداى شو**'' يوم ٣ ديسمبر ، وصفًا بارعًا قائلاً إنه يقع فى المرتبة الثانوية بعد الأولوية الحقيقية ، التى لا تتمثل فى إطلاق سراحهم بل فى ''الحفاظ على قوة أمريكا'' ؟

ومن المفارقات أن يظهر ما يشى أحيانًا بالخصومة بين الحكومة وأجهزة الإعلام ، والمثال عليه هو الضجة التى أثيرت عندما هاجمت الحكومة محطة الإذاعة العامة لأنها استخدمت مقابلة كاليجوس(٨) ، أو الإشارات المتكررة الصادرة من دوائر تتحدث باسم الحكومة أو بلهجتها ، والتى مفادها ، بتعبير چورچ بول فى برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** يوم ١٢ ديسمبر ، ''أن أعظم شبكة اتصالات فى العالم أصبحت تعمل حقا فى خدمة الحكومة المزعومة فى إيران'' . ويرتبط بهذا الموضوع ما لمحناه من الطعن المتواصل فى الشهادات أو الأقوال أو التصريحات التى تذيعها أو تطبعها أو تنشرها أو تصورها أجهزة الإعلام ، وهو الطعن الذى يقول إن زيدًا أو عمروًا قد تعرض لغسيل مخ ، أو إن س أو ص من الإيرانيين يمارس الدعاية أو يعتبر من الأعداء المتعصبين ، إذ قال چيمز كوتس فى صحيفة **شيكاغوتريبيون** يوم ٢٢ نوفمبر ما يلى : ''يقول المسئولون فى الإدارة الأمريكية إن الرهائن المحتجزين فى سفارة الولايات المتحدة فى طهران يتعرضون لضغوط نفسية شبيهة بغسيل المخ الذى تعرض له أسرى الحرب الأمريكيون فى الحرب الكورية وحرب ڤيتنام'' . وقد أقر المسئولون فيما بعد بأنهم ''يساورهم القلق بشأن بعض الأقوال التى أدلى بها الرهائن المفرج

عنهم منذ إطلاق سراحهم'' . وقال لويس تيـمنيك فى صحيـفة **لوس أنجـيليس تايمز** يوم ٢٦ نوفـمبر إن ''على العالـم أن يتوقع مشاهدة وسماع مقابلات مسجلة بالڤيديو مع بعض الرهائن الذين 'يعترفون' بشتى ألوان الأخطاء ويدلون بأقوال تعود بالضرر عليهم وعلى الولايات المتحدة'' .

وهاك مثـالاً آخر لنفس النزاع بين الزملاء وهو الهـجوم الذى تعرض له السناتور إدوارد كيندى (مثلاً: ''إن طهران تشرب نخب إدوارد ، **نيويورك بوست** ، ٥ ديسمبر) بسبب تقديمه رأيًا آخر غير مطابق لآراء الحكومة وأجهزة الإعلام ، أو 'العلقة الساخنة' التى تلقاها چورچ هانسـن ، عضو مجلـس النواب ، إذ تعرض لنبش ماضـيه كله حتى يصـدّق الناس التهـم التى وجـهها إلـيه تيب أونيل.

وأنا لا أقول إن أجهـزة الإعلام كانت متواطئة تواطؤًا مـباشرًا مع الحكومة ، ولا إن **جميع** الأخبار الخـاصة بإيران قد شوهـتها 'القيود' الأيديولوجية التى ناقشـتها ، بل ولا أرى أى سبيل على الإطلاق للموافقـة على احتجاز الرهائن ، وهو مـا أقر به منصور فرهانج نفـسه ، السفـير الإيرانى فى الأمم المتـحدة ، فى برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** يوم ٥ نوفمبر ، ولكن أحدًا لن يشك فى أن أزمـة الرهائن لعـبت دورًا لم يلق التـحليل اللازم حـتى الآن فى الديناميات المعقدة للثورة الإيرانية المستمرة ، وإن كان قد بدا لنا أن الاحتجاز الذى طال أمده قد خدم قضـية العناصر المتخلفة الرجعية

فى المجتمع الإيرانى . أما الآن وقد شارفت الأزمة على الحل والانفراج (أساسًا لأن الحرب مع العراق لم تعد تجعل لاحتجاز الرهائن أىَّ فائدة للسياسة الإيرانية الداخلية) فقد بدأت تظهر أوضاع جديدة . ومع ذلك ، فإن ما أقصده هو أن العالم الذى نعيش فيه يتميز اليوم بالتعقيد البالغ ، والاختلاف الشديد، بل ومن الأرجح أن يستمر فى إفراز أوضاع غير تقليدية (مهما تكن على غير هوى الأمة فى الولايات المتحدة) إلى الحد الذى تتعذر معه ترجمة كل شىء إلى ما يمكن اعتباره إساءة إلى القوة الأمريكية أو إعلاءً من شأنها . ولا ينبغى أن يواصل الأمريكيون اعتقادهم بأن أهم ما يعنيهم فى "الإسلام" هو مناصرته لأمريكا أو معاداته لها . فإن مثل هذه النظرة القائمة على كراهية الأجانب واختزال صورهم كفيلة باستمرار المواجهة بين الولايات المتحدة وسائر أفراد الجنس البشرى العنيد ، وهى سياسة تعنى توسيع نطاق الحرب الباردة بحيث يشمل جانبًا من الكرة الأرضية يفوق ما يمكن قبوله . وأظن أن بيننا من يعتبر هذه السياسة من باب الدعوة الإيجابية "لأسلوب الحياة الغربى" ، لكننى أعتقد أيضًا أننا لن نخطئ إذا قلنا إن أسلوب الحياة الغربى لا يتضمن بالضرورة إثارة العداء والمواجهة باعتبارهما من وسائل إيضاح مفهومنا للمكانة التى نشغلها فى العالم .

ولابد لى الآن من عرض آرائى الخاصة بإيجاز شديد عمّا أصفه بالموقف السياسى العالمى الناشئ (والذى تمثل إيران إحدى

بوادره الكبرى) . يقول الكثيرون إن قوة أمريكا آخذة فى التدهور، لكننى أقـول إن الوعى السيـاسى قـد انتشـر فى المزيد من مناطق العـالم فـأدى إلى انحسـار احـتـمال رضى هـذه المناطق بمواصلة الدوران فى فلك المستعمرات التابعة لغيرها ، أو البقاء فى صفوف الحلفاء دون تفكير . وإيران وأوروبا الغـربية اليوم ، على الترتيب، يمثـلان ما أعنيـه . أضف إلى ذلك أنه لا حاجـة بنا إلى الظن أن شعب أفغانستـان كان يريد غزو الاتحاد السوڤييتى لأراضيه أو إلى الظن بأن الإيرانيين كـانوا سعداء بمناصـرة الولايات المتحـدة للشاه السابق ، فـالحالان متمـاثلان . وأعتقـد أنه من الخطأ والحمق أن تعتبر أن "الإسلام" كتلة موحدة ، كما أعـتقد أنه من قبيل سوء الرأى السياسى أن نـتعامل مع "أمريكا" كما لو كانـت فردًا لحقه الضرر لا باعتـبارها نظامًا معـقّدًا . وأعتقد من ثـم أننا فى حاجة لمعـرفـة المزيد عن العـالم ، لا العكس ، وهكذا يجب أن نتـوقع مـستـويات أرفع مما لدينا الآن لنقل الأنبـاء ، ومزيدًا من الحـذق الإعلامى ، ومزيدًا من الحساسـية والدقة فى إبلاغنا بما يجرى من حولنا فى العالم . ولكن هذا يعنى ، ولا شك، أن نتـجاوز كثيرًا ما يتاح عـادة للصحفيين العاملين فى مجـتمع ما ، وهو الذى (أ) يتشكل وعـيه أساسًا فى ضوء الأزمـات الطارئة أو بدوافع تعصب عرقـية غيـر مشروطة ، و(ب) يتـمتع بقدرة مـذهلة على أن يبنى لنفسه هياكل بالغة التعقيد من المعلومات استنادًا إلى بعض القوالب اللفظيـة التى يلتقطهـا بسرعـة ، والمصالح الذاتـية ذات التعـريف

الضيق و(ج) لم يشكل تاريخ تفاعله مع الشعوب الإسلامية البالغة التنوع ، فى الآونة الأخيرة ، إلا النفط أو بعض الحكام الذين يعود عليهم تحالفهم مع الولايات المتحدة (مثل الشاه السابق) بفوائد محدودة ، وتتسم بالقصور الشديد فى فحصها ، مثل "التحديث" ومناهضة الشيوعية .

وأما تجاوز ذلك كله فهو شاقٌ عسير . وانظر كيف يخوض مراسلو معظم كبرى الصحف الأمريكية وشبكات التليفزيون نضالاً بطوليًّا فى أداء واجب متصل الحلقات ، وهو العودة بموضوع صحفى ، وهم يجهلون ، مع ذلك ، فى العادة لغة المنطقة التى يغطونها ، ويفتقرون إلى الخلفية الخاصة بها ، ويتعرضون للنقل إلى منطقة أخرى بعد فترة 'خدمة' قصيرة فيها ، حتى بعد أن يكونوا قد بدأوا إرسال مادة صحفية مهمة . ومهما يكن حظ الفرد من الموهبة ، فلن يستطيع التغطية الإعلامية لبلاد معقدة التركيب مثل إيران أو تركيا أو مصر دون قدر ما من التدريب وإقامة طويلة فيها . وانظر مثلاً كيف أن چيمز ماركام ، القدير الموهوب الذى غطّى أنباء الحرب الأهلية اللبنانية لصحيفة **التايمز** فى ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، كان قد عاد لتوه من ڤيتنام ، وبعد أن قضى قرابة عام فى الشرق الأدنى ، نقلته الصحيفة إلى إسبانيا ، وكيف أن أنباء بلاد الشام بأسرها قد تولى تغطيتها هنرى تانر ، بصورة متقطعة لصحيفة **التايمز** ، وهو الذى كان مقره فى روما ، بسبب رحيل جون كفنر ، إلى طهران ، ثم تولاها نيكولاس كيدج من بعد

تانر، وأما مارڤين هاو ، المراسلة السابقة فى بيروت (والتى كان من المفترض أيضًا أن تغطى أنباء الأردن ، وسوريا ، والعراق ، والخليج) فقد قضت عامًا واحدًا فى بيروت بعد إقامة قصيرة فى البرتغال ، ثم نُقلت بعد ذلك بعام ، فى خريف ١٩٧٩ ، إلى أنقره . فإذا قارنّا ذلك بالمعمول به فى بعض الصحف الأوروبية ، برزت لنا بوضوح أخطاره ، وهى التى يرتكبها أصحابها فى حق أنفسهم : إن صحيفة **لوموند** الفرنسية لديها إريك رولو ، الذى يتكلم العربية بطلاقة ، وتولى تغطية أنباء المنطقة لما يقرب من ربع قرن ، وصحيفة **الجارديان** البريطانية لديها داڤيد هيرست، الذى يجيد لغات المنطقة كذلك، ولديه خبرة لا يقل طولها عن خمس عشرة سنة . (ولكن تغطية الصحافة الأوروبية للأنباء الخارجية لا تقل ضعفًا، فى معظم جوانبها الأخرى ، عن نظيرتها الأمريكية). وأما احتمال عدم قيام مراسلى الشبكات التليفزيونية بالتغطية اللازمة ، ومن الأرجح أن يكون هؤلاء أشد تجوالاً حتى من مراسلى الصحف ، فيجعل من مراسل الصحيفة دائرة معارف ومثالاً للوداعة إن قورن بمراسل التليفزيون .

وأظن أن التذبذب الشديد فى المستوى ، وهو ما اعتدناه فى ما تنشره الصحف الأمريكية عن الشرق و"الإسلام" ، لن يحظى بالسكوت والرضا إذا كانت الأنباء تتعلق بأوروبا الغربية ، وإن كان ذلك لا يعنى أن مشكلات تغطية أوروبا الغربية قد وجدت الحل ، ولكننى أجد من الصعب ، على أى حال ، أن أفهم سر اتفاق

جميع المسئولين فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة، فيما يبدو، على أن مدرسة كتابة الأخبار 'بعيون جديدة' أجدر بالثقة من الاستناد فى كتابتها على الخبرة الطويلة بالمنطقة . ولقد شاهدنا بعض المراسلين التليفزيونيين من ذوى الكفاءة مثل مورتون دين ، وچون كوتشران ، وجورج لويس ، وهم يتحولون أثناء الأزمة الإيرانية إلى ''خبراء'' أمام عيوننا ، لا بسبب إحاطتهم بالمزيد من العلم ، بل لمجرد افتراض أنك إذا مكثت فى بقعة ما فترة زمنية قصيرة ، فسوف تكتسب المعرفة الكافية بها . وأما ما شاهدناه فى الواقع فهو استناد الصحفى إلى ضرورة إعداد موضوع صحفى ما، ويزداد فى غمار ذلك افتقاره إلى العين الناقدة (على نحو ما رأينا مثلاً فى المناقشات اليومية فى المساء بين چون تشانسلور وبين لويس كوتشران) ويقل اعتماده على التحليل وجمع الأخبار فى الواقع الفعلى . وهكذا اعتدنا التضحية بالدقة ، وإن لم تكن الدقة من فضائل أجهزة الإعلام فى يوم من الأيام ، فى سبيل إعداد الموضوع الصحفى ونشره ، سواء جدّ جديدٌ جديرٌ بالنشر حقًّا أم لا .

ولكن بعض الضغوط الأخرى تلعب أيضًا أدوارًا مهمة ، فالعاملون فى الصحف المطبوعة يدركون أن مراسلى شبكات التليفزيون قادرون على إعداد موضوعات إعلامية تخطف الأبصار بصورها ، دون مبالغة ، كل ليلة ؛ كما أنهم يعملون حسابًا لما من شأنه أن يجتذب القراء ، والموضوع فى نهاية المطاف لا يكاد

يتميز بالتغطية الفعلية ، أو بالدقة أو الأهمية الحقيقية . وقد أدت المنافسة بين الكلمة المطبوعة وبين الصورة إلى زيادة التأكيد على ما هو غريب فى الإسلام الشيعى ، وعلى تقديم صور سيكلوجية للخومينى ، وإن كانت هذه المنافسة نفسها تفسر التجاهل فى التغطية الإعلامية لشخصيات وقُوىً نشطة فى داخل إيران . ومما له أهمية أكبر ، ويؤدى إلى تشويه أخطر ، استخدام أجهزة الإعلام كقنوات اتصال دبلوماسية ، وهو من جوانب "قصة إيران" التى أشارت إليها مجلة **برودكاستنج** (الإذاعة) فى٢٤ ديسمبر ١٩٧٩. فلقد كان الإيرانيون ، مثلما كانت حكومة الولايات المتحدة ، على علم تام بأن التصريحات التى ينقلها التليفزيون ليست موجهة فقط إلى الذين يريدون الأنباء بل أيضًا إلى الحكومات ، وإلى أنصار فصيلة من الفصائل ، وإلى بعض القواعد الشعبية السياسية الجديدة والناشئة . ولم يقم أحد بدراسة ما لهذا من تأثير فى "تحديد ما يصلح خبرًا" ، ولكننى أعتقد أن إدراك الصحفيين الأمريكيين لهذا يضع قيودًا معينة على تفكيرهم ويدفعهم إلى اختزال صورته فى ثنائيات المواجهة بين "نحن" و"هم" ، وإن كان هذا التفسير الحرفى للمشاعر الجماعية قد أدى إلى إيضاح مظاهر عجز الصحفيين وعدم دقتهم ، لا إلى زيادة إخفائها .

ثالثا : الافتراضات الخفية التى لم تفحص :

كفى بالصحفىّ سوءًا أن يفتقر إلى الدقة ، لكننى أرى أن الكتابة الصحفية التى تستند إلى افتراضات مسبقة عن الوضع الراهن أسوأ ، إذ نُشر فى عدد يناير - فبراير ١٩٧٩ من مجلة **كولمبيا جورناليزم ريڤيو** مقالٌ يتناول أسلوب تغطية أنباء نظام حكم الشاه فى أجهزة الإعلام بالولايات المتحدة ، وقد بيّن مؤلفا هذا المقال الذى يتسم بدرجة فذة من الفطنة ، وبأدلة مقنعة ، أن "الصحافة ، إن شئنا الإجمال ، قد قبلت بصفة عامة حجة الشاه المضمرة والتى تقول إن أفضل الموارد الأيديولوجية التى يستطيع شعبه حشدها هو التعصب الدينى والشيوعية" (٩) وعلقت مجلة **سيَانس** أيضًا فى عددها الصادر فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٩ على العجز عن الفهم ، لكنها ألقت بالمسئولية عن ذلك ، بصورة أكبر ، على عاتق أجهزة الدفاع والاستخبارات برمّتها . وأما أعمق عرض وأدق تفصيل لهذا الرأى فقد ورد فى مقال كتبه هيرمان نيكيل فى مجلة **فورتشن** ، فى عددها الصادر فى ١٢ مارس ١٩٧٩ . ولكن النتيجة التى توصل إليها نيكيل ، وتتسم بالحكمة ، لم يلتفت إليها أحد بصفة عامة . يقول نيكيل :

> إن جذور فشل أمريكا [فى إيران] أعمق مما توحى به الأخطاء التكتيكية، فهى جذور تتغلغل فى أعماق الماضى.
>
> ولن نستطيع إجراء بحث يعود بفوائد حقيقية فى المستقبل إلا إذا تتبعنا هذه الجذور بصبر وتفكير منصف .

ولابد أن نكرر القول بأن أى جهد تبذله الولايات المتحدة لمحاسبة نفسها يجب ألا يجرى من خلال تبادل التهم بأسلوب انفعالى ويؤدى إلى الانقسام ، فى البحث عن إجابة للسؤال "من ضيّع الصين من أيدينا ؟" وهو السؤال الذى تسبب فى تسميم الأجواء السياسية فى الأربعينيات والخمسينيات . والفترة الأخيرة من تاريخ سياسات الولايات المتحدة تجاه إيران ليست قصة واضحة إلى الحد الذى يتيح للمتنبئين الحكماء الذين طال تجاهلهم أن يقولوا إن من حقهم الآن أن يرفعوا أصواتهم ويوجهوا أصابع اتهامهم . لا ! إن مسئولية الفشل ، فيما يبدو ، يشارك الجميع فى حملها مشاركة تدعونا جميعًا إلى الإحساس بالتواضع .

لقد كانت المبالغة الخطيرة فى تصور قدرة الشاه على حكم إيران تمثل خطأ فى الحكم احتضنته بنفس القدر من الثقة حكومات الحزبين الجمهورى والديموقراطى . ولم تكن تسمع فى قاعات الكونجرس أصوات الشك أو الاختلاف ، مثلما لم تكن تسمع فى مجالس البيت الأبيض .

وأما المناظرات التى توازن بين المسائل السياسية البناءة، لا التراشق بالاتهامات الشخصية ، فقد يكون من اللازم أن نبدأ بتجديد وعينا بأن الأمم الأخرى ليست على أى حال ملكًا لنا حتى نقول إنها "ضاعت من أيدينا" .

وإذا كـان على الأمـريكيين أن يخرجـوا بدرس واحـد من مأساة ڤيتنام ، فهو أننا لا **نمتلك** القدرة على إملاء مجرى الأحداث فى البـلدان العريقة التـى تعيش فى كنف التـأثير العميق لما لدى كل منهـا من تاريخ وثقافة ودين . وإذا كان الدور الذى تضطلع به البوذية فى جنوب شرقى آسـيا كثيرًا ما بدا لنا محيّرًا عسير الفـهـم ، فلقد أثبت دور الإسلام فى إيران أنه أكبـر وأكثر إثـارة لحيـرة راسمى السيـاسات الأمريكيين .

وبعد انقـضاء ما يقـرب من عام كامل ، كـانت المواقف التى توحى بالملكية [أى امتلاك إيران] وتقوم على تبادل الاتهامات ، لا تزال سائدة ، وقـد أضيفت إليـها مفـارقة أخرى وهى أن أجـهزة الإعلام ، بصـفة عامـة ، كانت تجد صعـوبة ، فيمـا يبدو ، فى التسليم بأن الثورة نفـسها قد قامت فعلاً - وبصـورة قاطعة . خذ مثـلاً أن معظم الصحـفيين كانوا يشيـرون إلى محمـد رضا بلقب "الشاه" لا بعبارة "الشاه السابق" . كما أن أجهزة الإعلام ظلت حتـى منتصف عـام ١٩٨٠ (وهو الوقت الذى بدا فيـه أن الجناح اليمينى للثورة بدأ نجمه فى الصـعود) تركز على نشر أنباء الفظائع وإعدام الأشـخاص والتى زادت نسـبتهـا كثـيرًا عن أنبـاء الصراع السـياسى فى البلد ، وهو الـذى كان أبعـد ما يكون عن الحسم ويجـرى علنًا فى الـواقع الفـعلى . وقـد كنت أتصـور أن أحـد الصحفيين سوف يدرك أن تفصيل القول فى دلالة وجود اثنى عشر

حزبًا سياسيًا تتنافس على السلطة والنفوذ ، فى جو خال نسبيًا من التعـذيب والسجن، بعد عقـود طويلة من القمع الشديد ، وفـيما يعنيه ذلك للكيان القومى لبلد من البلدان ، أمر جدير ببذل الجهد فيـه . ماذا يعنى لأمة أن يكون لهـا قائد يتمـيز ، على الرغم من عناده وعدم جاذبيـته من عدة جوانب ، بأنه يشـغل موقعًا رسـميًا غير محدد بوضـوح، وبأنه لا يولى الحكم المركزى اهتمامًا زائدًا ، وبأنه يتمتع بالتـبجيل الواضح ، ويبدو ذا مهارة فـائقة فى الحفاظ على انشغـال الفصائل الاثنـتى عشرة بعـضها بالبـعض وإن كانت تخضـع لسلطانه فى النهاية ، وبأنه يتكـلم باقتناع وثقـة لا حدود لهما بالمسـتضعفين ؟ ومـا أقل الموضوعات الصحـفية ، فى الأيام الأولى لأزمـة الرهائن ، التى قالـت إن الحكومة فى إيران كـانت مؤقتة على أفضل تقدير ، ريثما تكتمل إقامة دولة جديدة ، أو إنه فى مـعظـم فتـرات عام ١٩٧٩ كـان النقاش دائرًا فى إيران حـول الدستـور وهيكل الحكومة ، أو إن فى إيران أحـزابًا متعـددة تبذل جهودًا جبـارة (دينية أو علمانية ، يمينية أو يسـارية) أو إن عشرات الصحف كـانت تصدر بانتظام ، أو إن الشعب كان يناقش قـضايا سياسيـة حقيقية ، (لا يمكن اختزالهـا بأى حال وتصويرها بصورة التـحـزب الطائفى أو العـرقى أو الدينى) وإن أعـدادًا كبـيـرة من الإيرانيين يشـاركـون فـيـهـا ، أو إلى أن الصـراع بين آيات الله (الخومينى وشـريعت - مدارى وغيرهمـا) كان يتعلق بالتفـسيرات السياسية إلى جانب التفسيرات الدينية للمبادئ الإسلامية ، أو إلى

أن مستقبل إيران قد لا يندرج ، بالضرورة ، فى الأنساق التى يراها المحررون من الطبقة الوسطى فى الصحف الأمريكية مطلوبة أو غير مطلوبة .

وأما أشد ما يصعب فهمه فى قطاع التحرير الصحفى وإعداد التحقيقات الصحفية فى أجهزة الإعلام فهو السبب الذى حدا بالعاملين فيه ، دون استثناء تقريبًا ، إلى النظر بهذا القدر الكبير من الاحتقار والريبة إلى الحركة التى أسقطت الأسرة البهلوية المالكة وأتت إلى الحكم بجماعات مختلفة، وربما كانت تتمتع بشعبية أكبر ، إذ يشير هال جاليفر فى صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٧٩ إلى "الهمجيين الجدد الذين أطلق لهم العنان فى إيران" ولم يكن يشير فحسب إلى الطلاب الذين يحتجزون الرهائن بل إلى الجميع فى إيران . وإذا قرأت المقال الطويل الذى كتبه يوسف إبراهيم ، وهو المقال الذى يفصح فى ظاهره عن الخبرة ، فى المجلة التى تصدر يوم الأحد مع **نيويورك تايمز** ، فى يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٩ فسوف تقتنع بأن الثورة قد فشلت فعلاً ، وبأن إيران مكان يمور بالحمم البركانية المستعرة استياءً وخوفًا وحنقًا على الثورة . وأما أدلته فتكاد تنحصر فى بعض الانطباعات الشخصية ، ومقتطفات من أقوال وزيرين ، وتتكون فى معظمها من مناقشات مع أحد رجال المصارف ، وأحد المحامين ، وأحد مديرى شركات الإعلانات .

ولا يعنى هذا أنه لا ينبـغى للصحفـيين استطلاع الآراء ، أو إحـاطة قرائهـم بهذه الآراء ، لكنه حين تـتحـول هذه الآراء إلى حقيقة واقعة ، تتحـول الصحافة فجـأة إلى نبوءات تحقـق رغـائب أصحـابها. فإذا افْـتَرَضْتَ أن الثـورةَ الإيرانيةَ شرٌ لأنـها تستـخدم مصطلحات المقاومة الدينية والسيـاسية فى تصدّيها للطغيان ، وهى المصطلحات البالغة الغرابة والجدّة (فى عيون الغرب) فسوف تشرع فى البـحث عن هياج الحـمـاسة غـير العـقـلانية وتجـده فى كل الأحوال. وانظر مـعى إلى ما يقـوله راى موزلى فى مـقال عنوانه "الالتزام بشىء واحـد والتعصب يـستبـدان بإيران الثورية" نشرته صحيفة **شيكاغو تريبيون** يوم ٢٥ نوفمبر :

> إن الذين يرون الموت شرفًا يُعتبرون، تعريفًا، متعصبين. ويبـدو لنا أن شهـوة الدم الثـأرية والتحـرق شوقًـا إلى الاستشهاد سمتـان يتسم بهما ، على وجه الخصوص ، الشيـعة المسلمـون فى إيران . وهذا هو الدافع الداخلى الذى جعل آلاف المواطنين العـزل يقفون فى تحد سـافر للجنود المسلّحين بالأسلحة الأوتوماتيكية أثناء الثورة .

إن كل جملة من هاتين الجـملتين تتضمن افـتراضات خلافـية إلى حد بعـيد ، ويعرضهـا الكاتب علينا باعتبارها حـقائق ، وإن كـانت تبدو مـقبـولة بصـفة عـامة مـا دام الأمـر يتعلق بالثـورة الإسلامية. ومـعظم الأمريكيين لا يعتبرون باتريك هنرى متـعصبًا لأنه قال "أعطنى الحـرية أو الهلاك" . كمـا إن الرغبـة فى قتل

المواطنين الفرنسيين الذين كانوا يتعاونون مع جنود الاحتلال النازى (بل إن آلافًا مـؤلفة منهم قتلوا فـعلاً فى غضون أيام مـعدودة) لا تعنى أننا نسـتطيع وسم الفرنسـيين بهذه السمـة بوجه عـام . وما قولك فـى الإعجاب البـالغ الشيـوع بالأشخـاص الذين تدفعـهم الشجاعـة الأدبية إلى الوقوف فى وجه الجنود المسلـحين وإرغامهم على التقهقر ؟

وكان مما دعم هجـوم موزلى على إيران مـقال افتـتاحى بالغ الطول نشرته الصحيفة التى يعمل بها فى اليوم نفسه ، ويوجه إلى الخومينى تهمة هائلة هى ''شن حرب مقـدسة على العالم'' وعاد موضوع الحرب المقدسة أو الجهاد إلى الظهور فى مقال كتبه إدموند بوزويرث فى صحيفة **لوس أنجيليس تايمز** يوم ٢ ديسمبر ويتناوله فيه تناولاً شديد الغرابة . فإذا نحينا جانبًا تلك الحقيقة التى ذكرها فضل الرحمن وهى أن ''الخوارج المتعصبين قد انفردوا بين المذاهب الفقهيـة الإسلامية المتأخرة بإعـلان أن الجهاد يمثل ركنًا من 'أركان العقـيدة' [١٠] '' نجد أن بوزويرث يواصل مـقاله بمنهج عـشوائى فيقـدم كمية كـبيرة مما يعتـبره من ''الأدلة'' التاريخيـة على صحة نظريته التى تقول إن **جميع** ضروب النشاط السياسى فى الفترة التى تمتـد نحوًا من ألف ومـائتى عام ، وفى المنطقـة التى تضم تركـيا وإيران والسودان وإثيـوبيا وإسـبانيا والهند ، يمكن تفـسيـرها بأنها تقوم على الدعوة الإسلامية للجهاد .

وإذا كانت المبالغة الهجومية من طرائق التعبير التى تشيع بين الصحفيين فى وصفهم لإيران ، فإن الطريقة الأخرى هى التلطف فى التعبير ، وهو ما يسئ الصحفيون استعماله ، عادةً بسبب الجهل ، وإن كان السبب يرجع فى حالات كثيرة إلى عدائهم الأيديولوجى الذى لا يكادون يخفونه . وأشد أشكاله شيوعًا إيراد الصحفى "لتفسير" مقبول ظاهريا من عنده ليستعيض به عن الواقع الفعلى . فلقد كان نظام الحكم الإيرانى السابق هو الموضوع الوحيد الذى لم تتعرض له الصحف وبرامج التليفزيون إلا بصورة سطحية على امتداد الشهور الثلاثة الأولى من بداية احتلال السفارة الأمريكية فى طهران ، إذ لم يكن من المفضّل جماهيريًّا أن يأخذ أحدٌ مأخذَ الجدِّ مظالم الإيرانيين الحالية ضد الملك المخلوع ، وضد السياسة الأمريكية (التى طال عليها الأمد) بمناصرته دون تحفظ . كذلك لم تر الصحافة أن عليها أن تبحث البحث اللازم موضوع انتهاك السيادة الإيرانية فى أغسطس ١٩٥٣ ، عندما تضافرت وكالة الاستخبارات المركزية مع شركة النفط الانجليزية الإيرانية فى تدبير إسقاط محمد مصدق[١١] (وهو ما أفاض القول فيه كيرمت روزفلت فى كتابه الأخير **الانقلاب المضاد** والذى تعجل فى سحبه من الأسواق) وأما سبب تجاهل الواقعة فهو افتراض أن الولايات المتحدة بصفتها دولة عظمى من حقها تغيير الحكومات والعفو عن الطغاة إذا كان ضحاياهم من الأميين ومن الأجناس غير البيضاء ، وفقًا لتقديرنا . وقال جورج أ. جروس ، وهو من الأطباء

النفسيين العــاملين فى مقال نشرته صحــيفة **نيويورك تايمز** يوم ١١ يناير ١٩٨٠ إن الولايات المتــحدة عندمــا سمــحت للشاه الســابق بدخول نيــويورك كانت فى الواقع تصفح عنه ، وكان ذلــك عملاً "مجافيًا للمبادئ الأخلاقية" مثلما كان قرار جيرالد فورد بالعفو ، فى عظمــة ، عن ريتشارد نيكســون يدل على "النقص فى قدرته على إصــدار الأحكام فى إطار أخلاقــى ، وفقــدانه التعــاطف مع الآخرين حين يغضبون لما يمس الخلق الكريم" .

ولكن أمثال هذه الملاحظات كانت قليلة وتفــصل بينها فترات طويلة . إذ إن مــعظم كتــاب التحــقيــقات الصــحفــية والمقــالات الافتتاحيــة لم يكونوا يتجاوزون التلطف فى التعبير . وكــانوا فيما يبدو يتفقــون على أن الإيرانيين قد قاموا بعمل حــربى ضد سفارة الولايات المتــحدة ، وإن لم يقل أحــد ، تقــريبًا ، إن مــا فعلتــه الولايات المتحدة ضد إيران عندمــا أسقطت مصدق فى عام ١٩٥٣ كــان عمــلاً حربيًــا . وهاك المثال المعــهود على ذلك ، إذ كــتب إرنست كونين فى افتــتاحية **لوس أنجيليس تايمز** يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٩ يقول :

> يبدو أن الأنبــاء الصحفــية تؤكــد صحة مــا يقول بــه خبــراء الشرق الأوسط من أن مــا نشهده حــقا هو التــمرد الواسع النــطاق على المؤثرات الدافــعــة على القلقــلة التى صاحــبت حركة الــتحديث بالأسلوب الغــربى فى السنوات الأخيرة .

إن كراهيـة الشاه لا ترجع فـقط إلى أن رجال شـرطته كانوا يعذبون الناس ، بل أيضًا إلى أنه رفع الدعم الحكومى الذى كان يتقاضاه رجال الدين ، وإلى أنه قاد ثورة صناعية تسـببت فـى اقتـلاع جـذور الإيرانيين من أسـاليب الحيـاة التقليدية فى الريف .

وأما سـبب اختـيار ''الشيطـان أمريكا'' لدور الشرير الرئيسى، لا فى إيران فحسب بل فى بلدان أخرى كذلك ، فهو أن الولايات المتحـدة ظلت على مدى ٢٥ سنة ، القوة الأشد بروزًا فى المنطقة ، وأصبحت من ثم الرمز 'الجاهز' للقـوى الأجنبيـة التى تسـببت فى هذه الـتغـييـرات غيـر المستحسنة لديهم .

إن جانبًا كبيرًا من هذه الحجة المقامة ضد الإيرانيين تستند إلى افتـراضات غـير مـصرح بـها ، وهكذا فـلابد من قراءتهـا بعناية وحرص ، إذ إن كونين يقول ضمنًا ، أولاً ، إن ''المؤثرات الدافعة على القلقلة'' التى صاحب حركة ''التحديث بالأسلوب الغربى'' هى نتيـجة للمحاولة التى بـذلها الغرب بحسن نيـة لإخراج إيران والإسـلام من الماضى إلى الحاضـر ، وبعـبارة أخـرى ، إن إيران والإسلام متخلـفان والغرب متقدم ، ولا غرو إذا عـانى المتخلفون فى مـحاولتـهم اللحـاق بركب التـقـدم . ولكن ذلك من أحكام القيمة، وهى أحكام تقبل الطعن فيها بوضوح وجلاء وهى تستقى جـوهرها ، كـمـا ألمحت فى الفـصل الأول ، من أيديولوجـيـة

التحديث . وإلى جانب ذلك ، يفترض كونين ، دون أى مبرر سوى تحيزه العرقى الضيق ، أن الإيرانيين لم يغضبوا من التعذيب قدر غضبهم من إهانة 'رجال الدين' لديهم، وهو يسميهم عمدًا تسمية توازى ، حرفيًا ، تعبير 'رجال القداسة' أو 'المقدسين' ، للإيحاء بالشعوب البدائية وأطبائهم السحرة الذين يُطلق عليهم هذا التعبير . وهو يوحى ، بالإضافة إلى ذلك بأن الإيرانيين قد لا يشاركوننا ما يخامرنا "نحن" من أحاسيس . وآخر مسألة يطرحها ترتبط بهذه المسائل وتطوّرها ، إذ يعتبر أن الإيرانيين المتخلفين قد أخطأوا بعدم تقديرهم الجهود القائمة على النوايا الحسنة التى بذلها الأمريكيون والنظام البهلوى لتحقيق التقدم فى إيران ؛ وهكذا لا يكتفى بتبرئتنا "نحن" ، بل يدين الإيرانيين إدانة خفية لجهلهم بقيمة نمط الحداثة لدينا ، ولهذا يعتبر الشاه السابق (فى رأيه الموحى به) شخصية نبيلة سامية .

ولم نلمح إشارات تذكر إلى الحقيقة التى ليست خفية باطنة، بل ولا يصعب الوقوف عليها ، وهى أولاً أن الشركات الأمريكية العاملة فى المنطقة قد حققت أرباحًا طائلة (ولم يكن من الصعب إقامة الصلة بين زيادة أرباح شركات النفط بنسبة ٢٠٠ فى المائة فى السنوات القليلة الماضية وبين ثروة الأسرة البهلوية) وثانيًا أن معظم الإيرانيين ، مثل الملايين الكثيرة من العرب الذين لا يستفيدون مباشرة من النفط، يرون أن الثروة المرتبطة بالأمريكيين تمثل عبئًا من لون ما . وأما إذا قيل إن الشاه كان يلجأ أحيانًا إلى قليل من

التعذيب ، على نحـو ما ذكرت **واشنطن بوست** فى ١٦ ديسمبر "فلنا أن نحـتج بـأن ذلك كـان يتـفق تمامًـا مع تقـاليـد التـاريخ الإيرانى". ويبدو أن المعنى الموحى به هنا هو أنه لما كان الإيرانيون قد تعرضوا على مـر التاريخ للتعذيب فإن أى محـاولة من جانبهم لتـغييـر هذا القَـدَرِ المكتوب تدخل فى باب خـيانتـهم لتاريخـهم الخاص، ناهيك بطبيعتهم الخاصة .

وفـيمـا يلى هذا الموقف المنطقـى الذى لا يمكن دحضـه (!) والذى طالعنا فى موضـوع صحفى كـتبه أ. شـانش فى صحيـفة **لوس أنچيليس تايمز** بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، إذ يقول إنه لما كان الدستور الإيرانى الجديد "من أغرب الوثائق السياسـية فى العصر الحديث" ولما كان لا يشبـه الدستور الأمريكى شـبهًا كبيـرًا (فهو يخلو من الضـوابط !) فإن صـعود الخـومـينى إلى السلطة لا يقل سوءًا عن جلوس الشـاه على العرش . والواقع يقول إن الدسـتور الإيرانى الجـــديد ينص ، نظـريًا على الأقـل ، على "الأحكام الخاصـة بانتخاب رئيس الجمـهورية ونواب البرلمان انتـخابًا شعبيًّا وعلى وجود جهاز قضائى منظم" ولكن شانش لا يقيم وزنا لهذا أو لذاك باعـتـبارهمـا (فى رأى شـانش) "من مظاهر الزخـرفـة الديمقراطية". أى إن شانش لا يشير إطلاقًـا إلى ما عرضه إريك رولو وقدم لـه تحليلاً مفـصّلاً فى صـحيـفة **لوموند** يومى ٢ و ٣ ديسمبر ١٩٧٩، ونعنى به المناظرة الحامية الوطيس بشأن الدستور، والخلافات التى نـشأت حول دور الخومينى على وجـه الدقة وهلم

جرًا . وبعبارة أخرى فإن شانش كان يقدم رأيه الخاص ، أى رأى المحرر الصحفى ، على أنه الحقيقة الواقعة للدستور الإيرانى ، على الرغم مما كان يقع أمام عينيه فى الواقع . وأما ما تلا ذلك من أحداث جعلت النظام الجديد فى إيران لا يبدو مبشرًا بأى خير بحلول منتصف عام ١٩٨٠ فكان من قبيل المصادفة المحضة وثمرة لنضال مرير ، كانت نتيجته محبطة لآمال الكثيرين من الإيرانيين (وغير الإيرانيين) من مناصرى الثورة . وكذلك ، وبلا شك ، كان ظهور مرشح للرئاسة يمثل أقصى اليمين فى الولايات المتحدة - أى أنه كان مصادفة لا تقل إحباطًا للآمال !

وباستثناء أندرو يَنْج ، وهو استثناء جدير بالتنويه ، لم يعلق واحد من الشخصيات العامة البارزة فى الولايات المتحدة ولم يقل أى شىء فى عام ١٩٧٩ عما كان النظام السابق يعنيه للإيرانيين الذين اتخذوا ما اتخذوه من إجراءات ضد الولايات المتحدة ، ولم يذكر أحد شيئًا عن ذلك للمراقبين مثل القساوسة الثلاثة الذين تولوا إقامة صلوات عيد الميلاد فى طهران فى السفارة، ولا لجماعات رجال الدين المسيحى الذين كانوا فى طهران فى أواخر ديسمبر (وظهر هؤلاء وهؤلاء فى برنامج ماكنيل / ليرار يوم ٢٨ ديسمبر و يوم ٤ يناير) . ولقد شاركت الصحافة فى هذا الصمت إذ ظلت تتعامل مع الشاه السابق لما لا يقل عن عشرين يومًا من دخوله الولايات المتحدة باعتباره حالة إنسانية لا يجوز فيها إلا التعاطف والإشفاق ، فبدا ، بعد تجريده من ماضيه السياسى ، لا

علاقـة له ، على نحو ما ، بما يحـدث فى السفارة الأمـريكية فى طهران . وحاول بعض الصحفيين ، وعلى رأسهم دون أوبردورفر من **واشنطن بوست** ، اقتفـاء الخطوات الملتوية التى اتخذها داڤيد روكيفـيلر ، وهنرى كيسنجر ، وجون مـاكلوى ، للضغـط على حكومة الولايات المتحـدة حتى تقبل حضوره إلى هنا . ولكن هذه الحقـائق ،وكذلك الارتبـاط الطويل الأمد بين الشاه الـسابق وبنك تشـيس مانهـاتن – وهو الارتباط الذى كـان يمكن أن يساعـد فى تفسـير أسـباب عداوة الإيرانيين – لم يقل أحـدٌ إن لها أية عـلاقة بالاسـتيـلاء على السفـارة ، وقدم الـصحـفيـون بدلاً منها عـدة تفسيرات تتسم بالتلطف فى التعبيـر لأزمة الرهائن باعتبارها نتيجة لتلاعب الخـومينى ، وحاجـته إلى صرف أنظـار الشعب عنه إلى شىء آخر ، وللصعوبات الاقتصادية الداخلية وما شابه ذلك (انظر **لوس أنچيليس تايمز** فى ٢٥ و ٢٧ نوڤمبر، و ٧ ، و ١١ ديسمبر، وكذلك **واشنطن بوست** فى ١٥ نوڤمبر) .

لقد اقتنعت فى النهاية أنه ليس من قـبيل السخرية المفرطة أن نقول إن مـوقف حكومة الولايات المتحـدة برمته تجاه إيران (كـما يرمز له رفض الرئيس كارتر مناقـشة تعاملات البلد فى الماضى مع إيران ، وهى التى يصفها بأنها ''تاريخ غابر'') يعتبر وسيلة مفيدة لتحويل عـداء أجهزة الإعلام للإيرانيين وللإسلام ، وللعـالم غير الغربى بصفة عامة ، إلى رأس مـال سياسى له فى عام الانتخابات الأمريكيـة . وهكذا ظهر الرئيس فى صورةِ من يحـافظُ على قوة

أمريكا فى وجه الهجمات الأجنبية المنحطّة ، وكان هذا ، إذا قلبنا الصورة ، هو موقف الخومينى فى إيران . كان رفض كارتر استخدام القوة يعرضه أحيانًا لسهام الاحتقار التى يصوبها وليام سافاير وجوزيف كرافت ، ولكنه فيما يبدو قد أكد للجمهور أنه يدعم المعايير الغربية للسلوك المتحضر ، إذا قورن بما يفعله من أصبحوا يسمّون "بالإرهابيين" الإسلاميين . وكان من الآثار الأخرى للأزمة أنْ صوَّرَتْ أجهزةُ الإعلام بعضَ الحكّام الآخرين، مثل الرئيس السادات ، فى صورة 'المعيار' المرغوب فيه للإسلام (بعد أن ردَّدتْ ، مرارًا وتكرارًا ، وصفه للخومينى بأنه مجنونٌ وعارٌ على الإسلام) . وكان هذا يصدق أيضًا على الأسرة المالكة السعودية ، وأما ما لم تتناوله أجهزة الإعلام فى الوقت نفسه فكان يتمثل فى مقدار هائل من المعلومات المثيرة للقلق ، إلى جانب إطالة الأزمة إلى مدى بعيد فى حالة إيران .

خذ مثلاً السادات والسعوديين أولاً . لقد اتفقت الآراء منذ اتفاقيات كامب داڤيد عام ١٩٧٨ على أن السادات هو صديقنا فى المنطقة ، إذ اشترك مع مناحم بيجين فى التصريح علنًا عن استعداده للقيام بدور الشرطى الإقليمى ، وإتاحة القواعد العسكرية فى أراضيه للولايات المتحدة وما إلى ذلك بسبيل . وكان من نتائج ذلك أن معظم الأنباء التى تنقلها أجهزة الإعلام من مصر أصبحت تُصوّر وجهة النظر المذكورة فيما يتعلق بالشئون المصرية، والعربية والإقليمية ، فى صورة النظرة الصائبة . والأنباء التى تصلنا الآن

عن مصر والعالم العربى موجّهة لتأكيد تفوق سطوع نجم السادات، وبالمقارنة بهذه الأنباء لا يكاد يصلنا شىء عن المعارضة التى يواجهها ، كما إن الافتراض السائد هو أنه يمثل 'المعيار' السياسى والمصدر الرئيسى للأنباء أيضًا . وبطبيعة الحال كان ذلك نفسه ما حدث فى ظل نظام الحكم البهلوى فى إيران ، وإذا استثنينا مقالاً يتفرد بنبوءاته الصائبة كتبه باحث من بيركلى يدعى حامد الجار[١٢] لم نجد من يبدى أى اهتمام بإمكانيات المعارضة الدينية والسياسية للشاه . وتقوم الولايات المتحدة حاليًا بتحقيق عدد كبير من مصالحها السياسية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية من خلال السادات ، ومن خلال منظور السادات الخاص للأمور. ويرجع جانب من هذا إلى جهل أجهزة الإعلام، وإلى تفضيلها "للشخصيات" اللامعة البراقة ، وإلى الانعدام شبه الكامل للبحث والتحرى فى العمل الصحفى فى إطار المناخ الأيديولوچى السائد حاليًا فى مصر والشرق الأوسط.

ولسوف نجد أسبابًا أخرى لذلك أيضًا ، أحدها هو الجوانب **المحلية** الحساسة للشرق الأوسط . فليس من قبيل المصادفة ألا نطالع ، بعد فضيحة ووترجيت ، وشتى ما أميط اللثام عنه من أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية ، وصدور قانون الحرية الإعلامية ، أية ' مكتشفات' كبرى بشأن تورط الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . ويتضح هذا بالنسبة لإيران ، لا لأن الكثير من الأمريكيين كانوا مرتشين وحسب بل أيضًا بسبب انغماس

إسرائيل انغماسًا شديدًا فى أنشطة الولايات المتحدة فى المنطقة فى ظل نظام الشاه . إذ إنه أنشأ شرطته السرية بمساعدة مباشرة من جهاز الموساد الإسرائيلى ، وعلى نحو ما شهدنا فى حالات كثيرة أخرى ، كانت وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى يتعاونان عن طيب خاطر مع الأجهزة السرية الإسرائيلية(١٣) وقد نشرت الصحافة الإسرائيلية سلسلة من المقالات التى ترفع الستار عن الكثير فى عام ١٩٧٩ وفى أوائل ١٩٨٠ ، وكان من بين كتابها 'أورى لوبرانى' وآخرون ممن كانوا مكلّفين بإدارة التعاون بين إسرائيل وإيران قبل الثورة (انظر صحيفة **دافار**، ٢٠ مارس ١٩٨٠ ، وصحيفة **ها آرتس** ، ١٠ يناير ١٩٨٠) ولم تنشر الصحف الأمريكية أى شىء من هذا ، ربما لأنه قد يبدو محرجًا لإسرائيل وماسًّا بصورتها كبلد ديموقراطى محب للحرية . وفى الوقت الذى هبت فيه المؤسسة الاجتماعية فى الولايات المتحدة برمّتها لمعارضة أى اعتزام لتسليم الشاه السابق إلى إيران ، كان شاب فلسطينى فقير يدعى زياد أبوعين ، يكابد إجراءات الترحيل المطولة وما يصاحبها من عذاب ، لتسليمه إلى إسرائيل (إلى جانب رفض الكفالة وحرمانه من حق الحضور للشهادة) وبالتعاون الإيجابى من جانب وزارة الخارجية الأمريكية . وأما السبب (والسبب الأوحد) فكان أن الحكومة الإسرائيلية قد زعمت أنه كان إرهابيًّا مسئولاً عن حادث تفجير قنبلة قبل ذلك بعامين ، وكان ذلك الزّعم لا يستند إلا على اعتراف شخص آخر

وهو فلسطينى أيضًا ومن نزلاء أحد السجون الإسرائيلية ، وكان الاعتراف المنتزع منه ، والذى عَدَلَ عنه فيما بعد ، باللغة العبرية التى لا يعرفها . ولم يكد شىء من هذا يسترعى انتباه أجهزة الإعلام ، باستثناء المقالة المهمة التى كتبتها كلوديا رايت المحررة فى **نيو ستيتسمان** ، فى عددى ٧ يناير و ٢١ يناير ١٩٨٠ من مجلة **إنكوايرى** بعنوان "اللعب بتسليم الأشخاص" .

أضف إلى ذلك أن انتشار القلق على استقرار بلدان مثل المملكة العربية السعودية والكويت لم يؤد إلى أى اهتمام إعلامى يتناسب مع مستوى هذا القلق ، باستثناء الانتقادات الضيقة المحدودة و' الانتقائية' إلى أبعد حد ، والخاصة بما تتعرض له المملكة العربية السعودية من أخطار تحدثت عنها فى الفصل الأول. فإذا استعرضنا الشبكات التليفزيونية والصحف الكبرى لم نجد إلا ما أشار إليه إد برادلى ، فى محطة إذاعة كولمبيا ، يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، من أن جميع المعلومات الخاصة باحتلال الحرم المكىّ جاءتنا من الحكومة ، وأن الحكومة لم تسمح بخروج أنباء من أى مصدر آخر ، ولكن هيلينا كوبان ، المحررة فى **كريستيان سيانس مونيتور** نقلت من بيروت يوم ٣٠ نوفمبر نبأ يفيد بأن احتلال ذلك المسجد كان له معنى **سياسى** قاطع بكل تأكيد ، وبأن المعتدين لم يكونوا على الإطلاق من المتعصبين الإسلاميين فحسب، بل كانوا يمثلون جانبًا من شبكة سياسية لها ، إلى جانب البرنامج الإسلامى، برنامج علمانى يعارض بشدة احتكار الأسرة المالكة

السعـودية للسلطة والمال . وبعد بضعـة أسابيع ، اختـفى المصدر الذى اعتمدت عليه ، وهو أحد السـعوديين المقيمين فى بيروت ، والمعتقد أن الاستخبارات السعودية هى المسئولة عن اختفائه .

ومن المحتـمل ، بعد غزو أفغـانستان ، أن يزداد زيادة كبـيرة عمق الهوة التى نراها تفـصل بين الصالح والطالح من المسلمين ، وأن يزداد عدد الأنبـاء التى تهلل لمنجزات المسلمين الصـالحين مثل السادات وضياء الحق والمجاهدين الأفغانيين الذين يقاومون الغزو ، وأن تزداد معادلة الإسلام الصالح بمناهضة الشيوعية ، وأيضًا ، إذا أمكن ، بالتحـديث . ولكن ما أقل من يعادلـون مقاومة الأفـغان للاحتلال السوڤييتى بمقاومة الفلسطينيين للاحـتلال الإسرائيلى ، وهو ما أشـار إليه الملك حـسين ، عاهل الأردن ، حين ظـهر فى البرنامج التليـفزيونى "**لقـاء الصحـافة**" يوم ٢٢ يونيو ١٩٨٠ . وأما فى حـالة المملكة العربية السـعودية ، فإن الأخطار المصاحـبة للاسـتثـمارات الهـائلة فيـها لم يلتـفت إليهـا (وهو ما لا يـدعو للدهشة) إلا مـن يناصرون إسرائيل من الأمـريكيين ، إذ يرون أن الرعاية الأمريكية ينبغى ألا تـتحول من إسرائيل إلى العرب. ومن الشواهد علـى ذلك المقال الذى كتـبه پيـتر لوبين فى **نيو ريبـبلك** بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٧٩ بعنوان "ما لا نعرفه عن المملكة العربية السعودية" . وهو يقدم وجـهة نظر مـقبولة ، ولو أنـه يبالغ فى عرضـها ، وهى أن علينا أن نرفض الكثيـر مما يقال أو يكتب عن دول النفط الخليجية لأنه يقوم إما على أساس الدعاية للأسر المالكة

أو على الجهل . ومع ذلك فـهو يبدى العجـز الكامل عن توسيع نطاق انتقاداته حتى تشمل ما يكتب عن إسرائيل ، أو عن الانحياز لإسـرائيل ، الذى لا يسـتعـصى على الإدراك ، فى الكـثيـر من مناهج دراسات الشرق الأوسط بشتى الجامعات . وعلى غرار ذلك ، كـان يجب على لويين ، فى إطار إصـراره المحقّ على ضـرورة تحرى الصحـفيين للصدق فى المعلومات الخاصـة بحلفائنا من ذوى الثروات النفطية ، أن يقول مـا لم يقله من أن الكتابة عن إسرائيل تفتقر افتقارًا ، ذاع سوء صيته ، إلى الدقة العلمية والإنصاف .

رابعًا : بلد آخـر :

نسـتطيع تلخـيص كل ما قلتـه حـتى الآن عن تناول أجهـزة الإعلام للإسـلام وإيران فى الشهور الأولى لأزمـة الرهائن ، التى وصل فـيهـا التوتر إلى ذروته والـكرب إلى أقصى مـداه فى بضع نقاط رئيسـية . وأجدى أسلوب لإيضاح وصيـاغة هذه النقاط هو النظر فى التـصوير الأمريكى العـام لقصة إيـران ومقارنتـه بإحدى الصور الأوروبية ، وهى سلسلة المقالات اليومـية التى كتبها إريك رولو فى صحيفة **لوموند** الفرنسية ، والتى استمرت من أول أسبوع للأزمـة حتى آخـر ديسمـبر ، وعنـدما طلبت إيران بعـدها ، فى يناير، مغـادرة معظم الصحفـيين لإيران ، نشرت صحيـفة **التايمز** مقالات رولو المذكـور لعدة أيام. ومن المهم ، بطبيـعة الحال، ألا ننسى أن رولـو ليس أمـريكيًّـا ، وأن إيران لم تحـتـجـز رهائن فرنسيين، وأن إيران لم تكن فى يوم من الأيام داخل منطقة النفوذ الفرنسى وأن أجهزة الإعلام الفرنسية ليست أفضل كثيرًا ، باستثناء ما كتبـه رولو ، من نظيرتها الأمريكية . ومن المهم أيضًا أن نشير من جديد إلى أن الكمية المذهلة من المادة الإعلامية فى هذه التغطية أتاحت ظهور عدد معين من الموضوعات البالغة القيمة، والتى تتسم بأنها تعارض الـرأى المتفق عليه ، بصفة عـامة (وإن لم يكن ذلك فى جميع الأحوال) . ولننظر إلى بعض المقالات المختارة للنشر فى **لوس أنجيليس تايمز وبوسطن جلوب** ، وبعض المقالات الإبداعية عن البدائل المتاحة لاستعمال القوة ومحاولات التناول الجاد لحقائق

الواقع فى إيران (مثل مقال ريتشارد فولك فى **أتلانتا كونستيتيوشن** فى ٩ ديسمبر ، ومقال روجر فيشر فى مجلة **نيوزويك** فى ١٤ يناير) وبعض المادة الصحفية الممتازة عن خلفية السماح للشاه بدخول البلاد ، والتحليل السياسى الجيد الذى يصادفنا من حين لآخر ، والموضوعات الصحفية التى تتميز بالسرد الشائق ، (ومن الأمثلة ما كتبه دويل ماكمانوس فى **لوس أنجيليس تايمز** وكفنر فى **نيويورك تايمز**) فهذه بعض نماذج المادة الراقية التى نشرت فى الأسابيع القليلة الأولى لأزمة الرهائن ، وكانت فى متناول أى قارئ تقريبًا ممن كانوا يتطلعون إلى شىء يتجاوز الاتجاه الوطنى الضيق الذى كان الكتاب يلتزمون به فى أغلب الأوقات . وعلينا أن نذكر أيضًا مقالين يتسمان بالقوة البالغة ويتناولان النُّعَرَة الوطنية المفرطة التى ظهرت أخيرًا وتجلت فى تعليق شارات على الصدر عن "إيران النووية" وغيرها ، واللذين نشرا فى مجلة **إنكويرى** (٢٤ ديسمبر و ٧ -٢١ يناير) وأن نشير كذلك إلى المعلومات التى جاءت فى الوقت المناسب تمامًا ، وعرضها فريدج كوك فى مقال نشره فى **ذا نيشن** بتاريخ ٢٢ ديسمبر ، وتناول فيها قضية العدول غير المفهوم عن التحقيق الذى كان الكونجرس قد شرع فيه عام ١٩٦٥ فيما يسمى بردود الفعل الإيرانية ، ويبين فيها أن المسئولين يحولون دون استئنافه ، ولأسباب غير مفهومة أيضًا ، فى هذا الوقت الذى أصبح فيه ذا صلة بالقضية وبصورة عاجلة .

وأما الغالب الأعم فهو أن التليفزيون والصحف اليومية

والمجلات الإخبارية الأسبوعية عالجت أنباء إيران بأسلوب أبعد ما يكون عن الفهم العميق والإدراك الفطن لما يجرى فى إيران ، وهو ما يتجلى فى سلسلة المقالات التى كتبها رولو لصحيفة **لوموند** فى الفترة نفسها . فإذا شئت المبالغة قلت إن ما كتبه رولو يجعل إيران تبدو بلدًا آخر ، يختلف عن البلد الذى تصوره أجهزة الإعلام الأمريكية . فلم يغفل رولو لحظة واحدة عن الحقيقة وهى أن إيران بلد ما زال يمر بتحولات ثورية هائلة ، ولما كان بلا حكومة ، فإنه يمر بمرحلة إنشاء مجموعة جديدة كل الجدة من المؤسسات والإجراءات والحقائق السياسية الواقعة . ومن ثم فلا مناص من النظر إلى أزمة سفارة الولايات المتحدة باعتبارها أزمة نشأت فى إطار التحولات المذكورة ، وهى التى كثيرًا ما تختلط صورها على الباحث ، لا خارج إطارها . وهو لا يلجأ إلى الإسلام مطلقًا لإلقاء الضوء على الأحداث أو الشخصيات . ويبدو أنه نظر إلى مهمته الصحفية باعتبارها تشمل تحليلاً للسياسة والمجتمع والتاريخ فى كل بلد ، على الرغم من تعقيدها ، دون اللجوء إلى التعميمات الأيديولوجية والألفاظ الرنانة التى تفتقر إلى المعانى الواضحة ، حتى إذا لم تؤد تطورات الموقف إلى النتائج المرجوة ، على نحو ما حدث فى الواقع فيما بعد ، ولم تسر فى الطريق الذى نستطيع فهمه . لم يتحدث صحفى أمريكى واحد عن المناظرة المديدة فى إيران حول الاستفتاء الدستورى ، وما أقل التحليلات التى صادفناها عن شتى الأحزاب ، وأندر الإشارات

إلى الصراعات الأيديولوجية المهمة التى تفصل ما بين بهشتى ، وبازرجان ، وبنى صدر ، وقطب زاده ، ولم يعرض صحفى واحد للحديث عن شتى مناهج النزاع التكتيكى المستخدمة فى إيران ، أو يقدم لنا تحليلات مفصلة (حتى منتصف عام ١٩٨٠ على الأقل) عن العديد من الشخصيات والأفكار والمؤسسات السياسية المتنافسة على السلطة والاستئثار بانتباه الجماهير ، ولم يشر صحفى أمريكى واحد إلى أن الحياة السياسية فى إيران تكتسى فى ذاتها من الأهمية ما يجعلها جديرة بالدراسة ، خارج نطاق السؤال عما إذا كان الرهائن سوف يُفرج عنهم أو التساؤل عمّا إذا كان أحد الأطراف مناصرًا لأمريكا أو معاديًا لها . بل لقد كان التجاهل من نصيب بعض الأحداث الحاسمة مثل زيارة بنى صدر للطّلاب فى السفارة يوم ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، بل ولم يشر أحد ، ولو إشارة عابرة ، إلى الدور المهم الذى لعبه فى السفارة حجة الإسلام خوئينى ، وهو الذى تصادف أن كان كذلك مرشحًا لرئاسة الجمهورية فى إيران . وقد كانت هذه بعض الموضوعات التى عالجها رولو .

والأهم من ذلك أن رولو قد استطاع التسليم مقدمًا ، فيما يبدو ، بأنه قد يكون للشخصيات أو التيارات الفكرية المؤثرة فى الأزمة دور جاد وجدير بالنظر ، فلم يتهور فى الحكم على الأمور، ولم يصدر أحكامًا مسبقة على شىء ، ولم يقدم أيًا من النتائج التى يحبّذها المسئولون دون مبررات ومقدمات ، ولم يتوان

عن التحقيق فى كل مـوضوع من موضوعاته الصحـفية . ويتضح لنا من مـقـالات رولو أن زيارة هانسن ، عـضـو مـجلس النواب الأمريكى ، لإيران حـققت من النجاح مـا لم نكن نظنه ، بل إن رولو يقدم لنا أدلة كثيـرة فى مقاله المنشور يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٧٩ على أن البيت الأبيض (مـع أجهزة الإعلام الأمـريكية) قد تعـمـد السـمـاح للـنجـاح الذى أحـرزه هانسن مع الإيـرانيين بأن يذوى ويذبل، على نحـو ما قمع البـيت الأبيض إمكان قيـام الكونجرس بالتحقيق فى الإجراءات المصرفيـة المشتركة ما بين الولايات المتحدة وإيران (وهو ما كان يريده الإيرانيـون ، وربما كانوا يطلبون إجراءه فى مقـابل الإفراج عن الرهائن) . وقـد تحدث رولو بالتفـصيل ، على مـدى النصف الأخـير من عـام ١٩٧٩ عن الصـراع بين بنى صدر وقطـب زاده ، والأول اشتراكى ومنـاهض للإمبريـالية دون هوادة ، والأخيـر يلتزم بموقف المحافـظين تجاه القضـايا السياسـية والاقتصادية ، كما سجل مـواقفهما التى تتسم بالتناقض الظاهرى إزاء أزمة الرهائن فى نوفمبروديسمبر (فبنى صدر يدعو إلى حلّها، وقطب زاده إلى تصعيدها) .

وأما ما نستطيع تخمـينه - وإن لم يذكره أى صحفى أمريكى - فهو أن الولايات المتحدة كـانت تفضل التعامل مع قطب زاده ، وتشجع ، فيما يبدو ، إقصاء بنى صدر عن وزارة الخارجية (بعدم أخذه مـأخذ الجد ، والعمل على الانتـقاص من مقتـرحاته ، بل وإطلاق صـفة 'العبـيط' عليـه فعـلاً) . ومن الواضح أيضًا أن

مواقـف حكومة الولايات المتـحدة تجـاه إيران (وتفضـيلها المـؤكد للتعامل مع المحافظين على التعـامل مع الاشتراكيين) فى ضوء فوز بنى صدر برئاسة الجمهورية القـريب ، ذات علاقة ما بهذه الفترة، كما يتصل بهـا أيضًا السبب الحقيقـى لسقوط بازرجان : لم يكن ذلك السبب قطعًا أنه كان ليبراليًا ديمقراطيًا ، وهو ما كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تفضل القول به ، ولم يكن أنه صافح برزنسكى فى الجـزائر ، بل كان افـتقـاره إلى الكفاءة والقـدرة على تحقـيق السياسات " الإسلامية" المعلنة لحكومتـه . ويبيّن رولو أيضًا فى مقال من أهم مقالاته (وهى التى نشرت صحيفة **مانشستر جارديان** صورة مخـتصرة لها فى ٢ ديسمـبر ١٩٧٩) كيف شنّت الولايات المتحدة حـربًا اقتصادية متـصلة الحلقات ضد إيران قبل الاسـتيلاء على السفـارة بوقت طويل ، فى نوفـمبر ، ومن الجوانب التى لا تبشر بالخـير فى هذه الحرب استـمرار مصرف تشيـس مانهاتان فى القيام بدور رئيسى فيها .

ويرجع نجاح رولو إلى عـدة عوامل منها أنه صحـفى قدير ، ومنها أن الخبرات التى اكتسبها فى بلدان الشرق الأوسط لها تاريخ طويل ، ومنها أنـه ، مثل نظرائه الأمريكيين ، يـكتب وقد وضع نصب عينيـه قراء صحـيفتـه فى بلده . فالواقع أن **لوموند** ليست مجرد صحـيفة فرنسيـة من بين الصحف الكثيرة ، لكنها صحـيفة التوثـيق الأولى ، ولا شك أنها ترى أن عـملها هو تقـديم صورة العالم وفقًا لمفهوم معين عن المصالح الفرنسية . وهذا المفهوم يفسر

لنا ، إلى حد ما ، سر الاختلاف بين صورة إيران كما يراها رولو وصورة إيران فى **نيويورك تايمز** فالنظرة الفرنسية تقوم على الوعى بأنها نظرة **بديلة** أى إنها لا تشبه نظرة القوة العظمى بل وتختلف عن نظرة الأوربيين الآخرين . أضف إلى ذلك أن موقف فرنسا تجاه الشرق (وموقف لوموند إذا اعتبرناه امتدادًا له) موقف قديم قائم على الخبرة ، فهو يحرص على مراعاة ما طرأ من تغيير بعد زوال الاستعمار ؛ ولا يهتم بالقوة الغاشمة اهتمامه بالانتشار والاستراتيجية والتحولات ؛ ويركز على بذر بذور المصالح وتنميتها بدلاً من حماية الاستثمارات الهائلة فى نظم حكم معزولة ؛ ويقدم على الانتقاء ويقبل التغيير ويراعى الفروق الدقيقة (وقد يذهب البعض إلى أنه انتهازى) فيما يختار أن يبدى رضاه عنه وفيما ينتقد. والواقع أن **لوموند** تقوم على الملكية الجماعية ، فهى صحيفة البورجوازية الفرنسية ، وهى تعبر إزاء العالم غير الفرنسى عن سياسة تعددت أوصافها وتنوعت فقيل إنها تبشيرية ، أو رعوية، أو أبوية ، أو "اشتراكية ذات قلب رحيم" أو إنها تنتمى لحركة التنوير فى القرن الثامن عشر ، أو كاثوليكية تقدمية (لويس ويزنيتسر فى صحيفة **كريستيان سيانس مونيتور** بتاريخ ١٣ مايو ١٩٨٠ ، وجين كريمر فى **نيويوركر** بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٨٠)[١٤]

مهما يكن الأمر ، فالعبرة حقًا بالمنهج الذى تتبعه **لوموند** ، واعيةً دون شك ، فى محاولة تغطية أنباء العالم كله . فإذا كانت **نيويورك تايمز** تهتدى أساسًا ، فيما يبدو، بالأزمات الطارئة وبما

هو جدير باعتباره من "الأنباء"، فإن **لوموند** تحاول توثيق معظم ما يحدث فى الخارج أو الإشارة إليه على الأقل . ولا ينفصل الرأى فيها عن الحقائق بنفس الدرجة من الصرامة التى ينفصلان بها عن بعضهما البعض ، فيما يبدو (ولو اقتصر ذلك على الانفصال الشكلى) فى صحيفة **التايمز**، ومن نتيجة ذلك أنه عندما تعرض موضوعات صحفية أو قضايا تتسم بتعقيد غير عادى ، نجد فى **لوموند** قدرًا أكبر من المرونة ، سواء كان ذلك فى الطول أو التفاصيل أو العمق فى التحقيق الصحفى . والحق أن لوموند توحى فى أنبائها الصحفية بالحُنكة بشئون العالم ، وأما **التايمز** فتوحى بالاهتمام الرزين الوقور ، والانتقائى إلى حد ما . ولننظر الآن فيما كتبه رولو يومى ٢ و ٣ ديسمبر ١٩٧٩ .

يبدأ رولو بالإشارة إلى الاهتمام بصورة غير عادية ، على مدى الشهور الثلاثة السابقة ، بالمناقشة حول الجمعية المكلفة بوضع الدستور ، إذ عقدت المئات من الاجتماعات العلنية ، نقل التليفزيون وقائع الكثير منها ، كما قامت الصحافة ، والصحف الحزبية ، بتحليل القضايا المطروحة ، واستغرق المشاركون وقتًا طويلاً فى استنكار العناصر "المناهضة للديموقراطية" فى نصّ الدستور المقترح . (وبالمناسبة ، لم تتعرض أجهزة الإعلام الأمريكية لأى شىء من هذا، تقريبًا) . ويعلق رولو ، بعد ذلك، على الانشقاق ، الذى يعد من المفارقات ، بين الخومينى وبين جانب كبير من **الطبقة السياسية** فى البلد ، ثم يمضى فى تحليله

فيبين بأقصى درجة من التفـصيل كيف استطاع الخومينى رغم ذلك تحقيق إرادته فورًا عن طريق اللجـوء إلى المخاطرة بمخاطبة الشعب مباشرة بدلاً من المراوغة والمماطلة كسبًا للوقت . وقد اقتضى ذلك من رولو ، بطبيـعة الحال ، تحليـل المناظرة الجارية حول الدسـتور (قضاياها ، وأنصـارها ، وأسلوبها) **ثم القوى** الحقيقـية المشاركة فيهـا، محافظًا على وضوح الصـدع الذى يفصل بين السلطة وبين الدستـور . ونرى من عرضـه للموضـوع فى النهايـة أن الأنصار "الإسلاميين" للخومـينى يمثلون طائفة غير مـتجانسة ، تتـجمع وتتفـرق فى شتى أنحـاء البلد حسـبمـا يقضى به وعى الخـومينى المذهل بما يسـمى "الثورة الـدائمة" بمعنى القـدرة الدائمـة على التغييـر ، وهى التى لا يستطيع التحكم فيها إلا الخـومينى نفسه ، بما جبل عليه من طبيعة "قانونية عسيرة الإرضاء" ، وهذا فى رأى رولو من المفارقـات . وبعد أن يقـدم رولو قائمة بشـتى الأحزاب اليسارية واليـمينية ، والاستشهـاد ببعض المواقف التى اتخذها كل منهـا ، يضع رولو أصـبعـه على عـدد من مظاهـر التناقض فى الدستور المقترح الذى يقول بأن المرأة يجب ألا تكون مجرد مصدر للمتعة الجـنسية أو الربح الاقتصادى ، وإن كان لا يـصرح بحقوق المرأة ؛ وهو يستنكر النـقابات باعتبـارها من اختراع الماركـسيين ، لكنه ينص على أن مجالس العـمال يجب أن تنهض بدور مهم فى الحـياة الاقـتصـادية ، ويقول إن جـميع المواطنين مـتسـاوون فى الحقوق، ولكن المذهب الشيعى هو الدين الرسمى للدولة ؛ وهلم جرًا . ويؤدى هذا كله إلى الفقرة التالية :

مما لا غنى عنه للإمام الخومينى أن يصدر، دون إبطاء، هذا الدستور القادر على إثارة مناقشات لا تنتهى . لقد أشار عليه الكثيرون بإرجاء الاستفتاء حتى ينتهى اختبار القوة مع الولايات المتحدة ، وقيل له إن البلد الذى يمر بمرحلة انتقالية يستطيع التكيّف بسهولة مع نظام حكم انتقالى يستمر فترة طويلة ، ولكن الخومينى أزاح عن طريقه جميع المشورات والاعتراضات المقدمة إليه .

ومن المفارقات أن يبدو ذلك الشيخ الوقور المقيم فى بلدة قُمْ ذا طبيعة قانونية عسيرة الارضاء ، لمن لا يعرفونه خير المعرفة . فهو يصر على إرساء صرح سلطته على أسس قانونية ، وأرضاه بصورة مباشرة ما اكتسبه من شعبية هائلة فى الأسابيع القليلة الماضية . وأما أى تغيير فى هذه الشعبية فى المستقبل، فسوف يقل دور النص الدستورى فى إحداثه عن دور توازن القوى السياسية الذى سوف تفرزه "الثورة الثانية" التى تجرى حاليًا .

إن رولو لا يحاول هنا إصدار أحكام صريحة على شىء (قارن ذلك بالتحليل السطحى الذى نشره دون شانش فى **لوس أنجيليس تايمز** ، وسبقت الإشارة إليه) ولكنه يبين فحسب نقاط الانفصال بين المظهر وبين القوة ، وبين النص وبين القراء ، وبين الشخصيات وبين الأحزاب ، إذ يضعها جميعًا فى مواضعها الصحيحة من سياقها ، وهو فى جوهره فيضٌ دفاقٌ مضطرب .

وأما الذى يحاول توصيله للقارئ فهو الإحساس إلى حد ما لا بالتحولات الجارية فحسب بل أيضًا بنقاط التركيز والتنازع داخل هذه التحولات. وأقصى ما يفعله رولو هو تقديم تقدير للموقف يتسم بالحرص والحذر. إنه لا يلجأ مطلقًا إلى المقارنات القائمة على الحماس الوطنى ولا إلى إصدار أحكام القيمة التى تنم عن الجهل.

وإن شئنا إجمال القول قلنا إن ما كتبه رولو لصحيفة **لوموند** مقال سياسى بأفضل معنى من معانى الكلمة . وأما ما نشرته أجهزة الإعلام الأمريكية فلم يكن كذلك على امتداد شهور عديدة، أو قل إنه كان سياسيًا بالمعنى السئ. فكل ما بدا غير مألوف أو كان غريبًا على الصحفيين الأمريكيين (والغربيين الآخرين) وصموه بأنه "إسلامى" وعاملوه بقدر 'مناسب' من العداء والسخرية . فلم تنجح إيران ، باعتبارها مجتمعًا معاصرًا يمر بتغيير غير عادى ومهم فى إحداث تأثير يذكر فى الصحافة الغربية بصفة عامة ، والمؤكد أن هذه الصحافة نادرًا ما كانت تسمح لتاريخ إيران بأن يظهر ، فى العام الأول لقيام الثورة على الأقل ، بدرجة كبيرة من الصحة ، بل طغى بوضوح وجلاء استعمال القوالب الجاهزة ، والكاريكاتيرات اللفظية ، وتبدّى الجهل والتعصب العرقى وعدم الدقة بصورة مفرطة ، إلى جانب ما يكاد يكون خضوعًا كاملاً للأطروحة الحكومية التى تقول إن أهم ما يعنينا الآن هو "عدم الاستسلام للابتزاز" وما إذا كان الرهائن سوف يُطلق سراحهم أم لا . كان الصحفيون يتهورون فى

التوصل إلى نتائجهم وفى حسم مصير صراع لا يزال دائرًا ، وكان من نتيجة ذلك عـدم تبيان العناصر المميزة للحـياة الثورية الإيرانية على الإطلاق ، وهى العناصـر التى قد تؤدى إلى اسـتمـرارها أو انقطاعها ، وقد صاحب ذلك افـتراض مقلق ، وهو أنه إذا كانت الولايات المتحدة قد غفرت للشـاه السابق وأعلنت أنه حالة إنسانية وجدير بالإحسان إليه ، فلا يهمـها ما يقوله الإيرانيون (أو التاريخ الإيرانى نفـسه) . وفى أثناء هذه الفـترة أبدى أ. ف. سـتون من الشجـاعة مـا جعله يقـول بصراحـة إن ضرورة اعتـذار الولايات المتحـدة لإيران "عـن قـيامـنا بإعـادة الشاه إلـى العرش فى عـام ١٩٥٣ ... ليست تاريخًا قديمًا للإيرانيين ، وقد لا تمثل لنا نحن أيضًا تاريخًا قديمًا" (**فيليدج ڤويس** ، ٢٥ فبراير ١٩٨٠) .

كان تناول أجـهزة الإعـلام لأنباء 'الإسلام' وإيران فى عام ١٩٧٩ يتسم بدرجة بالغة من الضعف والروح العدائية ، حتى إننا لنظن أن ذلك قد أضاع علينا عددًا من الفـرص السانحة لحل أزمة الرهائن ، وربما كان ذلك هو السبب الذى حـدا بالحكومة الإيرانية فى عام ١٩٨٠ إلى أن تقول إن تقليل عدد الصحفيين فى إيران قد يؤدى إلى تهدئة التـوتر ويؤدى إلى الحل السلمى . وأما ما يعـتبر أخطر نتائج فشل أجهزة الإعلام ، وما لا يبشر بالخير للمستقبل ، فهو أن هذه الأجهزة لا ترى (بالسهولة وبالثقة اللازمين) أنها تؤدى مهمة إعلامية حقيقية ومـستقلة فيما يتعلق بالقضايا الدولية العاجلة وأثناء فترة تأزم حاد . ويبدو أن أجـهزة الإعلام لا تكاد تعى أنها

تستطيع ، دون أن يلحقها الضرر ، تصوير الحقبة الجديدة التى ندخلها فى الثمانينيات فى صورة المواجهة بين الثنائيات - "نحن" فى مقابل "هم" ، والولايات المتحدة فى مقابل الاتحاد السوفييتى، والغرب فى مقابل الإسلام، مع انحياز هذه الأجهزة دائمًا إلى جانب "الأخيار" ، إلا إذا وصلنا إلى حيث نعتقد أنه من المحتوم أن تشترك الدولتان العظميان معًا فى تدمير العالم .

ومع ذلك فالإنصاف يدعونا إلى رصد التغييرات التى تتعرض لها أجهزة الإعلام مع مرور الوقت على أزمة الرهائن فى عام ١٩٨٠ . فلقد شهدنا ازدياد التعمق فى فحص دور الولايات المتحدة فى إيران ، إذ خصصت **محطة إذاعة كولمبيا** جانبًا كبيرًا من حلقتين من حلقات برنامجها **"ستون دقيقة"** للحديث عن التعذيب أيام حكم الشاه ، وللأحابيل التى قام بها هنرى كيسنجر لحساب الشاه . وأدت صحيفتا **نيويورك تايمز وواشنطن بوست** واجبهما فأشارتا إلى الجهود التى بذلتها الحكومة لمنع إذاعة المحطة لذلك التحقيق (فى ٧ مارس و٦ مارس على الترتيب) وكذلك ، وعلى نحو ما كان متوقعًا ، نشرت جميع الصحف الكبرى موضوعات تعرب فيها عن استيائها وتشكيكها فى الحكمة من القيام بمحاولة الإنقاذ الفاشلة فى أواخر إبريل . واتسع نطاق اتفاق الآراء بما ينم عن زيادة استعداد أجهزة الإعلام بصورة غير مسبوقة للإقرار بإمكان اختلاف الرأى حول إيران . وازداد انتقادها لموقف الحكومة المتسم بالمماحكة والمماطلة مثلما ازداد الوعى لدى القراء

(والذى تعبــر عنه أبواب 'بريد القراء' فى الصحف) بأن أجـهزة الإعلام لا تقـول لنا الحقـيقة الكاملة عن إيران . ومـع ذلك فلقد استمــر العداء للإسلام واستمــر سوء فهمه (وهو المتـوقع) بزعامة الصحف المحافظة مثل **نيو ريببلك** إذ نشرت فى عددها الصادر فى ٧ يونيو ١٩٨٠ مـقالاً بقلم إيلى قـدورى بعنوان ''الغرب يذعن'' يقول فيه إن على الغرب أن ''يبرز صورته ويفرض احترامه'' وإلا استمرت الفوضى التى تضرب أطنابها فى العالم . وكنا نشعر بين الفينة والفـينة باتفاق الآراء الذى يفتّ فى العضد ، علـى نحو ما حدث عندمـا عاد رامزى كـلارك من مؤتمر ''جرائم أمريكا'' فى طهران ، وظهر فى التليفزيون فى برنامج **''قضايا وإجابات''** يوم ٨ يونيو ١٩٨٠ ، وهو البرنامج الذى تـذيعه محطة إيه بى سى ، إذ لم يسمح الذين أجروا المقابلة معه لأنفسهم بتوجيه **سؤال واحد يتطلب الإيضاح الحـقيقى لموقـفه** بل كانت جمـيع أسئلتهم تنضح بالعداء العـميق ، وتفصح عن الانصـياع دون تردد لموقف الإدارة الأمريكية الذى يقول إن كلارك قد ارتكب بذهابه إلى طهران خيانة لوطنة[١٥] .

لكننا كنا نصـادف من وقت لآخـر مواقف مـخـتلفة ، مـثل المقالات الأربعة التى كتبها جون كفنر فى صحيفة **نيويورك تايمز** ، فى ٣٩ و ٣٠ و ٣١ مــايو وأول يونيــو ١٩٨٠ ، وهى سلـسلة يتناول فيهـا الثورة الإيرانية بذكاء ، أو مثل المقال الذى كـتبه شول بَخَش عن الثورة الإيرانية فى **مجلة نيويورك لمـراجعة الكتب** (٢٦

يونيـو ١٩٨٠) إذ وجـدنا ما يـنم عن الجهـد المبـذول فى التـأمل والتصـدى لحقيقـة الثورة المستـمرة والتى لا يمكن تفهّم حـقيقتـها بألفاظ نظرية مبسطة أو من حيث دلالاتهـا العملية الصِّرفة . ومع ذلك فإننى أعتقـد أن هذه المقالات ما كانت لتكتب لو أن الرهائن قد أُطلق سراحـهم فعلاً . أى إن احتلال السـفارة - ذلك الحادث اللا أخلاقى ، وغـير القانونى ، والبـشع ، والذى تقتصـر فائدته السياسـية لإيران على الأجل القصير ويؤدى إلى تبـديد الجهود فى الأجل الطويل - قـد فـرض أزمـة وعى ، دون مـبـالغـة ، فى الولايات المتحدة . فبـعد أن كانت إيران مستعـمرة آسيوية لا يكاد يذكرها أو يكترث لها أحد ، أصبحت بين الحين والحين 'مناسبة' لمحاسبة النفس من جانب الولايات المتحدة . أى إن قصة إيران قد أدّت - بسبب إلحاحها نفسـه ، وطولها الزمنى القبيح والمثير للقلق - إلى تغيـير تدريجى فى موقف أجهـزة الإعلام ، فبعـد أن كان يتسم بالتركيز الضيق الذى لا يحيد ولا يتحول عن هدفه ، أصبح يتميز بالمزيد من النقد ويعود بالمزيد من الفائدة . ونستطيع أن نقول بإيجاز إن احتلال السفارة قد أحلّ **الحركة الدينامية** محلّ الغضب الثابت الساكن ، وقد اكتسـبت هذه الحركة الدينامية على مر الأيام تاريخًا خاصًا بها ، ومن خلاله اكتشفت أجهزة الإعلام جوانب فى ذواتها لم تكن تدرى بها (وكذلك الأمريكيون بصفة عامة) . وأما إذا كان هذا ما قصد إليه المتمـردون أصلاً ، أو كان سببًا فى تأخير عـودة الأحوال العـادية بدلاً من حفـزها ، فلم يحن الوقت بعـد

للقطع فيه . ولا شك أنه قد ازداد عدد الأمـريكيين الذين يفهمون الآن معنى الصراع على السلطة (من ذا الذى لم يدرك الصراع بين بنى صدر وبهشـتى ، وشبح الخومينى يكمن خلفهمـا فى غموض وإبهـام ؟) ولا شك أيضًـا أنه قـد ازداد عـدد الأمـريـكيين الذين أصبحوا يدركون أنه من العبث محاولة فرض نظامنا "نحن" على تلك الفورة العـارمة ، أو ، فى هذا الصدد أيضًا ، على المـعركة الدائرة بين العراق وإيران . ولا تزال أسئلة كثيرة فى انتظار الإجابة عليـهـا ، مثل ظروف سطوع نجـم بهشـتى ، وأنماط الصـراع بين اليسار واليـمين ، وحالة الاقتصاد الإيرانى - وقـد يسفر ذلك كله عن شتى النتائج فى القريب العاجل(١٦) .

وأما السـؤال الذى لم يستكشف أحـدٌ أبعاده ، فهـو السؤال الذى يكمن خلـف الأزمة ، والذى يـجب علينا الآن أن نحـاول التعرض له ، ألا وهو : مـا أهمية إيران ، وما أهمـية الإسلام ، وما هو نوع المعرفة أو التغطية التى نحتاجها لهذا وذاك ؟ ليس هذا السؤال الثلاثى من قبيل الأسئلـة التجريدية . ولا يجب أن نعتبره فحـسب جزءًا لا يتـجزأ من السـياسـة المعاصرة ، بل هـو جانب حيـوى أيضًا من جـهود البحث الأكـاديمى وجهود التـفسـير التى تتطلب المعـرفة بالثقـافات الأخـرى . لكننا إذا لم نلق نظرة ترفع أستار الغموض عن العلاقـة بين السلطة والمعرفة فى هذا السياق ، فسوف نكـون قد تهرّبنا من مواجـهة جوهر القضيـة . وينبغى أن يكون ذلك ما يحدد مسار بحثنا من الآن فصاعدًا .



الفصل
الثالث

3

المعرفــــة والسلطة

أولاً: المبادئ السياسية لتفسير الإسلام:

المعرفة الصحيحة والمعرفة المضادة:

فى ظل الظروف الراهنة ، حيث لا يعيش " الإسلام" فى سلام مع "الغرب" ولا يعيش "الغرب" فى سلام معه ، بل ولا يعيش كل منهما فى سلام مع ذاته ، قد يبدو من العبث المبالغ فيه أن نتساءل عما إذا كان أبناء ثقافة معينة يستطيعون أن يحيطوا حقًا بمعرفة الثقافات الأخرى . إن علينا أن نطلب العلم ولو فى الصين، كما يقضى بذلك أحد الأقوال المأثورة الذائعة فى الإسلام، كما اعتاد الناس فى الغرب ، على الأقل منذ العهود اليونانية القديمة ، أن يقولوا بوجوب طلب المعرفة ، ما دامت تلك المعرفة تتعلق بما هو إنسانى وطبيعى . ولكنه كان من المعتقد فى العادة ، فى حدود ما انتهى إليه المفكرون الغربيون ، أن نتيجة هذا

الطلب أو البحث كانت فى الواقع ناقصة معيبة . بل إن فرانسيس بيكون نفسه ، مـؤلف كتاب **تقدم المعرفة** الذى يعد البادرة التى انطلق منها الفكر الـغربى الحديث بأكثر طرائقه حماسًا وحـفزًا ذاتيًا، يعـبر فى الواقع عن شتى الشكـوك فى إمكان إزالة العوائق المختلفـة (تحطيم الأصنام) التى تحول دون المعرفـة . وأما ڤيكو ، تلميذ بيكون الذى كـان يبجل أستاذه ، فيقول صـراحةً إن المعرفة البشرية لا تزيـد عما أتى به البشر ، ومن ثم فـالواقع الخارجى لا يزيد عن كونه "صـورًا معدلة للعـقل البشرى" (1) ويزداد تضاؤل احتمالات المعرفة الموضـوعية بما هو بعيدٌ وأجنبىٌّ تضاؤلاً أشدَّ بعد نيتشه .

وفى مـقابل تيـار الشك والتشـاؤم المذكور ، نجـد أن دارسى الإسلام فى الغرب (ودارسى الغرب داخل العالم الإسلامى ، ولو

أننى لن أعرض فى مناقشتى لهم) يميلون إلى التفاؤل وإبداء الثقة التى تثير القلق . كان أوائل المستشرقين المحدثين فى أوروبا لا يخامرهم ، فيما يبدو ، شك يذكر فى أن دراسة الشرق، والعالم الإسلامى جزء منه ، هى السبيل الأعظم للمعرفة العالمية . وقد كتب أحدهم ، وهو البارون دكشتاين ، فى العشرينيات من القرن التاسع عشر يقول إنه :

> مثلما اكتشف كوڤيه وهمبولت أسرار تنظيم [الطبيعة] فى أحشاء الأرض، سوف يقوم إيبل رموسات، وسانت مارتن ، وسلڤستر دى ساسى، وجريم ، وبوپ ، وأ. ڤ. شليجل بمتابعة واكتشاف التنظيم الداخلى للفكر البشرى وأسسه البدائية فى إحدى اللغات[٢] .

وبعد سنوات معدودة كتب إرنست رينان تصديراً لمناقشته لموضوع "محمد وأصول الإسلام الأولى" بملاحظات عن الآفاق التى تتفتح أمام ما أسماه "علم النقد" . وقال رينان إن علماء الجيولوجيا والتاريخ واللغة يستطيعون التوصل إلى معرفة الأشياء الطبيعية "البدائية" – ويعنى بها الأساسية والأصلية -- عن طريق فحص آثارها بدقة وصبر ، وإن الإسلام ظاهرة ذات قيمة كبيرة لأن مولده كان قريب العهد نسبيًا ولا أصالة له . وانتهى رينان من ذلك إلى القول بأن دراسة الإسلام دراسةٌ لموضوعٍ يستطيع المرء أن يصل المرء فيه إلى معرفة يقينيّة وعلمية[٣] .

وربما يكون هـذا الموقف ' المناسب' هو مـــا جـــعـل تاريخ الاستشراق الإسلامى يخلو نسبيًا من تيارات الشك ، ويكاد يخلو تمامًا من مـساءلة الباحث لنفســه عن منهجه . ولم يخامـر معظم دارسى الإســلام فى الغرب أى شك فى إمكان الإحـاطة بالمعرفـة الموضوعيـة الحقة عن الإسلام ، أو عن جانب من جـوانب الحياة الإسلامـية ، على الرغم من القـيود التى تفـرضها حـدود الزمان والمكان . ولكننا لن نجـد عددًا كبـيرًا من الباحـثين المحدثين الذين يشاركون رينان غطرسته الصـريحة فى آرائهم عن ماهية الإسلام ، فلن نجد باحثًا مـحترفًا مثلاً يقول مـثل رينان إننا نستطيع أن نعرف الإسلام لأنه يمثل نموذجًا أساسيًا من نماذج توقف النمو والتطور الإنسانى ، لكننى لم أستطع العثور على أى مثال معاصر للباحث الإسلامى الذى يرى فى البـحث نفسه مـصدرًا للشك . وأظن أن السبب يرجع أيضًا ، إلى حد ما ، إلى تقاليد العاملين بالدراسات الإسلامية ، وهى التى يتوارثونها جيلاً بعد جيل منذ قرنين تقريبًا، فهى تحـمى الباحثين الأفـراد وتؤكد لهم صحـة ما ينتهـون إليه ، بغض النظر عن الأخطار المنهجية والتجديدات المنهجية التى تتحدى الباحثين فى معظم مجالات العلوم الإنسانية الأخرى .

ومن النماذج التى تمثل مـا أعنيه مقـال نشر منذ عهـد قريب بعنوان ''الوضع الحالى لدراسات الشرق الأوسط'' فى عدد صيف ١٩٧٩ من مجلة **الباحث الأمريكى** ، وكاتبه باحث بريطانى شهير فى الدراسات الإسلامـية ، وهو يقيم حاليًـا ويعمل فى الولايات

المتحدة . والمقال بصفـة عامة ينم عن الكسل الذهنى إذ لا يتعرض إلا لما اعتدناه وبأسلوب لا طرافة فيـه ، ولكن به ما يستوقف غير المتخصص ، إلى جـانب لا مبالاة الكاتب بصورة تدعـو للدهشة بالقـضايا الفكرية ، ألا وهـو مـا يرويه عمـا يـفترض أنـه جذور شجـرة النسب الثقـافى للاستـشراق ، وهو جدير بأن نسـتشـهد بجانب مطوّل منه :

أتى عصـر النهضة الأوروبية بمرحلة جـديدة كل الجدة فى تطور الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط فى العـالم الغربى. وربما كـان أهم عامل هو حب الاسـتطلاع الفكرى الذى لا يزال فريدًا فى تاريخ البشرية . فحتى ذلك العصر لم يخامر أحدًا إحـساسٌ مماثلٌ ولم يبذل أحد جهدًا مماثلاً لدراسة وتفـهم الحضارات الأجنبـية بل تلك التى هى أقل عـداءً لنا . فلقد حـاولت مجـتمـعات كـثيـرة دراسة أسلافـها ، أى من تحسُّ بأنها تديـن لهم بديْن ما ، أو من ترى أنها مستقاة منهم . كما إن المجتمعات الخاضعة لسيطرة ثقافة أجـنبية أقوى من ثقـافتها قد اضـطُرّتْ ، . سواء كان ذلك قسرًا أو طواعية ، إلى دراسـة لغة من يسيطرون عليها ومحـاولة فهمـهم . أى إن المجتمعـات ، باختصـار ، قد درست ساداتهـا ، بكلا المعنيين لهذه الكـلمة . . . . ولكن نوع الجـهـد الذى بذلته أوروبـا (وبنات أوروبا فـيمـا وراء البحار فى وقت لاحق) لدراسة الثقافات النائية والأجنبية ،

ابتداء من عصر النهضة الأوروبية **يمثل شيئًا جديدًا ومختلفًا كل الاختلاف** . ومما له دلالته أن شعوب الشرق الأوسط لا تبدى اليوم اهتمامًا يذكر ببعضها البعض، بل هى أقل اهتمامًا بالثقافات غير الإسلامية فى آسيا وإفريقيا . وأما المحاولات الجادة لدراسة لغات وحضارات الهند والصين فى الشرق الأوسط فتقتصر على جامعات تركيا وإسرائيل - وهما البلدان الوحيدان فى المنطقة اللذان اختارا عن عمد أسلوب الحياة الغربية .

ولا تزال الحضارات غير الأوروبية تواجه أكبر صعوبة فى تفهم حب الاستطلاع الفكرى من هذا النوع . وعندما بدأ أوائل علماء الآثار المصرية الأوروبيون حفرياتهم فى الشرق الأوسط ، وجد الكثير من أبناء البلد أنه من المحال عليهم تصديق استعداد الأجانب لبذل مثل هذا القدر الكبير من الجهد والوقت والمال والتعرض لمثل هذه الأخطار والمشاق الكثيرة فى التنقيب والكشف عما خلفه أسلافهم القدماء المنسيون وفك رموز آثارهم . ومن ثم سعوا إلى تفسيرات أخرى أقرب إلى العقل ، فكان القرويون البسطاء يرون أن علماء الآثار يبحثون عن الكنوز الدفينة ، وأما المتعلمون من سكان المدن فقالوا إنهم إما جواسيس أو عملاء يخدمون حكوماتهم بسبل أخرى . ولم يكن نجاح بعض علماء الآثار فعليًا فى إسداء مثل هذه الخدمات إلى

حكوماتهم يعنى أن مـثل هذا التفسيـر لعلمهم أقل خطأ ، بل هو يكشف عن عـجز مـحزن عن تفـهم عمل أضـاف فصولاً جـديدة إلى تاريخ البشرية وأبعـادًا جديدة إلى وعى أمم الشـرق الأوســط بذواتهـا . **وصــعــوبة الإدراك المذكـورة لا تزال قائمة حتى اليوم** بل إنها قد أصابت بعض الأكاديميين الذين يصرون على أن المستشرقين إما باحثون عن الكنوز أو عملاء للإمبريالية .

وكـان إرضـاء حب الاسـتطلاع الفكرى الجـديد الذى أشرنا إليه قد اسـتفاد كثيرًا من الرحلات الاسـتكشافية التى قام بها الأوروبيون إلى الأراضى الجديدة الغـريبة فيما وراء المحيط . إذ إن هذه قد ساعدت على تحطيم بعض القوالب الفكرية وكـانت بمثـابة حـافـز وفرصـة لإجـراء المزيد من الدراسة[٤] .

إن هذه الكتابة تـتوسل بما لا يكاد يتجـاوز بعض المزاعم التى لا تدعمها الأدلة ، والتى تتناقض تناقضًـا مباشرًا مع كل ما كتب حتى الآن ، سـواء كان ذلك ما كتـبه عدد كـبير من المستـشرقين أنفسهم أو مؤرخو أوروبا من عصـر النهضة إلى الوقت الحاضر ، أو دارسو تاريخ التـفسيـر من القديس أوغـسطينوس حتى الآن . وحتى لو نَحَّينا جانبًـا ما يقوله عن حب الاستطلاع الفكرى الذى يصفه بأنه "جديد ومختلف كل الاختلاف" ومن ثم (نفترض) أنه حب استطلاع فكرى خـالص - وهو ما لم يسعـد الحظ أى إنسان

آخر حاول قراءة نص وتفسيره بامتلاكه - فلسوف نجد فى كلامه الكثير مما لا يقبل إلا بافتراض حُسْنِ النية . فإن قراءة ما كتبه بعض مؤرخى الثقافة والاستعمار ، مثل دونالد لاك أو ج. هـ. پارى تجعلنا ننتهى إلى أن الاهتمام الأوروبى بالثقافات الأجنبية كان يستند إلى التلاقى الفعلى مع تلك الثقافات ، وعادة ما كان ذلك نتيجة للتجارة ، أو للغزو أو للمصادفة[٥] . "فالاهتمام" ينبع من الحاجة ، والحاجة تستند إلى عوامل تستثيرها دوافع عملية تعمل وتعيش مع بعضها البعض - مثل الخوف ، والشهية ، وحب الاستطلاع ، وما إلى ذلك بسبيل - وهى التى دائمًا ما كانت تمارس تأثيرها حيثما وأينما يعيش البشر .

وإلى جانب هذا ، كيف يتأتى للإنسان تفسير ثقافة أخرى إلا إذا نشأت وتوافرت الظروف التى تتيح إمكان هذا التفسير أصلا ؟ أما فيما يتعلق بالاهتمام الأوروبى بالثقافات الأجنبية ، فلقد كانت هذه الظروف دائمًا تجارية أو استعمارية أو ناجمة عن التوسع الحربى ، والغزو ، وبناء الامبراطوريات . وحتى حين قام الباحثون المستشرقون فى الجامعات الألمانية ، فى القرن التاسع عشر ، بدراسة اللغة السنسكريتية ، وتقنين الحديث النبوى ، أو إيضاح نظام الخلافة الإسلامية ، فإنهم كانوا يعتمدون على الجامعات نفسها ، أى على المكتبات وغيرهم من الباحثين والفوائد الاجتماعية التى أتاحت لهم احتراف هذا العمل ، أكثر من اعتمادهم على الوهم المسمى حب الاستطلاع الخالص . وأما

القول بأن الدافع على بناء وامتلاك امبراطوريات أوروبية هائلة ، واكتساب المعارف المرتبطة بها ، كان بصفة أساسية إشباع حب الاستطلاع الفكرى فلا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية من الشخصيات الروائية الخيالية ، مثل الدكتور بانجلوس فى رواية **كانديد** للكاتب الفرنسى ڤولتير ، أو مثل أعضاء 'أكاديمية المفكرين' فى مدينة لاجادو الخيالية فى رواية **رحلات جاليڤر** التى أبدعها جوناثان سويفت . ولا غرو إذن إذا كان أبناء البلاد غير الأوروبية "الجهّال" قد نظروا بمثل هذه الريبة إلى "حب الاستطلاع الفكرى" لدى الباحثين ، إذ متى أقام باحث غربى فى بلد غير غربى إلا بفضل السيطرة الغربية على ذلك البلد ، مهما تكن رمزية وغير مباشرة[٦] ؟ ومن الأدلة على ما يتسم به **هذا** المستشرق من جهل غريب وغرور أنه ، فيما يبدو ، لا يدرى شيئًا عن المناظرة المحتدمة حاليًا فى مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حول التواطؤ بين الإمبريالية وعلم وصف الشعوب (الاثنوغرافيا)، بل إن ليڤى شتراوس نفسه ، ذلك الرائد الفكرى المرموق ، قد أعرب عن مخاوفه من أن تكون الامبريالية من الجوانب الأساسية للعمل الميدانى فى علم الأجناس البشرية (الاثنولوجيا) وإن لم يعرب عن أسفه لذلك .

فإذا استبعدنا دون تردد ما قاله الكاتب عن حب الاستطلاع الخالص ، فلابد أن ننتهى ، أيضًا ، فى اعتقادى ، إلى أن الحُجّة التى يسوقها ، برمّتها ، بشأن دراسات الشرق الأوسط ليست فى

الواقع إلا دفـاعًا عن قـدرتها التى يعـيبـها شىء فى جـوهرها – تاريخيًا وثقافيًا – على أن تصدق فيما تقولـه لنا بشأن المجتمعات النائية الأجنبية . وهو يفصل القول فيما بعد ، وفى المقالة نفسها، عن هذه المسألة حين يشير إلى الأخطار الكامنة فى ''إضفاء الطابع السياسى'' على هذا المجال ، وهو ما يزعم أنه لم يستطع تجنبه إلا عدد محدود من الباحثين والأقسام العلمية . ويبدو لى أن السياسة هنا مرتبطة بالتحيز والتعصب الضـيق ، كأنما كان الباحث الحقيقى فوق المشـاجرات حـول التوافـه ، لا تشغله إلا الأفكار ، والـقيم الخالدة والمـبادئ العليـا ؛ ومما له دلالته أنه لا يأتينا بشـواهد على ذلك . والطريف فى هذه المقـالة كلهـا هو أنهـا ، مع ذلك ، لا تدعو إلى العلم والإجراءات العلمـية إلا بالاسم فقط ، وأما حين يعرض الكاتب **لحقيقة** دراسات الشرق الأوسط غير السياسية أو ما ينبغى أن تكون عليـه ، فهو لا يقول شـيئًا . أو بعبـارة أخرى ، يقول إن ما يُعتد به حقًا هو ما يتخذه الباحثون من مواقف ، أو ما يتصنّعـونه منها ، وما يقولـونه من ألفاظ رنّانة ، أو باختصـار ما لديهم من أيديولوجيـات . أما المضمون فـالكاتب لا يصرح به ، بل إننا نكتشـف ما هو أسوأ ، ألا وهو أنه يحـاول عامدًا إخـفاء الروابط القائمة بين البحث العلمى وبين ما يمكننا أن نسميه الإقبال على الدنيـا والولع بهـا ، وذلك حـتى يواصل إيهـامنا بما يأتى به البحث من حقيقة بريئة من الهوى ، ومن التعصب ومن السياسة .

ونحن نكتشف فى هذا حقائق عن المؤلف أكثر مما نكتشفه عن

المجال الذى يُفترض أنه يكتب عنه ، وهى مفارقة تتسم بها كل المحاولات الأوروبية أو الغربية الحديثة للكتابة عن المجتمعات غير الغربية . ولم يكن جميع الباحثين الآخرين واعين بهذه الصعوبة . ففى عام ١٩٧٣ قامت رابطة دراسات الشرق الأوسط، بالتعاون مع مؤسسة فورد ، بتكليف فريق من الخبراء بإجراء مسح للمجال كله ، بهدف تقييم حالته الراهنة ، واحتياجاته وآفاقه ومشكلاته(٧) . وكانت النتيجة مجلدًا ضخمًا حافلاً زاخرًا عنوانه : **دراسة الشرق الأوسط : البحث والتخصص فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية** ، وكان محرره هو لينارد بايندر ، ونشر فى عام ١٩٧٦ . ولما كان الكتاب عملاً جماعيًا فقد اتسم بالتفاوت المحتوم فى مستواه ، ولكن القارئ يستوقفه ذلك الإيحاء العام فى شتى مباحثه بالأزمة والعجلة ، وهو ما لا نجده على الإطلاق فى المقالة المنشورة فى مجلة **الباحث الأمريكى** المذكورة . إذ إن هذه المجموعة من الباحثين الأمريكيين الذين لا يقلون امتيازًا عن نظيرهم البريطانى ، ترى أن 'دراسات الشرق الأوسط' مجال محاصر يمر بضائقة ، إذ لا يحظى بالاهتمام الكافى ، ولا بما يكفى من المال ولا من الباحثين . (ومن المفارقات أن أحد أعضاء لجنة البحث والتدريب فى الرابطة المشار إليها ، وهى التى وضعت التصور الأول للدراسة ، كان قد كتب دراسة عن مجال دراسات الشرق الأوسط بتكليف من الحكومة الأمريكية ، قبل ذلك بسنوات معدودة ، ينتقص فيها من الحاجة إلى الدراسات المتخصصة للإسلام أو للعرب ، قائلاً إن هذا المجال لا يمثل إلاّ

أهمـيـة ثانوية، مـن الزاويتين الـثقـافـيـة والـسـيـاسـيـة للولايات المتـحـدة[٨]). ولننظر إلـى المشكلة التى تكمـن خلف جـمـيع المشكلات التى يشـير إليـها البـاحثـون المشار إليـهم ، وهى التى يعالجها المحرر ليئارد بايندر بصراحة فى مقدمته للكتاب .

وأول جملة فى المقـدمة المذكورة هى: "كان الدافع الأساسى ، ولا يزال ، وراء تنميـة وتطوير دراسات مناطق العالم المخـتلفة فى الولايات المتحـدة ، دافعًا سيـاسيًا" [٩] . وينطلق بايندر بعد ذلك إلى استعراض جميع القضايا التنـظيمية والفلسفية التى تواجه المتخصص الحديث فى الشرق الأوسط ، دون أن يغفل ولو للحظة عن الحقيقة - وهى حقيـقة واقعة - التى تقول إن دراسات الشرق الأوسط تعتـبر جزءًا من المجـتمع الذى تجرى فـيه ، إن صح هذا التعبـير . وفى نهاية المسح الذى يجريه ، وبعد أن يقـول بصراحة إن جمـيع المسائل الأسـاسية المطروحـة بشأن هذا المجـال ، حتى أولاها وأبسطها ، لا تخلو من أحكام القيمة -- مثل التساؤل عما إذا كان علينا أن نبدأ بدراسة الهياكل الاجتماعية أو بدراسة الدين، أو مثل المفـاضلة فى الأهمية للباحث بين الهـياكل السياسـية وبين معدلات دخل الفرد - وبعـد أن يقول أيضًا إنه ، حتى إذا "كانت التوجهات المبنية على القيمة فى دراسات الشرق الأوسط أدق على الفهم فى معظم الأحيـان من منظورات المعلومات الحكومية" يقول "إن المشكلة لا يمكن تجنبها" [١٠] . ويحاول بايندر فى آخر المقدمة تلخيص تأثيـر السيـاسة فى مدى صـدق ما ينتهى إليـه الدارسون الغربيون للثقافات الأجنبية .

إنه لا يتردد فى التسليم بأن لكل باحث ''توجهات تحكمها القيمة'' وبأنها تؤثر فى نتائج بحوثه ، ولكنه يستدرك قائلاً ''إن التوجهات المعيارية للمباحث العلمية'' تقلّل من آثار الانحراف الذى تأتى به ''الأحكام الخاصة'' الشخصية . ولا يشرح لنا بايندر أساليب أداء ''المباحث العلمية'' بل ولا يحدد لنا ما تتسم به تلك '' المباحث'' من طاقات قادرة على تحويل الأحكام البشرية إلى تحليلات رائعة مهيبة . وكأنما كان يريد معالجة هذه المسائل بصورة ما فأضاف عبارة فى آخر حجته تتسم بغموض لا ضرورة له ولا تمثل أى استمرار لما جاء قبلها ، إذ يقول إن المباحث العلمية ''تقدم لنا أيضًا المناهج اللازمة لاستكشاف القضايا الأخلاقية التى تنشأ فى سياق مجال البحث'' . أية قضايا أخلاقية ؟ أى مناهج؟ أى سياق لأى مجالات ؟ لا نجد لديه الشرح . ولكن النتيجة التى يتوصل إليها تكتسى مظهر الجديّة المحيّرة المربكة ، إلى الحد الذى يبث فى نفسك الثقة فى هذه ''المباحث العلمية'' ، وهو ما يدفعك إلى الاطمئنان دون أن يشرح لك على الإطلاق ما تدور حوله هذه ''المباحث العلمية'' .

بل إنه حتى حين يعترف كاتب من الكتاب بما للضغوط السياسية الفظة من تأثير فى دراسات الشرق الأوسط ، فإنه يميل إلى إخفاء هذه الضغوط فكأنما تبخرت فى الهواء ، ومن ثم إلى إعادة السلطة ' المعتمدة' لما يسمى 'الخطاب الاستشراقى' . ولا بأس من تكرار ما قلناه من أن السلطة تنبع من القوة الكامنة فى

الثقافة الغربيــة والتى تسمح لدارسى الشرق أو الإسلام بأن يقولوا أقــوالاً عن الإســلام وعن الشــرق ظلت سنوات عـديدة لا تقــبل الطعن فيــها تقريبًــا . فمن سوى المســتشرقين قـد تحدث ولا يزال يتحدث باسم الشرق ؟ ولم يكن يخالج المستشرق فى القرن التاسع عشر ، أو باحث القرن العشرين ، مثل لينار بايندر ، أى شك فى قدرة ''مجـال الدراسة'' - ولاحظ أنه لا يقـول الشرق نفــسه أو شعوبه - على تزويد الثقافة الغربيــة بكل ما تحتاج إلى معرفته عن الشرق ، وهكذا ، فإن كل من يستطيع استعمال لغة ذلك المبحث العلمى، ونَشْر مـفاهيمــه ، وإجادة تطبيق أســاليبه ، وحيــازة ما يؤهله له ، يستطيع أن يتجاوز التعصب والظروف الحاضرة ليصدر أحكامًا علمية . وهذا الإحســاس بالاكتفاء الذاتى ، والقدرة على التصحيح الذاتى ، وطاقة التزكية الذاتية ، هو الذى منح ولا يزال يمنح الاستشــراق لغته الطنانة التى يستعملهــا دون حرج وباطمئنان بالغ . وبايندر يقول إن المباحث العلمية ، لا شعوب الشرق ، هى التى تحدد القضايا المعيارية بصفة عامة ، إذ إن هذه المباحث ، على حد قوله ، لا رغبـات أهل المنطقة ولا أخلاقيات الحيــاة اليومية، هى التى ''تقـدم لنا المناهج اللازمــة لاســتكشاف تلك الـقضــايا الأخلاقية التى تنشأ فى سياق هذا المجال'' .

وهكذا نرى ، من ناحية، أن ''المباحث العلمــية'' تعتــبر هنا مؤسسات أكثر مما تعتبر أنشطة ، وأنها من ناحية أخرى تحدد تنظيم ووضع المعايير لما تدرسه (وهو ما أنشأته هى أيضًا من زاوية معينة)

بأيسر مما تحلل ذاتها أو تتأمل ما تـفعل . والمحصلة التى نخرج بها من هذا ، إذا سمحنا لأنفسنا بـترف الإطناب ، يمكن أن يقال إنها المعرفة الكاملة بثقافة مختلفة . صحيح أن الغرب له منجزات هامة فى دراسة الإسلام ، فقد تولى تحـقيق بعض النصوص ، وأضفى الدقة البالغة على بعض التوصيفات الوضعية للإسلام الكلاسيكى، وأما فـيما يتـعلق بالأبعاد **الإنسانية** للإسلام المعـاصر ، أو بمحنة التعرض لجهود التفسير المتباينة ، فإن "المباحث العلمية" فى مجال دراسات الشرق الأوسط المعاصرة لم تقدم إيضاحات كبيرة لهذه أو تلك ولم تساعد أيا منهما .

لا يمكننا أن نقول إن دراسة الإسلام اليوم "حرة" أو "بريئة" فى أى جانب من جوانبها تقريبًـا ، أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحـدد مسارها . ومـا أبعد هذا عن الموضـوعية غـير السـياسـيـة التى يصف بهـا الكثيـرون من البـاحـثين فى مجـال الاستشـراق عملهم ، وهو يبتعـد البعد نفسـه تقريبًا عن الحتـمية الآلية التى يحـاول بها الماديون السـوقيون تفـسير جـميع الأنشطة الفكرية والثـقافيـة ، قائلين إن القوى الاقـتصاديـة هى التى تحدد مسارها وتتحكـم فيها مسبّقًـا ، وهو يبتعد البعد نفـسه تقريبًا عن الثقة "المناسبة" للمتخصصين الذين يولون إيمانهم الكامل للكفاءة الفنية "للمـباحث العلمـية" . وفى موقع مـا بين هذه الأطراف المتباعدة تحقق "مصالح" المفسر ذاتها وتنعكس آثارها على الثقافة كلها بصفة عامة .

ولكننا نجـد هنا درجة أقل من التنوع والحـرية عمـا نحب أن نتصوره . إذ ماذا عساه أن يضـفى الأهمية والطرافة على موضوع يمكن اعتـباره أكاديميًّا أو حتى أثريًّا إن لم يكن السلطة والإرادة ؟ ونحن نرى أن المجتمع الغربى يقوم (مـثل كل المجتمعات الأخرى ولو بدرجات مـختلفـة) بتنظيم هذين العـاملين ، ويتيح لهـما أن يتحققـا بصور متفاوتة ، وأن يمارسا قـدرًا هائلاً من النفوذ الخاص بهمـا ، والذى يتجـاوز الضرورات الحـاضرة المباشـرة الضيـقة . ولسوف أضرب مـثالاً بسيطًا حتى تتضّح المسألة بسـرعة ، وبعدها ننطلق إلى دراسة بعض التفصيلات .

ينظر الجمهـور فى أمريكا وأوروبا اليوم إلى الإسلام باعـتباره "أنباء" من نوع لا يسر على الإطلاق . ويسوق التناغم بين أجهزة الإعلام وبين الحكومة وبين خبراء الجغرافـيا السياسية - إلى جانب الأكـاديميين من ذوى الخبـرة فى الإسـلام ، رغم كونهم يشـغلون مكانًا على هامش الثقـافة بوجه عام - فى اعتـبار أن الإسلام يمثل تهـديدًا للحضـارة الغربيـة . ولكن هذا لا يعنى أننا لن نجـد فى الغرب إلا التصوير الذى ينتقص من قدر الإسلام أو يكتسى بطابع العنصرية ، فأنا لا أقول بهذا ولا أتفق مع من يقوله ، لكننى أقول إن الصور السلبية للإسلام سـائدة إلى درجة أكبر مما عداها ، وإن هذه الصور لا تتفق مع " حقيقة" الإسلام (ما دمنا سلمنا بأن ما يشار إليه باسم "الإسلام" ليس حقيقة طبـيعية بل هو بناء مركب أنشأه إلى حد ما المسلمون والغرب بالأساليب التى حاولت وصفها

فيمـا سبـق) ولكنها تتـفق حـول ما ترى القـطاعات البـارزة أنه ''الإسلام'' . وتتمتع هذه القطاعـات بالسلطة وبالإرادة اللازمتين لنشر **تلك** الصورة المحـددة للإسلام ، ومن ثم فـإن هذه الصورة تزداد انتشـارًا وحضورًا بحيث تـسود ما عداها . وكـما قلت فى الفـصل الأول ، يجرى ذلك وفـقًـا لعوامل اتفـاق الآراء ، وهو الاتفاق الذى يضع الحدود ويمارس الضغوط .

ومن المفيد أن ننظر فى الحلقات الدراسـية الأربع التى عقدت فى الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٨ ، بتمويل من مؤسسة فورد ، فى جامعـة برنستون ، وهى مكان ذو جـاذبية واضحة لعقـد الحلقات الدراسية الأكاديميـة ، لأسباب اجتماعـية وسياسية كـثيرة . فإلى جانب شهرتها العامة ، يوجد فى الجامعة برنامج لدراسات الشرق الأدنى ذاعت شهرته ويتمتع باحترام كبير ، وكان يسمى حتى عهد قريب قسم الدراسات الشرقيـة ، وكان الذى أنشأه هو فيليب حِتّى منذ نصف قرن تقـريبًا . ويسيطر على التوجه الحـالى للبرنامج - مـثل توجـه الكثـير من برامج الـشرق الأدنى الأخـرى - علمـاء الاجتمـاع والسياسة . إذ يقل مـثلاً عدد المناهج الدراسيـة الخاصة بالآداب الكلاسـيكية الإسـلامـية من عـربيـة وفارسـية ، وعـدد المتـخصـصين فيـها من الأسـاتذة ، عن نظائر هذا وذاك فى علوم السياسة والاقـتصاد والاجتماع والتاريـخ الخاصة بالشرق الأدنى . والتعـاون بين هذا البرنامج وبين موسـسة فورد ، مؤسـسة العلوم الاجتـماعيـة الأولى فى البلد ، يدل (وأضيف أنه قد قُـصد به أن

يدل) على التمتع بسلطة علمية وثقة مرجعية من الطراز الأول فى الولايات المتحدة . ومن ثم فإن أى موضوع يحظى بالتركيز عليه تحت رعايتها يجرى إبرازه إبرازًا لا شك فيه ، فما تقترحه برنستون وما تموله فورد يوحى (ويقصد به أن يوحى) بقضايا جديرة بالتأكيد والأولوية وتتمتع بأهمية بالغة . وإن شئنا الإيجاز قلنا إن الحلقات الدراسية المذكورة ، على الرغم أن واضعيها ومديريها من الأكاديميين ، قد عُقدت ونصب عينيها المصلحة القومية . أى إن البحث العلمى كان يعتبر فى خدمة تلك المصلحة، وعلى نحو ما سوف نرى ، كان اختيار الموضوعات يشير إلى أن كل ما يتمتع بأفضلية سياسية لدى الحكومة كان يؤدى فى الواقع إلى فرض مجالات بحثية معينة . ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن مؤسسة فورد وجامعة برنستون لم يكن من المحتمل ، بل ومن غير المحتمل الآن ، أن يبديا الاهتمام بعقد حلقات دراسية ' فاخرة' حول نظريات النحو العربى فى العصور الوسطى ، على الرغم من إمكان إقامة الحجة على زيادة أهمية عقد حلقة دراسية حول هذا الموضوع ، من الناحية الفكرية الصرفة ، عن أهمية أى من الحلقات التى عقدت .

مهما يكن من أمر ، فعلينا أن نسأل : ماذا تناولت الحلقات الدراسية ومن الذى حضرها ؟ كانت إحداها تتناول موضوع "الرق والمؤسسات المرتبطة به فى مناطق الإسلام فى إفريقيا" . وكان الاقتراح الخاص بعقد هذه الحلقة يركز تركيزًا شديدًا على خوف

إفريقيا واستيائهـا من المسلمين العرب ، كما يذكر أيضًا أن "بعض العلماء الإسـرائيليين" قـد حاولوا تحـذير البلدان الإفـريقيـة من الاعتماد أكثر مما ينبغى على الدول العربية التى قامت "فى الماضى بإفراغ أراضيهم من سكانها"(١٢) . وهكذا فإن 'رعاة' هذه الحلقة الذين اختاروا هذا الموضوع يؤكدون قضية من المؤكد أن تؤدى إلى تعكيـر صفـو العلاقـات بين المسلمين الإفريقـيين والعـرب، وقد دفعـتهم محاولة تحـقيق هذا الهدف إلى عدم دعـوة أى علماء من العالم الإسلامى العربى .

وعقـدت حلقة دراسية أخـرى حول نظام 'الذمّيين' ، وكان محـورها الرئيسى هو "وضع الأقليـات ، وخصـوصًا الأقليـات الدينيـة ، داخل الدولة الإسـلاميـة فى الشـرق الأوسط"(١٣) أما 'الذّمّيون' فتعبـير يشار به إلى جماعات الأقليـات المستقلة نسبيًّا داخل الدولة العثـمانية . وبعد تفكك هذه الدولة ، وانتـهاء شتى النظم الاسـتعمـارية الفرنسـية والبـريطانية ، نشـأ عدد من الدول الجديدة فى الشرق الأدنى فى زمـن الحرب العالمية الثانيـة تقريبًا . وكـانت كل منهـا ، أو حـاولت أن تكون 'دولة أمة' ، فكانت إحـداها (إسرائيل) دولة أقـلية دينيـة فى إطار الدول الإسـلاميـة المحيطة بها ، وقُدّرت لدولة أخرى (لبنان) أن تقوم بتمزيقها ، إلى حد كـبير ، أقليـةٌ مناوئةٌ من غير المسلمين ، تـتلقى الأسلحة من إسرائيل وتحظى بمناصرة الولايات المتحدة .

كـان ذلك المحور أبعـد ما يكـــون عـن الموضوع الأكـاديمى

المحايد ، ''فنظام الذمّيين'' تعبير ، حتى فى وضعه بهذه الصيغة ، عن الحل السياسى المفضل للمشاكل المعقدة لمسألة الجنسية والقضايا العرقية فى العالم الإسلامى المعاصر ، ومهما تكن الأسباب الأكاديمية من وراء دراسته ، فإن نظام أهل الذمة يمثل ارتدادًا ونكوصًا إلى عهد سالف بائد ، كانت القوى الاستعمارية (عثمانية أو غربية) تطبق فيه سياسة 'فَرِّقْ تَسُدْ' ، حتى تتحكم فى أعداد هائلة من السكان الذين قد يقومون بمناوأتها . وأما الأغلبية السُّنّيّة من سكان هذه المنطقة ، وبعض الأقليات أيضًا ، فلقد كان التاريخ القريب للعالم الإسلامى الحديث يمثل لها نضالاً فى سبيل تَخَطِّى التقسيمات العرقية والدينية وصولاً إلى نوع ما من الديموقراطية العلمانية (ربما كانت وحدوية) . ولم تنجح أى دولة من دول المنطقة فى تحقيق ذلك إلا فى دنيا السياسات المعلنة (وغير المطبقة فى العادة) ، ولكن إسرائيل والطائفة المارونية التى تنتمى إلى أقصى اليمين فى لبنان قامتا بحملة مستعرة فى سبيل العودة إلى هيكل للدولة يقوم أساسًا على تمتع الأقلية العرقية بالحكم الذاتى وترتبط بروابط ثنائية مع قوة 'راعية' أجنبية أو دولة عظمى . ولم يكن من قبيل المصادفة أن واضعى خطة الحلقة الدراسية قد اقترحوا تطبيق هذا الحل على الفلسطينيين أيضًا ، إذ إن الشخص الذى أحضروه إلى برنسون للحديث عن ''الأقلية'' العربية الفلسطينية (ويا للسخرية المريرة فى وصفهم بالأقلية !) كان أستاذًا إسرائيليًا . ولا يمكننا أن نعزو عقد هذه الحلقة الدراسية حول هذا الموضوع

البالغ الحساسية فى الولايات المتحدة فى مثل ذلك الوقت (١٩٧٨) ومشاركة عدد كبير من أفراد الأقليات الدينية والعرقية المعادية للحكم الإسلامى المزعوم (وهم من يمكن أن يعودوا بالفائدة على راسمى السياسات الأمريكية) إلى أى اهتمام علمى أكاديمى محض. ولم يكن من المصادفات أيضًا أن الداعى الرئيسى إلى عقد هذه الحلقة الدراسية كان الباحث نفسه الذى أشرت إليه آنفًا ، نفس الشخص الذى امتدح حب الاستطلاع الفكرى فى الغرب ، وسخر من جميع الأكاديميين وجميع غير الأوروبيين الذين كانوا يشتمّون مؤامرة سياسية فى كل شىء .

كانت الحلقة الدراسية الأولى قد ناقشت تطبيق أساليب التحليل النفسى وطرائق التحليل المتبعة فى العلوم السلوكية فى تفهم المجتمعات الحديثة بالشرق الأوسط . وصدر فيما بعد مجلد يتضمن أعمال تلك الحلقة الدراسية[١٤] . وقد حققت الحلقة الدراسية ما كنا نتوقعه ، بصفة أساسية ، إذ انصب تركيزها الرئيسى على دراسات الشخصية القومية (ولو أن المجلد يتضمن نقدًا كتبه على بنوزازى لما يزعمون أنه دراسات الشخصية الإيرانية، وهو نقد يقوم على أسس علمية صارمة ويتسم بالوضوح، وقد أصاب كبد الحقيقة حين ربط بين هذه الدراسات المزعومة وبين أهداف التلاعب للدول الإمبريالية ذات المطامع فى إيران[١٥]) . كانت نتائج الحلقة الدراسية متوقعة إلى الحد الذى يدعو إلى الانقباض ، إذ لا يمل الكتاب من تكرار الإشارة إلى أن المسلمين

يعيشون فى عالم وهمى ، وأن الأسرة تمارس القمع والكبت ، وأن معظم القادة مصابون بأمراض نفسية ، وأن المجتمعات لم تصل إلى مرحلة النضج بعد ، وهلم جرًا ، ولا يقدم هذا الكتاب إلينا ذلك كله من وجهة نظر علماء يسعون إلى تغيير هذه المجتمعات بحيث تصل إلى "النضج" ، بل من منظور علماء محايدين ، موضوعيين ، لا يتقيدون بأحكام قيمة ، ولكن الكتاب لا يحسب حسابًا للمواقع التى يشغلها هؤلاء العلماء (مهما يبلغ حيادهم وتحررهم من أحكام القيمة) فى علاقاتهم بالشركات الكبرى والسلطات الحكومية ، ولا يأخذ فى اعتباره الدور المنوط بأبحاثهم فى تنفيذ السياسات الحكومية تجاه العالم الإسلامى ، أو ما يترتب على تطبيق المناهج النفسية عندما يقوم مجتمع قوى بدراسة مجتمع أقل قوة منه .

ولم تتناول الحلقة الدراسية الرابعة بحث أى من هذه الأمور، وكان عنوانها "الأرض ، والسكان ، والمجتمع فى الشرق الأدنى: دراسات فى التاريخ الاقتصادى من فجر الإسلام إلى القرن التاسع عشر" . وقد صورت هذه الحلقة نفسها، مثل غيرها من الحلقات، باعتبارها علمية وغير منحازة ، وإن استطعنا أن نستشف تحت السطح اهتمامًا مُلحًّا إلى حد بعيد ويتعلق بالسياسات ، وكان فى هذه الحالة اهتمامًا بالعلاقات ما بين حيازة الأراضى ، والأنساق السكانية ، وسلطة الدولة ، باعتبار هذه العلاقة مؤشرًا على الاستقرار (أو عدم الاستقرار) فى المجتمعات الإسلامية

الحديثة . ولكن ينبغى ألاّ نتخلص من هذا أن كل مساهمة فى الحلقة الدراسية كانت تفتقر إلى القيمة الموضوعية ، أو أن كل مشارك فى الحلقة كان طرفًا فى مؤامرة شنيعة ، فلقد أبدى القائمون على تنظيم الحلقة حكمة بالغة فى أن كفلوا تحقيق "التوازن" بين الآراء، وكفلوا للحلقة الدراسية أن تتسم، إجمالاً، بسمات المسئولية والجدّية . ومن ناحية أخرى علينا ألا نقع فى شرك اعتبار الحلقة مساوية للمجموع الحسابى لأجزائها الكثيرة المنفصلة . فلقد عملت الحلقات الدراسية الأربع معًا ، فى اختيار الموضوعات والاتجاهات العامة ، على تشكيل الوعى بالإسلام بأسلوب يضمن إمّا إقامة مسافة تفصلنا عنه باعتباره ظاهرة معادية وإما تأكيد بعض جوانبه التى نستطيع "التصدى" لها فى سياساتنا.

وفى هذا الصدد كانت الحلقات الدراسية التى عقدت فى جامعة برنستون حول الإسلام تتفق مع تاريخ برامج الدراسات لبعض مناطق العالم الثالث الأخرى ، فى الولايات المتحدة - مثل الفترة التالية مباشرة للحرب فى الدراسة الأكاديمية للصين[١٦]. أما الفرق فهو أن البرامج الإسلامية لا تزال فى حاجة إلى "مراجعة" وتنقيح ، إذ لا تزال تسيطر عليها مفاهيم بالية ، وغامضة إلى حد غير معقول (مثل مفهوم "الإسلام" نفسه) إلى جانب مصطلح فكرى انقطعت صلاته بالتطورات العامة فى العلوم الإنسانية وفى المجتمع كله : فلا يزال من الممكن أن يُقال عن الإسلام ما لا

يمكن قبوله ببساطة إن قيل عن اليهودية ، أو عن أبناء آسيا الآخرين ، أو عن السود ، ولا يزال من الممكن أن تُكتب عن التاريخ الإسلامى ، وعن المجتمع الإسلامى ، دراسات يسعدها أن تتجاهل كل ألوان التقدم الكبرى فى نظرية التفسير منذ نيتشه وماركس وفرويد .

والنتيجة هى أننا لن نجد فى الدراسات الجارية للإسلام إلا أقل القليل مما يمكن أن يعود بفائدة ما على العلماء المهتمين بالمشكلات المنهجية لعلم كتابة التاريخ بصفة عامة ، مثلاً ، أو بتحليل النصوص . ولكن الذى يحدث ، إذا اعتبرنا الحلقات الدراسية المعقودة فى جامعة برنستون خير نموذج لما نقول ، هو أن يظهر عمل علمى عن الإسلام (مثلما ظهر المجلد الذى يتناول علم النفس فى دراسات الشرق الأوسط) ثم تقوم بعرضه أو 'مراجعته' دورية أو دوريتان من المجلات البالغة التخصص ، ثم يختفى . إن هذا العامل وحده دون غيره ، وأقصد به الموقع الهامشى الذى تشغله الدراسات الإسلامية ، وما يريدونه لها من أن تظل مقطوعة الصلة بالثقافة العامة ، هو الذى يتيح للباحثين مواصلة فعل ما يفعلون ، ولأجهزة الإعلام أن تتولى مهمة نشر الصور العنصرية الساخرة للشعوب الإسلامية . وبهذا الأسلوب تواصل قاعدة البحوث الأكاديمية تدعيم بقائها ، ويستمر الزبائن الذين يشترون أخبار الإسلام فى تلقى جرعات هائلة من التهريج حول الحدود (العقوبات) الإسلامية والحريم ، وهو القوت الذى تقدمه أجهزة

الإعلام لهم على مدى عقود مديدة . وعندما تقع عيون الجمهور على الخبراء ، فهم يظهرون باعتبارهم خبراء دعت إلى ظهورهم أزمة طارئة فاجأت "الغرب" دون استعداد لها . وهم لا يخففون من وقع أقوالهم ، ولا يتحرون الرهافة فى التعبير ، بدافع أى تعاطف ثقافى قديم مع الإسلام ، على نحو ما يحدث فى بريطانيا أو فرنسا ، إذ لا يُعتبرون إلا فنّيين يحملون "عُدَّةً عمل جاهزة من أدوات الصنعة" (وهذه هى عبارة دوايت ماكدونالد)[١٧] لتقديمها إلى الجمهور الذى يساوره القلق. والجمهور يتقبلهم بطيب خاطر ، فهم يلبّون المطلب الذى يصفه كريستوفر لاش بأنه

> الطلب الكبير بصورة غير مسبوقة على الخبراء ، والفنيين والمديرين [الذى أوجده ما يسميه لاش "نظام ما بعد العصر الصناعى"] إذ يزداد اعتماد الشركات والحكومة، فى ظل ضغوط الثورة التكنولوجية ، والزيادة السكانية المستمرة ، وحالة الطوارئ الممتدة بلا أجل مسمى بسبب الحرب الباردة ، على جهاز شاسع من أنظمة البيانات التى لا يفهمها إلا المختصون المدربون، ومن ثم أصبحت الجامعات نفسها مصانع لإنتاج الخبراء بالجملة[١٨] .

ولقد بلغت درجة الجاذبية التى يتمتع بها سوق الخبراء ، وما يدره من أرباح ، حداً جعل معظم الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط تتوجه إلى هذا السوق . وهذا السبب وحده يفسر لنا عدم

التفات أى مجلة راسخة القدم (وكـذلك الكتب التى كتبها العلماء الراسخون فى الآونة الأخيرة) إلى بعض الأسـئلة الأساسية مثل : لماذا نقـوم بدراسات الشـرق الأوسط ؟ ومن الذين نتـوجه إليـهم بصفـقاتها ؟ الواقع أن طمس الـوعى المنهجى يشتـرك فى حدوده اشـتـراكـًا كـامـلاً مع وجـود السـوق (الحكومـات والشـركـات والمؤسسـات) ، فالإنسان لا يَسْأَلُ ببسـاطة عن سبب مـا يفعله إذا وجد الزبائن الذين يقـدرون إنتاجه أو الذين يمكن أن يتـقبلوه على الأقل . بل إننا نرى ما هو أسـوأ ، فالباحث يتوقف عن التـفكير فى الإقليم والبـشر المقـيـمين فيـه ، وهم الذين تجرى الدراسـات عنهم، فـإذا كان "الإسلام" هو موضـوع الدراسة لم ينظـر إليه باعتباره مشاركًا له فى الحوار بل باعتباره، بأحد المعانى ، سلعة . والنتـيـجة العـامـة هى نوع من سـوء النية الراسخ فـى المؤسسـة 'العلمية' . فإذا وجه أحـد من خارجها انتقـادًا لها كان الرد هو رفع راية أمانـة البحث العلمى وشـرف المجال الذى ينتـمى إليه ، ورأيت الاستعداد لإبداء الغطرسة بالألفاظ الرنانة فى نفى الانحياز السيـاسى ، ووجدت البـاحثين يهنئون أنفـسهم بصـورة تدعم ما يجرى حاليًا إلى ما لا نهاية .

لقد تحدثت حتى الآن عن عمل يتسم بالعزلة أساسًا ، ومعنى هذا فى هذه الحالة أن الباحث يمارس عمله فى إطار رد الفعل إزاء ما تطلبه منه شتى المصالح ؛ فهـو يسترشد بما يراه أفراد طائفته من الباحثين صحيحًا ، أكثر مما يسـترشد بضرورات التفسير الأصيل ،

وقبل ذلك كله فإن الثقافة العامة تفرض العزلة على عمله ، وتضعه فى موقع هامشى إلاّ فى أوقات الأزمات . أى إنه يفتقر إلى كلا الشرطين اللازمين لمعرفة ثقافة أخرى وهما الاتصال الذى لا إكراه فيه بثقافة أجنبية من خلال التبادل الحقيقى ، والتزام الحذر فى التفسير كذلك ، وهذا الافتقار يفرض العزلة ، والنظرة المحلية الضيقة ، والدوران فى حلقات مفرغة فى تغطية الإسلام . ومما له مغزاه أن هذه الأمور توضح أيضًا أن تغطية الإسلام ليست تفسيرًا بمعناه الأصيل بل تأكيد للسلطة . وأجهزة الإعلام تقول ما تشاء عن الإسلام لأنها تستطيع ذلك . والنتيجة أن نرى "الحدود" الإسلامية (العقوبات) وصورة "المسلمين" الصالحين (فى أفغانستان على سبيل المثال) تسودان المشهد الحالى بلا تمييز ؛ ولا تكاد التغطية تشمل شيئًا آخر لأن كل ما يقع خارج نطاق التعريف المتفق عليه لما هو مهم لا يعتبر مرتبطًا بمصالح الولايات المتحدة ومفهوم أجهزة الإعلام للموضوع الصحفى الناجح . ومن ناحية أخرى نجد أن الدوائر الأكاديمية تستجيب لما تفهم أنه يلبى المطالب الوطنية ويستجيب لحاجة الشركات ، والنتيجة هو أنها تقوم "بنحت" موضوعات دراسات إسلامية مناسبة من كتلة هائلة من التفاصيل الإسلامية ، وهى الموضوعات (الرق ، ونظام أهل الذمة وهلمّ جرًّا) التى تحدد صورة الإسلام والدراسة الصحيحة للإسلام بحيث تستبعد كل ما لا يتفق تمامًا مع هذا أو ذاك . وحتى حين يحدث وتقوم الحكومة أو يقوم أحد أقسام دراسات الشرق الأوسط بإحدى

الجامعات ، أو تقوم إحدى المؤسسات بتنظيم مؤتمر يتناول مستقبل دراسات الشرق الأوسط (وهى العبارة التى تستخدم عادة كناية عن السؤال التالى "ترى ماذا سنفعل إزاء العالم الإسلامى ؟") نجد أن مجموعة المفاهيم والأهداف تواصل الظهور فيه . لا يكاد يتغير شىء .

ونحن نرى المراهنة بالكثير على هذا التكرار ، وليس بأقله أهمية نظام "الرعاية" الذى يدار باقتدار لا بأس به . فكبار الخبراء فى هذا المجال ، سواء من الحكومة أو عالم الشركات أو الجامعات عادة ما تربطهم روابط معينة ببعضهم البعض وبالجهات المانحة التى تسايرهم . فالباحث الشاب يعتمد على شبكة علاقاته فى الحصول على إعانته المالية ، ناهيك بالوظيفة وإمكان نشر بحوثه فى المجلات العلمية الراسخة . والمغامرة بكتابة بحوث نقدية 'غير ودية' عن العلماء المعترف بهم أو عن عملهم تعنى المخاطرة بالكثير فى هذا المجال أكثر من مجالات التاريخ العام أو الأدب . ولذلك فالمقالات التى 'تراجع' أى تعرض الكتب مقالات لا طعم لها وعادة ما تميل إلى امتداح الكتاب ، والنقد عادة ما يكتب بلغة موحدة تكتسى أشد الألفاظ إغراقًا فى التحذلق والتنطع ، دون إشارة على الإطلاق إلى المنهجية أو الافتراضات المسبقة . وأغرب ما يفتقر إليه هذا المجال - وأشد الظواهر شيوعًا - هو تحليل الصلة التى تربط البحث العلمى بأشكال السلطة المختلفة فى المجتمع الذى ينجز الباحثون بحوثهم من أجله . وما إن يُسْمَعْ

صوتٌ يتحدى مؤامرة الصمت المذكورة حتى يصبح الموضوع الرئيسى هو الأيديولوجيا والأصول العرقية ، فيقال إن الناقد ماركسى ، أو فلسطينى (أو إيرانى أو مسلم أو سورى) - أو تتردد العبارة المألوفة: نحن نعرف **طبيعة** هؤلاء النقاد ![١٩] .

وأما فيما يختص بالمصادر نفسها ، فهم يتعاملون معها دائمًا كأنما كانت خامدة لا حياة لها ، وهكذا فالباحث حين يناقش مجتمعًا أو حركة أو شخصية إسلامية معاصرة ، فإنه يتناول موضوع مناقشته باعتباره ، بصفة أساسية ، من **الأدلة** ، ونادرًا ما يعتبره كيانًا يتمتع بالاستقلال وبحق الرد ، بمعنى من المعانى . ومن الطريف أن الخبراء الغربيين فى الإسلام لم يبذلوا أى محاولة على الإطلاق للتناول المنهجى للكتابة الإسلامية عن الإسلام : هل هى بحوث علمية ؟ هل هى أدلة على شىء ما ؟ أليست هذا ولا ذاك ؟

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الأحوال القاحلة إلى حد بعيد ، بل وربما بسببها ، يكتب بعض الكُتّاب كتابات تتضمن معرفة لها قيمتها عن الإسلام ، وتتمكن بعض الأذهان المستقلة من عبور الصحراء . ولكننا نستطيع القول بأن الطابع الهامشى العام والتفكك **الفكرى** العام (فى مقابل اتفاق آراء أبناء المهنة الواحدة) وإفلاس الشروح والتفسيرات فى معظم ما يكتب عن الإسلام - لا فى كل ما يكتب قطعًا - يرجع إلى الزمالة التى تربط بين أطراف الشبكة التى تضم الشركات والحكومة والجامعات ، وهى الشبكة

التى تسـيطر على العمـل برمتـه . وهذا فى نهاية المطاف هو مـا يتحكم فى كيـفية رؤية الولايات المتحـدة للعالم الإسلامى . وإلاّ فمـا السبب الذى يجعل مـثل هذا الهيكل البـالغ الغرابة للمعـرفة بالإسلام ينمو ويزدهر ، وقد تشابكت فروعه، وترسخت جذوره، غير عابئ بما يصيبه من فشل مرة بعد أخرى ؟

وأنجع منهج لفـهم طابع هذه الرؤية بدقـة ، وهى الرؤية التى اكتسبت قوة الإيمان الذى لا يحتـمل التساؤل ، هو أن نقارنها مرة أخرى بالموقف السائد فى بريطانيا وفرنسا ، وهمـا اللتان خَلَفَتْهُمَا الولايات المتحـدة فى العالم الإسلامـى . ففى كل منهمـا كنا نجد دائمًا ، بطبيعة الحال ، صَفًّا من الخبراء الإسلاميين الذين ينهضون بدور استشارى ، ومنذ مدة بعيدة ، فى وضع السياسات الحكومية والتجارية وحـتى فى تنفيذها . ولكنا كنا نجد فـى كلتا الحالتين أن المهمـة المباشرة هى إدارة شئـون الحكم فى المستعمـرات ، وهو ما استـمر قائمًا حـتى نهاية الحرب العـالمية الثانيـة ، وكان يُنظر إلى العالم الإسـلامى باعتبـاره سلسلة من المشاكل المنفـصلة ، وكانت المعرفة بتلك المشكلات ، بصفة عامة ، معرفة علمية تجريبية ونابعة من التصدى المباشر لهـا . صحيحٌ أن بعض النظريات والتجريدات الخاصة بالعقل الإسلامـى ، فيما يتعلق '**بالرسالة الحضارية**' عند فرنسا ، وبالحكـم الذاتى للـشعوب الخاضعة لبـريطانيا ، تتدخل هنا وهناك فى تطبيق السيـاسات ، ولكن ذلك لم يكن يحدث إلا بعد وضع السـياسـات والشروع فى تنفيـذها ميـدانيًا إن صح هذا

التعبير ، وكان للحديث عن الإسلام دور يكاد ينحصر فى تبرير المصلحة القومية (أو حتى المصالح الاقتصادية الخاصة) فى العالم الإسلامى . وهذا هو السبب الذى يفسر لنا وجود علماء كبار فى الدراسات الإسلامية فى بريطانيا وفرنسا اليوم ، واعتبارهم من الشخصيات العامة المرموقة ، وأما مبرر وجودهم ، حتى بعد أن تفككت الامبراطوريات الاستعمارية الآن، فهو الحفاظ على اهتمام فرنسا وبريطانيا بالعالم الإسلامى. والطابع الغالب لأمثال هؤلاء العلماء ، ولأسباب أخرى كثيرة ، هو طابع البحث الإنسانى لا البحث فى العلوم الاجتماعية ، والتأييد الذى يتمتعون به فى الثقافة العامة لا يرجع إلى الطلب على الخبراء الذى يتسم به نظام ما بعد العصر الصناعى (وهو الطلب القائم فى البلدين جميعًا) مثلما يرجع إلى التيارات الفكرية والأخلاقية العريضة فى المجتمع، فإن رودنسون فى فرنسا أستاذ مرموق فى فقه اللغة وهو أيضًا ماركسىٌّ شهير ، وحورانى فى انجلترا مؤرخ ذائع الصيت ورجل يشى عمله بليبرالية واضحة[٢٠] . ولكن أمثال هؤلاء لم يعودوا يظهرون فى فرنسا وفى انجلترا ، ومن المحتمل أن يحل محلهم فى المستقبل علماء اجتماع بالأسلوب الأمريكى أو علماء آثار متخصصون .

وأما العلماء المماثلون فى الولايات المتحدة فلا يُعرفون إلا بصفتهم خبراء فى الشرق الأوسط أو خبراء إسلاميين ، فهم ينتمون إلى طبقة الخبراء ، وأما مجال عملهم ، فى حدود ما

يربطهم بالمجتمعات الحديثة فى العـالم الإسلامى ، فيمكن اعتباره المرادف الفكرى لعلم إدارة الأزمات . وهم يدينون بجانب كبير مما يتمتعون به من مكانة إلى القول بأن الولايات المتـحدة تعتبر العالم الإسلامى منطقـة استراتيجيـة حافلة بالمشكلات التى يمكن أن تنشأ (وإن لم تكن دائمًـا مشكلات حـقيقـية) . وعلى امـتداد العـقود العديدة التى تولت فـيها بريطانيا وفرنسـا إدارة شئون المسـتـعمرات الإسلامـية ، تكونت لديهـما بصـورة طبيـعية طبـقة من الخـبراء بالمسـتـعمرات ، ولكن هذه الطبـقة لم تفرز مـا يتبعهـا أو ما نراه ملحقًا بها فى الولايات المتحـدة ، أى شبكة التحالف بين دراسات الشرق الأوسط والحكومة والشركات. كـان أساتذة اللغة العربية ، أو الفـارسيـة، أو المؤسسـات الإسلامـية ، يقـومون بعـملهم فى الجامعات البريطانية والفـرنسية ؛ وكانوا يتلقون الدعوة من وزارات المستعـمرات أو من الشركات الـتجارية الخاصة لإسـداء المشورة أو حتى للمـشاركة فيهـا ، وكانوا أحيانًا يعـقدون المؤتمرات ؛ لكنهم فيمـا يبدو لم ينشئوا هيكلاً مـستقلاً خاصًـا بهم ، يتولى الإنفاق عليه بل والمحافظة على وجوده القطاع التجارى الخاص ، أو يتلقى الدعم المباشر من المؤسسات والحكومة .

وهكذا تحـدد المعـرفة بالـعالم الإسـلامى وتغطيـة أنبـائه فى الولايات المتحدة عوامل الجغرافيا السـياسية والمصالح الاقتصادية ، وعلى نطاق هائل من المحال تحـقيقه للفـرد ، ويدعم هذه العوامل ويساعدها هيكل لإنتـاج المعرفة يكاد يماثله فى ضخامتـه واستحالة

التحكم فيـه . وما عسى أن يفعله دارس قبائل الجـزيرة العربية أو قبائل الإمـارات العربية إزاء العقـبة التى يمثلها وجود شـركة النفط بينه وبين هذه القـبائل ، وإزاء الحديث الجـاد عن قوات الانتـشار السريع والعمل على تنفيذها (انظر موضوع الغلاف لمجلة **نيوزويك** فى ١٤ يوليـو ١٩٨٠ بعنوان ''الدفـاع عن حقـول النفط : زيادة الحشـود العسكرية الأمـريكية'') فى منطقة الخليج ، وإزاء الجـهاز الكامل من ''العاملين'' فى مجال الشرق الأوسـط بوزارة الخارجية الأمريكيـة ، وبالشركات والمؤسـسـات ، وشتى كبـار الأساتذة من المستشرقين ؟ تـرى أى لون تكتسبه المعرفة بثقـافة أخرى فى الواقع حين تكون محـاطة بسياجٍ من الافـتراضات النـظرية التى تقول إن ''أزمة الهلال'' أزمة ملحة عاجلة، من ناحية، وسياج من الروابط المؤسسـية المزدهرة بين الدراسة العلمـية ، والشركات التـجارية ، والحكومة ، من ناحية أخرى ؟

ولأختتم هذا القسم بمحاولة الإجـابة عن هذا السؤال بحقائق من الواقع ، فى جزءين ، يتعلق الجـزء الأول بالأوضاع الفعلية ، وبالحقـائق والأرقام التى تحكم ما يمكن أن نسمـيه التغطية العـملية والتى تعتـبر 'صحيـحة' للإسلام . وسـوف أركز على الولايات المتحدة وإن كنت أرى أن مـوقفًا مماثلاً إلى حد بعيـد قد بدأ يسود فى أوروبا ، تدريجيًا ، أيضًا . يقول مسح فرنسى مـفيد للمراكز الأمريكيـة لدراسات الشـرق الأوسط إن عددًا يبلغ تقـريبًا ١٦٥٠ متخـصصًا فى الشرق الأوسط كان يقـوم فى عام ١٩٧٠ بتدريس

لغات المنطقة لعدد من طلاب الدراسات العليا يبلغ ٢٦٥٩ طالبًا، و ٤١٥٠ من طلاب الدرجة الجـامعيـة الأولى (وهم يمثلون، على الترتيب ، ١٢ فى المائة و ٧,٤ فى المائة من مجـموع عدد طلاب الدراسات العليا والدرجة الجامعية الأولى الذين اختاروا "دراسات المنطقة" مادة رئيـسية[٢١] . وقد اخـتار المواد الدراسـية الخـاصة بالشرق الأوسط التى تشـملها "دراسات المنطقة" عدد من طلاب الدراســات العليا يبلغ ٦٤٠٠ طالبًـا ، وعدد من طلاب الـدرجة الجامعـية الأولى يبلغ ٢٢٣٠٠ طالبًا (وكان يمثـل نسبة ١٢,٦ من المجمـوع) ولكن رسائل الدكتوراه الـتى كتبت فى مجـال دراسات الشرق الأوسط فى الأعوام الأخيرة كانت لا تشكل إلا نسبة ضئيلة بالمقارنة بغـيرها ، إذ لم يتقدم بهـا إلا أقل من واحد فى المائة من طلاب الدكتوراه فى البلد[٢٢] . وتقول دراسة تتسم بالعمق والفطنة لمراكز الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكيـة كتبها ريتشارد نولت (والطريف أن شركـة إسو للشرق الأوسط ، وهى فـرع من فروع شركة إكس كـون للنفط ، هى التى كلفته بإعـدادها) ونشرها فى عام ١٩٧٩ ، إن وزارة التـعليم الأمريكية كـانت تساند "دراسات المنطقة" بهدف "إعداد الخبراء والمتخصصين بـسرعة وبأعداد كبيرة لتلبية أغراض الشركات والأغراض الحـكومية والتعليمية" . ولقد استـجابت الجامعـات لهذه النظرة ، وقد أصـاب نولت حين كتب يقول "تعتبر مراكز الشرق الأوسط ، مـن وجهة النظر الجامعية ، آلية تسويق جديدة تبشر بالخير لإنتاج الجامعات، إذ لن تقتصر على

المساعدة فى زيادة قابلية هذا الإنتاج للتسويق ، من المتخصصين فى شتى الفروع العلمية المفيدة من دراسات المنطقة ، والمهنيين اللازمين للأسواق الجديدة التى يمكن أن تتسع اتساعًا هائلاً ، لكنها سوف تساعد أيضًا فى إنشاء هذه الأسواق" . ويقول أيضًا فيما يتعلق ببرامج الماچستير "تتمتع الأسواق الحكومية ، وأسواق الشركات والمصارف وغير ذلك من الأسواق المهنية بالرواج النسبى فيما يتعلق بتعيين الحاصلين على الماچستير الذين تلقوا التدريب المناسب فى دراسات الشرق الأوسط ، بفضل العوامل الاقتصادية والسياسية المتماثلة عند الجميع"(٢٣) .

وكما تساعد الحلقات الدراسية التى عقدت فى جامعة برنستون، والتى أشرت إليها آنفًا ، فى تشكيل الاهتمامات الفكرية للباحثين والدارسين ، نجد أن حقائق هذه الأسواق تؤثر هى الأخرى فى المواد الدراسية وموضوعات البحوث . وتركز دراسات الشرق الأوسط أشد التركيز على مجالات معينة مثل الشريعة الإسلامية والصراع العربى الإسرائيلى ، فصلتها بالواقع الحى واضحة فى الظاهر ، ولكن ذلك يترتب عليه ، وفقًا لما يقوله نولت ، تجاهل الأدب ، وتجاهل المجموعات الكبيرة إلى حد ما من طلاب الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية . كما يقول نولت إن مديرى المراكز الذين حادثهم

أشاروا إلى أحداث معينة تعرضوا فيها لضغوط سياسية منظمة ، كان مصدرها فى حالات كثيرة من خارج

الجامعات ، ترمى إلى منع أو تشويه صورة بعض الأنشطة المرتبطة بالعرب ، والتى تراها المراكز المعنية مشروعة ومستحبة من وجهة النظر الأكاديمية ، ومن بينها الاحتفالات الثقافية العربية ، وعرض الأفلام العربية ، واستضافة المتحدثين العرب ، وقبول المنح العربية لتدعيم الميزانية – وغير ذلك كثير . وقد أدى الوعى بهذا إلى فرض 'التعويق النفسى' على الجميع ، وهو ما لم يتخلف معظم المديرين عن إبداء استيائهم منه، ولم يكن بينهم من يملك أن يتجاهله . وقال بعضهم إن الأحوال تسير فى طريق التحسُّن ، وتشكك آخرون فى ذلك[٢٤] .

وتعلن هذه وتلك جميعًا – أى السياسة والضغوط والأسواق – عن نفسها بطرائق مختلفة . فالحاجة إلى الخبرة بالشرق الأوسط المعاصر تؤدى إلى وضع مناهج دراسية كثيرة ، والتحاق الكثيرين من الطلاب بها ، مع التأكيد الواضح على قبول 'منظورات' المعرفة الأساسية التى تجمع بين الربح المادى وإمكان التطبيق الفورى ، والحفاظ على هذه 'المنظورات' . ومن النتائج الأخرى أن الأبحاث المنهجية غائبة عن الساحة غيابًا مطلقًا ، فالطالب الذى يرغب أن يشق طريق حياته العملية فى دراسات الشرق الأوسط يخشى أول الأمر السنوات الطويلة المجدبة اللازمة للحصول على الدكتوراه (دون ضمان الحصول على وظيفة مدرس

آخر الأمر) فيحصل على الماجستير أو دبلوم الدراسات الدولية فى موضوع تتوافر فيه الجاذبية لأكبر أصحاب العمل (الحكومة ، وشركات النفط ، وبيوت الاستثمار الدولية، وشركات المقاولات) وأخيرًا يقوم بعمله بأسرع ما يمكن ، وفى شكل 'دراسة حالة' . ويؤدى هذا كله إلى عزل دراسة الإسلام أو الشرق الأوسط عن التيارات الفكرية أو الأخلاقية الأخرى فى دنيا الباحثين والعلماء . وتبدو أجهزة الإعلام هنا مسرحًا أصلح وأجدى لعرض خبرته من الدوريات العلمية المتخصصة مثلاً ، كما أن الظهور فى أجهزة الإعلام يعنى ، على نحو ما يعرف من اعتادوا ذلك ، إما أن تكون مناصرًا لقضية ما (وهو ما يفرض عليك قيودًا شديدة) أو تظهر بصورة الخبير الهادئ الذى استُدْعى دون تحيز ليصدر الأحكام على المذهب الشيعى ومعاداة أمريكا . ومن الواضح أن دور الخبير يساعد المرء فى حياته العملية ، إلا إذا كان قد أصاب النجاح من قبل فى التجارة أو فى عمل حكومة .

قد يبدو ذلك فى صورة 'المحاكاة الساخرة' لأسلوب إنتاج المعرفة ، لكنه يصف بدقة كافية مدى ضيق التركيز والفقر الفاجع للمادة الدراسية اللذين يعيبان المعرفة بالإسلام ، وهو يفسر لنا ، قبل كل شىء ، سبب ابتعاد الخبراء الأكاديميين كل البعد عن الطعن فى الصور النمطية السوقية التى تروجها أجهزة الإعلام ، إذ إنهم يشكّلون هيئة فقدت استقلالها وأصبح أفرادها يقتصرون على أداء الدور الذى تقضى به وظائفهم ، وهو الذى يرمز لمكانتهم

باعـتبارهم الحـجة الموثـوق بها فى مـوضوع الإسلام ، وكـذلك اعتـمادهم على النظام الكُلّى الذى يحـدد هذه الوظائف فى إطاره ويجعلها مشروعـة ، وهذا هو النظام الذى نرى تجلياته فى أجهزة الإعـلام التى تعتـمد عـلى الصور النمطيـة القـائمة على الخـوف والجهل .

وإذا كان مـا تحدثت عنـه حتى الآن يبـدو فى صورة القـيود الفكرية التى تحد من حرية البحث العلمى - وهى الصورة الحقيقية دون شك - فإن هذه القيود لا تحول دون إنتـاج مادة كلامية هائلة عن الشـرق الأوسط وعن الإسـلام بل وعن بعض مناطق العـالم الأخرى . وبعبـارة أخرى نجد أننا نواجه الآن ما وصفـه فوكوه ، فى سياق آخر ، بأنه ''الحضُّ على الكلام''(٢٥) . فالقيود التنظيمية للفكر والتـفكير بشأن الثـقافات الأجنبـية النائيـة تختلف اختـلافًا شاسـعًا عن عـمل الرقيب الذى يتـدخل بالمنع والحـذف ، إذ إنها تحض بصورة إيجابية و'تأكيدية' على كتابة المزيد من المادة المنتجة فى ظل هذه القيـود . وهذا هو سبب استـمرارها رغم التغـيرات التى يشـهـدها العـالم ، وسـبب مواصلتـهـا تجنيد العـاملين فى خدمتها .

وهكذا فإن التغطية الحالية للإسلام وللمجتمعات غير الغربية، فى مجملها ، تضفى القداسة فى واقع الأمر ، على عدد معين من الأفكار والنصوص والثقات . فالفكرة التى تقول إن الإسلام ينتمى للعصـور الوسطى ويشكل خطرًا علينا ، مثلاً ، أصبـحت تشغل

مكانًا محـددًا بدقة فى الثـقافة العـامة وفى السيـاسة ، فمـا أيسر الاستشهاد بالثقات لتأكيدها ، والإشارة إليها ، وإقامة الحجة على صحة زعمٍ مـا بشأن جانبٍ ما من جوانب الإسلام اسـتنادًا إليها، ولقد أصـبح ذلك ميـسورًا وفى متناول أيدى الجـميع، لا الخـبراء وحدهم ولا الصحـفيين . ومثل هذه الفكرة تقوم بدورها بصفـتها المعيار المسبق الذى لابد أن يضعه فى حـسبانه كل من يبغى مناقشة الإسلام أو قـول شىء ما عن الإسـلام . فبـعد أن كـان الإسلام حقيقة خارجـية ، أو بالأحرى تلك الكيانات المادية المرتبطة به فى كل حالة ، أصبحت هذه الصورة للإسلام ذات صـحة معتمدة فى هذا المجتـمع نفسه ، بعـد أن دخلت الثقافة المـعتمدة وأصـبحت تنتمى إليها ، وهو ما يجعل من مهمـة تغييرها عملاً بالغ الصعوبة حقًا وصدقًا .

ويكفى هذا فيما يتـعلق بالتغطية ' المعتمدة' للإسلام ، وهى التغطية التـى أدت روابطها بالسلطة إلى منحها القـوة ، والثبات ، وكذلك وقبل كل شىء ، **الحضور** . ومع ذلك فلقد شاعت نظرة أخرى للإسلام ، تنتمى إلى فئة أخرى قد أطلق عليها صفة **المعرفة المضادة**(٢٦) .

وأعنى بالمعرفة المضادة نوع المعرفـة الذى ينتجه الذين يعتبرون أنهم يعارضون ، واعين ، الصورة السائدة المعتمدة فيما يكتبون . وهم يفعلون ذلك ، على نحـو ما سوف نرى ، لأسباب مـتفاوتة وفى مواقف مـتباينة ، ولكنهم جمـيعًا يدركون جـيدًا أن أسلوب

وأسبـاب دراستهم لـلإسلام مسـائل تتطلب التأمل والصـراحة . ونحن لا نجد فى تفسيرات هؤلاء المفسرين المضادّين ما نعهده من صمت منهجى فى كتابات المستشرقين ، وهو الصمت الذى عادة ما يشيع فيه التـفاؤل النابع من الثقة فى ' موضوعيتهم' البريئة من أحكام القيمـة ، بل نجد بدلاً منه مناقشة تتميـز بالعجلة والإلحاح للمعانى السياسية للدراسة الأكاديمية .

وتنقسم المعـرفة المضـادة بالإسلام إلى ثلاثة أنمـاط رئيسية ، تنتجـها ثلاث قـوىً فى المجتـمع القادر على تحدى تـلك الصورة السائدة المعتمدة : تتكـون الأولى من مجموعة من الباحثين الشبان الذين يتسمون بالمزيد من الحذق العلمى والمزيد من الأمانة السياسية عن أقرانهم الكبار العـاملين فى هذا المجال ، وهم يرون أن دراسة الإسلام ترتبط بصورة ما بالنشـاط السياسىّ للدولة ومن ثم فهم لا يتظاهرون بأنهم باحثون " موضوعيون" . وهم يرون أن انغماس الولايات المتحدة فى السياسة العالمية ، وهى التى يرتبط جانب كبير منها بالعالم الإسلامى ، حقيـقة لا ينبغى الصمت إزاءها أو تقبلها باعتبارها واقعًا محايدًا . ويتميزون عن المستشرقين الأكبر سنًّا بأنهم متخصـصون ولا يهتمون بإصدار الأحكام العـامة مثلهم ، وبأنهم يرحبون بالأدوات المنهجية التجديدية مثل الأنثروبولوجيا البنيوية ، والمناهج الكميّـة ، والطرائق الماركسيـة للتحليل، ويبدون اهتمـامًا حقيـقيًا بها وينـجحون فى تطبيـقها فى حالات كـثيرة[٢٧] . وهم يبدون حساسية ووعيًا خاصًّا بأشكال الخطاب الاستشراقى المتسمة

بالتحيز العرقى ، ويتميز معظمهم ، بسبب حداثة سنّهم ، بالعمل إلى حد ما خارج نطاق نظام 'الرعاية' الذى يضمن لشيوخ مهنتهم ما ينعمون به من ترف . وقد برزت من صفوفهم 'الحلقة الدراسية البديلة لدراسات الشرق الأوسط' ، كما ظهر مشروع بحوث ومعلومات الشرق الأوسط ، وقد أنشئ كلاهما باعتبارهما منظمتين ترميان بصفة محددة إلى تجنب التواطؤ مع الحكومة وشركات النفط . وقد تشكلت مجموعات مماثلة فى أوروبا ، وترتبط كل هذه الهيئات بعضها بالبعض . ولا ينتمى جميع الباحثين الشبان الذين أشير إليهم إلى هذه الهيئات ، ولكن معظمهم يبتغون تعديل المناهج القائمة وتنقيحها . وهم يسعون جميعًا إلى دراسة الإسلام من منظورات يهملها أو يجهلها من هم أكبر سنا منهم .

وتتكون المجموعة الثانية من باحثين أكبر سنًّا ولكنهم ، لأسباب أكثر من أن تلخص تلخيصًا منهجيًّا ، يتبعون مناهج معارضة للدراسات المعتمدة السائدة فى هذا المجال . وعلى سبيل المثال نجد أن حامد الجار ، من بيركلى ، ونيكى كيدى من جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس ، ينتميان إلى القلة القليلة من الباحثين المتخصصين فى إيران الذين قاموا ، قبل نشوب الثورة الإيرانية بعدة سنوات ، بإيلاء الدور الذى يلعبه علماء الدين (رجال الدين الشيعة فى إيران) ما يجدر به من اهتمام . ويختلف الجار عن كيدى اختلافًا كبيرًا ، وإن كان كل منهما قد أعرب عن تشككه

الكبيـر فى استقـرار نظام الحكم البهلوى . وعلى غـرار ذلك قام إرڤاند إبراهاميان، مـن كلية باروخ ، بإجراء دراسات للمـعارضة العلمانيـة للشاه ، وهى الدراسات التى تضـمنت سلسلة رائعة من النظرات العميقة فى الديناميات السياسية للثورة ، ومن بعده مايكل ج. فيشر من جامعة هارڤارد ، وفريد هاليداى فى انجلترا ، وهما باحثـان دفعتـهمـا دوافع فكرية وأكاديمية إلى الخـروج على نظرية الأغلبيـة إلى إيران ، ومن ثم أجريا دراسـات ذات قيمـة فذة فى إيران المعاصرة(٢٨) .

والطريف أنه من المحـال وضع تلخـيص منصف للخصـائص المنهجـية والأيديولوجـية لهـؤلاء الذين يكتبون هذه الـكتابات عن الإسـلام . ومع ذلك فـمن اللافت للنظر أنه ليـس من بينهم من ينتمى إلى ' مؤسـسة' دراسات الشـرق الأوسط ، ولا يعنى هذا أنهم شخصيات غيـر بارزة أو لا تتمتع بالاحترام ، فهم فى الواقع مبرزون ومـحترمون ، وإن كان يندر أن نجد بينهم من يعـمل فعلاً أو بحكم الوظيفـة مستشـارًا للحكومة أو للشركـات . وقد يكون ذلك هو ما حرّرهم مـن الالتزام بالوضع الراهن ومكّنهم من رؤية ما أهمله وتجاهله الكُتّاب التـقليديون عن الإسلام . لكننا لابد أن نقول إن عملهم ، وعـمل مجموعة الباحـثين الأصغر سنًا والمشار إليهم آنفًا ، لن يحقق ما هو قادر عليه من تأثير إلاّ إذا ازداد الدور السـياسـى المنوط بهم فى هذا المجـتمع . أى إن اعـتناقـهم لآراء تميّزهم عن الخبراء ' المعتمدين' لا يكفى ، وعليهم أن يحاولوا أن

يكفلوا الشيوع لآرائهم بين الناس ، وهو جهد يتجاوز كثيراً مجرد كتابة الدراسات ونشرها ، ومن ثم فهم يواجهون مستقبلاً حافلا بالنضال السياسيّ والتنظيميّ .

ونرى ثالثًا مجموعة من الكتّاب والدعاة والمفكرين الذين لا يعتبرون من الخبراء المعتمدين عن الإسلام ، وإن كانت معارضتهم لما هو شائع بصفة عامة هى التى تحدد دورهم فى المجتمع ، وهؤلاء هم المناضلون المناهضون للحرب وللإمبريالية ، ورجال الدين المنشقون ، والمفكرون والمعلمون الراديكاليون وهلم جرا . ونظرتهم إلى الإسلام لا يكاد يربطها شىء بمذهب المستشرقين ، وإن كان بعضهم قد تأثر بالاستشراق الثقافى الشائع فى كل مكان فى الغرب . ومع ذلك - إذا أخذنا رجلاً مثل أ. ف. ستون مثالاً- فسوف نجد بعض العوامل التى تخفف من التشكك والنفور الثقافى من الإسلام مثل إدراك طبيعة الإمبريالية، وهو الإدراك الذى تنجم عنه مشاعر أقوى وأصلب ، ومثل إدراك طبيعة المعاناة البشرية سواء كان من يكابدونها من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين . وقد تفرد ستون بالتنبؤ بعواقب استمرار الولايات المتحدة فى مناصرة الشاه بعد الثورة ، ولقد كان أمثاله ، لا الخبراء الحكوميون أو الأكاديميون فى شئون إيران ، هم الذين نادوا باتخاذ سياسات المصالحة مع النظام الثورى .

وأما ما يدعو للإعجاب بهؤلاء الأشخاص فهو أنهم لا يحملون شهادات خبرة رسمية بالإسلام ولكنهم استطاعوا رغم

ذلك ، فيما يبدو ، أن يتفهمـوا ديناميات معينة داخل عالم ما بعد الاستعمار ومن ثم داخل مناطق أكـبر من العالم الإسلامى . وأما التقسيـمات الجديرة بالاهتمام فى نظرهم فتقـوم على أساس الخبرة البشرية لا على أساس 'العناوين' التى تحد من القدرة على التفكير مثل ''العقل الإسلامى'' أو ''الشخـصية الإسلامـية'' . زد على ذلك أن لديهم اهتمامًا حقيقـيًا بمبدأ التبادل والمبادلات ، واختاروا عامـدين أن يتجـاوزوا ما رسـمتـه الحكومات من خطوط صـارمة للعداوة بين الشعـوب . ويخطر على البال هنا أساسًا قـيام رامزى كلارك بزيارة طهران ، والدور الذى يتسم بالشجاعة الذى نهض به فى أحلك أيام الأزمة الإيرانيـة أفراد مثل ريتشـارد فولك ، ووليم سلون كـوفين الإبن ، ودون لوس ، وغيـرهم ممن لا يحـصيـهم العد، إلـى جانب بعض المنظمـات مثل لجنة خـدمة الأصـدقاء ، ومثل منـظمة ''رجـال الدين والعلمـانيين الذين يعنيـهم الأمـر'' وغيرها من المجموعات المماثلة . وعلينا أن نضيف إلى هذا الحشد من المنشقين شتى المجـلات والمطبوعات و'وكالات الأنباء' البديلة ، ومن بينهـا **سـبـعـة أيام والأم جونز** ، **وفى هذا العـصـر** ، **والجارديان**، ووكالة أنباء المحـيط الهادى ، **والمسيـحيـة والأزمة** ، وهى التى فتحت صفحاتها وأتاحت مواردها للآراء المعارضة [للتيار الرسمى] فى قضية إيران ، وبنسـبة أقل ، مع الأسف ، فى قضية الإسلام. وقد تكررت الظاهرة نفسها فى أوروبا .

وأما أهم مـا تتسم به هذه المجمـوعات الثلاث فى رأيى فـهو

أنها تعتبـر المعرفة ، أساسًا ، مطلبًا يسعى المرء جاهدًا إلـى تحقيقه ومجالاً لاختلاف الآراء ، لا مـجرد ترديد سلبى للحقائق والآراء ''المقبولة'' . والصراع بين هذه النظرة ، فى حدود ما يترتب عليها من تأثير فى موقفنا إزاء الثقافـات الأخرى ، وما يترتب عليها من تأثير فى المسائل السياسية الأوسع نطاقًـا ، وبين المعرفة المتخصصة المؤسسية التى تتـبناها القوى المهيمنة فى المجتمـع الغربى المتقدم ، صراع بالغ الأهمية . فـهو يتخطى ويتجاوز كثيـرًا تساؤلنا عما إذا كان أحـد الآراء يؤيد الإسـلام أو يعارضـه ، وعما إذا كـان المرء يتمتع بالوطنية أو يتصف بالخيانة . فكلما ازداد ترابط عالمنا واشتد تشابك أطرافـه ، زاد استحـسان (وازدادت ضـرورة) الرقابة على الموارد المحـدودة ، والمناطق الاستـراتيجـية والأعـداد الكبيـرة من السكان . وأما الحرص على تغذية المخـاوف من الفوضى والتشتت فـمن الأرجح أن يؤدى إلى '' قولـبة'' الآراء وزيادة التـشكك فى العالم '' الخارجى'' ، ويصدق هذا على الـعالم الإسلامى مـثلما يصدق على الغرب . وفى تلك المرحلة ، التى بدأت الآن فعلاً، سوف ينهض 'إنتاج' المعرفة ونشرها بدور رئـيسى حاسم بصورة مطلقـة . لكنه حتى يحين مـوعـد تفهـمنا للمعـرفة فى صـورها الإنسانية والسياسية باعتبارها شيئًا نكتسبه لفائدة التعايش والترابط، لا من حيث ارتباطها بأجناس أو أمم أو طبـقات أو أديان معينة ، فلن يبشر المستقبل بالخير .

ثانيا : المعرفة والتفسير :

تعتبر جـميع المعارف الخاصة بالمجتـمع البشرى ، لا المعارف الخاصة بالعـالم الطبيعى ، من المعارف التاريخـية ، ومن ثم فهى تعتمد على الأحكام والتفسيرات . ولكن هذا لا يعنى عدم وجود الحقائق أو البيانات ، ولكنه يعنى أن الحقـائق تكتسب أهميتها من المعنى الذى تكتسبه فى التـفسير . فلا يختلف اثنان حول الحـقيقة التى تقول إن نـابليون قد وجـد وعاش فعـلاً وإنه كان امـبراطوراً فرنسيًا ، ولكن الخلافـات التفسيرية كثيرة حول مـا إذا كان حاكمًا عظيمًا أو حاكـمًا جلب مصائب من لون ما لفـرنسا . وأمثال هذه الخلافات هى المادة التى تتشكل منها الكتابة التاريخية وتُستَقَى منها المعرفة التاريخية . فالتفسيـرات تعتمد كثيرًا على شخص المفسر ، وعلى من يتوجـه إليه هذا المفسـر بالخطاب ، وعلى الغرض الذى يبغى تحقيقه من هذا التفـسير ، وعلى اللحظة التاريخية التى يقوم فيها بالتـفسير . وبهذا المعنى يمكن وصف جميع التفـسيرات بأنها تخضع للسياق أو بأنها **سياقية** ، فهى تقع فى سياق أوضاع ترتبط بها ، ومن ثم فعـلاقةُ هذا السياق -التفسـير علاقةٌ **ارتباطية**(٢٩) . والسيـاق يرتبط بما يقـوله المفسـرون الآخرون أيضًـا ، فقد يـؤكد صحتـه ، أو يطعن فيها ، أو يمثـل استمرارًا لما جاء بـه المفسرون الآخرون . ولا يوجـد تفسيـر دون سوابق أو رابطة ما بغـيره من التفسـيرات . وهكذا فكل من يكتب كتـابة جادة عن الإسلام، أو الصين، أو شيكسبير ، أو ماركس ، لابد له أن يأخذ فى اعتباره،

بصورة مـا ، ما سبق أن قيل فـى هذه الموضوعات ، ولو اقتـصر السـبب على رغبـة الكاتب فى ألا يبـدو ما كـتبـه غيـر ذى صلة بالموضوع أو من باب الحشو الذى لا لزوم له . ولا توجد أى كتابة (بل ولا يمكن أن تكون) جديدة إلى الحد الذى يهبها صفة الأصالة الكاملة ، فالكتـابة عن المجتمـع البشرى ليـست حلولاً لمسائل فى الرياضـيات ومن ثم فليس للـمرء أن يطمح إلى تحـقيق الأصـالة 'الجذرية' الممكنة فى ذلك العلم .

وهكذا فإن المعـرفة بالثقافات الأخـرى تتعرض بصفـة خاصة لعدم الدقة، وهى سمة 'غير علمية' كما تخضع لظروف التفسير. ومع ذلك فلنا نقول بصفـة غير قطعية إن المعرفة بإحـدى الثقافات الأخرى ممكنة ، ومن المهم أن نضيف أنها مسـتحبة ، إذا ما توافر شـرطان اثنان ، وهمـا ، بالمناسـبـة ، عين الشـرطين اللذان لا يتـوافـران اليـوم فى دراسـات الشـرق الأوسط أو فى الدراسـات الإسلامية بصفة عـامة . أما الشرط الأول فهو أن على الدارس أن يشعر أنـه مسئول أمام الثـقافات والأشخـاص الذين يدرسهم وأنه على علاقة 'غير جبرية' معهم . وكما ذكرت آنفًا ، كان معظم ما عـرفه الغرب عن العالم غير الغربى قد عرفه فى إطار الاستعمار ، ومن ثم فـإن الباحث الأوروبى كـان يتناول موضـوعه من مـوقع السيطرة العام ، ويقول ما يقوله **عن** موضوعه دون الرجوع رجوعًا يُعتدّ به إلى ما قاله غيره من غـير الباحثين الأوروبيين . ولقد سبق لى تعديـد الأسباب ، فى هذا الكـتاب وفى **الاستشراق** ، التى

جعلت المعرفة بالإسلام وبالشعوب الإسلامية تنطلق بصفة عامة لا من موقف سيطرة ومواجهة فحسب بل أيضًا من موقف نفور ثقافى . فالتعريف السلبى للإسلام اليوم يقول إنه القوة التى يختلف الغرب معها اختلافًا جذريًا ، ومن شأن هذا التوتر أن ينشئ إطارًا يحد بصورة 'جذرية' كل معرفة بالإسلام . وما دام هذا الإطار قائمًا استمر الجهل بالإسلام باعتباره خبرةً حيوية يعيشها المسلمون . ويصدق هذا ، للأسف ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة ، وكذلك ، ولو إلى درجة أقل قليلاً ، فى أوروبا .

والشرط الثانى يستكمل الشرط الأول ويفى به . فالمعرفة بدنيا المجتمع ، على النقيض من المعرفة بالطبيعة ، هى فى أساسها ما دَأَبْتُ على وصفه بالتفسير : وهى تكتسب مكانة المعرفة بشتى الوسائل ، بعضها فكرى ، والكثير منها اجتماعى بل وسياسى . والتفسير أولاً وقبل كل شىء شكل من أشكال التكوين والإنشاء أى إنه يعتمد على نشاط عمدى إرادى من جانب العقل البشرى ، فهو يصوغ ويشكل ما يسترعى انتباهه بحرص ودراسة . ومثل هذا النشاط يجرى ، بالضرورة ، فى وقت ومكان محددين ، ويقوم به فرد فى موقع محدد ، له خلفيته المحددة ، وفى سياق أوضاع معينة ، لتحقيق سلسلة من الغايات الخاصة. ومن ثم فإن تفسير النصوص ، وهو الذى تبنى عليه أساسًا معرفتنا بالثقافات الأخرى، لا يجرى فى مختبرات يتوافر لها 'التأمين' العلمى

الإكلينيكى ، ولا يطمح إلى تحقيق نتائج موضوعية ، بل هو نشاط اجتماعى يرتبط بروابط متشابكة معقدة بسياق الأوضاع التى نشأ فيها أول ما نشأ ، وهذا السياق هو الذى قد يقرر أنه جديرٌ باكتساب مكانة المعرفة وقد يرفضه استنادًا إلى أنه لا يلائم تلك المكانة . ومن المحال أن يتجاهل التفسير سياق هذه الأوضاع، أو أن يكتمل التفسيرُ دون تفسيرٍ لتلك الأوضاع .

والواضح أن بواعث الإزعاج 'غير العلمية' مثل المشاعر والعادات والأعراف والتداعيات والقيم تعتبر جزءًا لا يتجزأ من أى تفسير ، فكل مفسر قارئ ، ولا يوجد من يمكن أن نعتبره قارئًا محايدًا أو خاليًا من القيم ، أو بعبارة أخرى ، كل قارئ يجمع بين ذاته الخاصة وبين انتمائه إلى مجتمع ما ، وتربطه روابط من شتى الألوان والأشكال بذلك المجتمع . والمفسر فى عمله يخوض غمار مشاعر قومية مثل الوطنية أو النُّعَرَة القومية وأحاسيس شخصية أخرى مثل الخوف أو اليأس ، ولابد من ثَمّ أن يحاول بأسلوبٍ منضبط استعمال العقل والمعلومات التى اكتسبها من التعليم الرسمى (وهى التى تمثل فى ذاتها جهدًا مديدًا فى التفسير) حتى يصل إلى مرحلة الفهم . أى إنه لابد من بذل جهد كبير لاختراق الحواجز القائمة بين سياق أوضاع معينة ، وهو السياق الخاص بالمفسر ، وسياق أوضاع أخرى ، وهو السياق الذى كان قائمًا عندما وحيثما كُتب ذلك النص . وهذا الجهد الإرادى الذى يبذله القارئ واعيًا ، أى جهد تخطىّ المسافات والحواجز الثقافية ،

هو الذى يمكّنه من معـرفة المجتمـعات والثقافـات الأخرى - وهو الذى يحد فى الوقت نفـسه من تلك المعرفـة . ففى تلك اللحظة يفهم المفـسر نفسـه فى سياقـه الذاتى ، ويفهم النص فى السـياق الخاص به ، أى فى السـياق الإنسانى الذى نشأ النص فـيه . ولن يتأتـى هذا إلاّ من خلال الوعى بالذات الذى يغـذو الوعى بما هو بعيد وأجنبى وإن كان بشـريًا على كل حال . ولا أظننا فى حاجة إلى تبيـان أن هذا الجهد كله لا عـلاقة له بما يشيـر إليه المستـشرق التقليدى من وجود "معرفة جديدة تختـلف اختلافًا كاملاً" أو بما يذكره الأستاذ بايندر عن "المباحث العلمية" التى تصحح نفـسها بنفسها .

ولابد من ذكر عـنصر آخر من عناصـر هذا الوصف ، الذى يتسم بقـدر ما من التجـريد ، لجهد الـتفسـير الذى يصل المرء فى نهايته إلى المعـرفة ، وهى التى لا تتسم بالثبات والاسـتقرار : من المحال أن يقـدم أحد على التفـسير الذى يـؤدى إلى الفهم ثم إلى المعرفة دون **اهتمام شخصى** . وقد يبدو ذلك من أشد البديهيات ابتذالاً ، ولكن هذه الحقيقة الواضـحة إلى حد كبير هى التى عادةً ما تتـعرض للتجـاهل أو الإنكار . فالباحث الأمـريكى الذى يقرأ ويفسر قصة طويلة معاصرة كتبت باللغة العربية أو اليابانية يبذل فى " الاشتباك" مع موضوع أجنبى جهـدًا يختلف كل الاختلاف عن جهد الكيميائى فى تفسير معادلة كيميائية . فالعناصر الكيميائية لا تثير المشـاعر فى ذاتها ، ولا " تشتبك" مع الأحاسيس الـبشرية

للشخص ، ولو أننا قد نجد أن هذه العناصر ربما أثارت تداعيات عاطفية لدى العالِم لأسباب لا تتصل بهذه العناصر ذاتها من قريب أو بعيد . والعكس هو الصحيح فيما يمكن أن نطلق عليه صفة التفسير الإنسانى ، وهو يبدأ فعلاً ، وفقًا لما يقوله الكثيرون من 'المنظِّرين' ، بإدراك أهواء المفسر ، والإحساس بأنه غريب عن النص الذى يفسره وهلم جرًّا . ولقد كتب هانز-جورج جادامار يقول :

> يتأهب كل من يحاول أن يفهم نصًّا من النصوص لما سوف يخبره به ذلك النص ، ولذلك فإن كل ذهن مدرّب على التفسير لابد أن يكون واعيًا ، منذ البداية، بصفة الجِدّة فى ذلك النص . ولكن ذلك اللون من الوعى لا يعنى " الحياد" إزاء المادة المطروحة ولا إلغاء ذات القارئ ، لكنه يعنى أن يتمثل القارئ واعيًا أهواءه ومعانيه المسبقة [أى المعانى والتفسيرات القائمة سلفًا فى الذهن نتيجة الخبرات السابقة] وأهم ما فى الأمر هو أن يكون القارئ على وعى بانحيازه الخاص ، بحيث يقدم النص نفسه إليه بكل ما فيه من جِدّة ، ويتمكن القارئ بذلك من تأكيد صدق النص بالرجوع إلى المعانى المسبقة فى ذهنه(٣٠) .

وهكذا فإن أول ما ينبغى أن يتوافر الوعى به عند قراءة نص أنتجته ثقافة أجنبية هو المسافة التى تفصله عنّا ، والشرط الرئيسى

لوجود هذه المسافة (الزمنية والمكانية) هو ، دون مبالغة ، وجود المفسر فى زمنه ومكانه ، وإن لم يقتصر الشرط على ذلك . وكما سبق أن رأينا ، يقوم المنهج المتبع فى دراسات المستشرقين أو فى "دراسات المنطقة" على معادلة المسافة بالسلطة ، أى على إدراج عنصر الطابع الأجنبى للثقافة النائية فى قواعد الكتابة الأكاديمية التى توحى بأنها المرجع الموثوق به ، والتى تتمتع بالمكانة الاجتماعية للمعرفة ، دون اعتراف بما فرضه ذلك الطابع الأجنبى على المفسر ، ودون إقرار بهيكل السلطة الذى مكّن المفسر من أداء عمله . والذى أعنيه ببساطة هو أنه لا يكتب اليوم كاتب فى الغرب شيئًا عن "الإسلام" ، دون استثناء تقريبًا ، وهو يدرك بوضوح أن ذلك "الإسلام" يعتبر ثقافة معادية ، وأن أى شىء يقوله كاتب محترف عن الإسلام يقع فى منطقة نفوذ الشركات والحكومة ، وأن كلا من هذين يلعب دورًا بالغ الضخامة فى إخراج هذه التفسيرات ، ومن بعدها المعرفة بالإسلام ، وجعلها "فى خدمة المصلحة القومية" . وخير مثال على هذا موقف لينارد بايندر، فى الحجة التى قمت بتحليلها آنفًا ، إذ إنه يشير إلى هذه المسائل ثم يجعلها تختفى فى الجملة التى يعرب فيها عن التبجيل لروح المهنة و"المباحث العلمية" التى تعتبر وظيفتها الجماعية الأسلوب الفعال القادر على رفض كل ما من شأنه المساس بقناع الموضوعية العقلانية الذى تضعه على وجهها . وهذا مثال على المعرفة المقبولة اجتماعيًا التى تمحو الخطوات التى أدت إلى إنتاجها .

ولنزد الآن من إيضاح معنى " الاهتمام" باعتباره جانبًا من جوانب التفسير بأمثلة عملية . فالغربى لا يتصادف أن يهتم بالإسلام أو بالثقافة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى ، والمواطن الذى ينتمى إلى دولة صناعية غربية اليوم لا يلتقى بالإسلام إلا بسبب أزمة سياسية نفطية ، أو بسبب التركيز الإعلامى المكثف ، أو بسبب التقاليد العريقة للخبراء "بالإسلام" ، أى للمستشرقين، فى شرح الإسلام وإيضاحه فى الغرب . وانظر إلى أى باحث شاب فى التاريخ يرغب فى التخصص فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط . إنه يبدأ دراسته للموضوع فى ظل تأثير العوامل الثلاثة المذكورة ، وكلها يشترك فى تشكيل وصياغة السياق الذى يدرك الباحث فيه "الحقائق" أى ما يفترض أنه البيانات الأولية . وبالإضافة إلى ذلك تتدخل عوامل أخرى ، مثل التاريخ الشخصى للفرد ، وحساسيته ، ومواهبه الذهنية ، وهى فى مجموعها تشكّل قدرًا كبيرًا من اهتمامه بالموضوع : ونرى التوازن بين حب الاستطلاع الخالص وبين الأمل فى حصول على وظيفة مستشار بوزارة الخارجية الأمريكية أو بإحدى شركات النفط ، والرغبة فى تحقيق الشهرة فى البحث العلمى ، أو فى "إثبات" أن الإسلام نظام ثقافى رائع (أو حتى رهيب) والطموح فى أن يكون جسرًا بين هذه الثقافة وتلك ، والرغبة فى المعرفة . وإلى جانب ذلك نرى أن النصوص والأساتذة والتقاليد البحثية ، واللحظة التاريخية المعينة، قد بدأت تطبع بطابعها ما سوف يدرسه الباحث الصغير.

ولابد من النظر إلى أمور أخـرى أيضًا فى نهاية المطاف. فـإذا كان الباحث قد درس تاريخ حيـازة الأرض فى سوريا فى القرن التاسع عشر ، مـثلاً ، فالأرجح أن تكون لدراسة الموضوع ، مـهما تبلغ درجة جفـافها و" موضوعيـتها" ، أهميـة للسياسة المعـاصرة ، خصوصًا للمسئـول الحكومى الحريص على تفهم ديناميات السلطة التقليدية (وهى التى ترتبط بحيازة الأرض) فى سوريا المعاصرة.

لكنه إذا حدث أولاً أن بذل فرد بعض الجهد للاتصال الطوعى بالثقـافة النائية ، وحـدث ثانيًا أن أدرك هذا " المفسر" كل الإدراك طبيـعة سياق الأوضـاع التى يتولى فيهـا التفسيـر (أى إذا فهم أن المعرفة بثقافـة أخرى ليست مطلقة بل نسبية أى تعـتمد إلى حد ما على السياق الذى نشـأت فيه) فالأرجح أن يتبـيّن المفسر أن النظرة المعتمدة إلـى الإسلام وإلى الحضارات " الأجنبية" نظرةٌ محدودة وقاصرة إلى حد بعيد . وفى مقابل هذا نجد أن المعرفة بالإسلام ، من وجهة النظر المضادة ، تقطع فيـما يبدو شوطًا بعيدًا على طريق التغلب على أوجه القصور فى النظرات المعـتمدة. ورفض الباحثين المضادين لضـرورة إخضـاع المعرفة بالإسـلام للمصالـح السياسـية الحكومية هو الذى يجعلهم يؤكدون التواطؤ بين المعرفة والسلطة . وفى غمار ذلك يسـعون إلى إقامة علاقـات بالإسلام تختلف عن العلاقات التى تأمر بها مقتـضيات السلطة . والبحث عن علاقات بديلة معناه البحـث عن سياقات تفسـيرية أخرى ، ومن ثم يتكون لديهم وعى منهجى أقرب كثيرًا إلى الدقة .

ومع ذلك فلن نستطيع أن نجد أبدًا مخرجًا أو مهربًا مُيسّرًا مما وصفه بعض النقاد بأنه دائرة التفسير المغلقة . ونقول بإيجاز إن المعرفة بدنيا المجتمع من المحال أن تتفوق **يومًا ما** على التفسيرات التى تقوم عليها . فمعرفتنا بأى ظاهرة بالغة التعقيد والمراوغة ، مثل الإسلام ، تأتينا من خلال نصوص وصور وخبرات لا تجسد الإسلام تجسيدًا مباشرًا حاضرًا (وهو الذى لا نفهمه إلا من خلال الأمثلة عليه) بل تعتبر تفسيرات له أو حالات تمثله . وبعبارة أخرى ، تأتى المعرفة بالثقافات أو المجتمع أو الأديان الأخرى من خلال التمازج بين الأدلة غير المباشرة وبين الوضع الشخصى للباحث الفرد ، وهو الذى يضم الزمن والمكان والمواهب الشخصية والأوضاع التاريخية ، إلى جانب الظروف السياسية العامة . وأما ما يجعل تلك المعرفة دقيقة أو غير دقيقة، أو يقطع بأنها فاسدة أو صحيحة أو أدنى من سواها فيتعلق أساسًا بمتطلبات المجتمع الذى تنشأ فيه هذه المعرفة . ويوجد ، بطبيعة الحال ، مستوى بسيط للصدق الواقعى يستحيل دونه وجود أى معرفة ، فكيف يتسنى للمرء مثلاً أن "يعرف" أحدٌ شيئًا عن الإسلام فى المغرب دون أن يعرف اللغة العربية ، ولغة البربر ، ودون الإحاطة ببعض المعلومات عن البلد والمجتمع الذى يعيش فيه ؟ أما إذا تجاوزنا هذا المستوى فسوف نرى أن المعرفة بالإسلام فى المغرب لا تنحصر فى مجرد اتفاق ما يوجد هناك مع ما نراه هنا ، أى التوافق بين شىء لا حياة فيه وبين من ينظر إليه ، بل هى تفاعل ما بين الاثنين

(عادةً) لتحقيق غرض هنا : مثل كتابة مقال متخصص ، أو إعداد محاضرة ، أو إسداء المشورة لأحد واضعى السياسات. فإذا تحقق الغرض اتجه الرأى إلى أن المعرفة قد توافرت. وتوجد أوجه انتفاع أخرى بالمعرفة (ومن بينها الانتفاع بعدم نفعها ذاته) ولكن الأوجه الأساسية هى توظيفها أو التوسل بها لتحقيق غاية ما .

وهكذا فإن ما نعتبره معرفة يتكون فى الواقع من عناصر شديدة التنوع ، وتتحكم فيها الحاجة الخارجية إليها أكثر مما تتحكم فيها الحاجة الداخلية (والتى نادرًا ما تكون داخلية على أية حال) . وهكذا فإن دراسة الصفوة أو النخبة الإيرانية فى ظل نظام الحكم البهلوى التى يقوم بإعدادها دارس أكاديمى أمريكى ذو مؤهلات معتمدة قد تكون ذات نفع لواضعى السياسات الذين يتصدون للتعامل مع ذلك النظام الإمبراطورى ، ولكن الخبير بالشئون الإيرانية الذى لا يأخذ بالنظرة 'المعتمدة' سيجد هذه الدراسة ذاتها غاصة بالأخطاء والأحكام الفاسدة[٣١] . ولكن معايير الحكم التى تختلف الاختلافات جذرية فيما بينها لا تعنى أننا فى حاجة إلى معايير أفضل ، ومطلقات أشد ثباتًا ، بل علينا أن تذكرنا أن من طبيعة التفسير أن تعود بنا إلى المشكلات التى يثيرها التفسير نفسه ، وإلى طرح الأسئلة التالية : لمن ، ولأى غرض ، ولماذا نجد أن هذا التفسير أشد إقناعًا فى هذا السياق من سواه ؟ إن التفسير والمعرفة ، بل ، كما قال ماثيو أرنولد ، والثقافة نفسها ، دائمًا ما تكون ثمرة للمنازعات لا هبة أنعمت بها السماء علينا !

وهكذا فـإن القضيـة التى أطرحهـا فى هذا الكتـاب تقول إن التغطية 'المعتـمدة' للإسلام التـى نجدها فى الدوائر الأكـاديمية ، ترتبط بما نجده فى الحكومة وفى أجهـزة الإعلام بروابط متداخلة ، وإنها **أشد** انتشارًا **وأشد** ، فيما يبـدو ، إقناعًا ونفوذًا فى الغرب عن أى ''تغطية'' أو تفسير آخر . ومن الممكن أن يعزى نجاح هذه التغطية إلى النفـوذ السياسى للأشخاص والمؤسـسات التى تتولاها وليس بالضرورة إلى صدقها أو دقتـها . كما أقمت الحجة على أن هذه التغـطية قد سـاعدت فى تحـقيق أغـراض لا تتصل بالمعـرفة الفـعليـة للإسـلام إلاّ بأوهـن الروابط . وكـانت النتـيـجـة هى الانتصارت لا لنوع خاص من **المعرفة** بالإسلام فحسب بل **لتفسير** خاص لم يسلم على أى حال من الطعن فيـه ، ولم تثبت حصانته ضد اختراق الأسـئلة التى وجهتها الأذهان المتفتـحة الوقائية 'غير المعتمدة' !

ومن ثم فـقد يكون من الخـير أن أحـدًا لم يسـتطع الانتفـاع ''بالإسلام'' بصـفة خـاصة فى تفـسيـر نشوب الحـرب بين إيران والعراق ، تمامًا مثلمـا لم تُجْدِ الأفكار الخاصة ''بالعقلية الزنجية'' فى تفسـير خبرات الأمـريكيين من ذوى البشرة السـوداء فى القرن العشريـن . فإن هذه المفاهيم الشمـولية ، بغض النظر عن الرضى النرجسى الذى يستقيه الخبير منهـا وكثيرًا ما يعتمد فى كسب رزقه عليها ، لم تنجح فى مسايرة قوة الأحداث نفسها أو القوى المعقدة التى أدت إلى وقوع هـذه الأحداث . وكانت النتـيجـة هى اتساع

الفجوة باطراد بين ما تؤكده هذه المفاهيم التى تفرض أو تفترض التجانس وبين ما يتسم به التاريخ الفعلى من حقائق ونقاط انقطاع أشد قوة . وأحيانًا ما كنا نرى فردًا ينفذ من هذه الفجوة ليطرح أسئلة تتصل اتصالاً مباشرًا بالواقع ويتوقع إجابات معقولة .

لا يستطيع أحد أن يحيط بكل شىء عن العالم الذى نعيش فيه ، وهكذا لابد أن يستمر تقسيم العمل الفكرى قائمًا فى المستقبل المنظور . فالعمل الأكاديمى يتطلب هذا التقسيم ، والمعرفة نفسها تقتضيه ، وتنظيم المجتمع فى الغرب يقوم عليه ، ولكننى أعتقد أن معظم أشكال المعرفة بالمجتمع البشرى متاحة ، فى نهاية الأمر ، لذوى الإدراك السليم - وأقصد به الإدراك الذى ينشأ من الخبرات الإنسانية المشتركة - وأنه يخضع ، بل لابد أن يخضع حقًا ، لِلَوْنٍ ما من التقييم النقدى . وهاتان الصفتان ، أى الإدراك السليم والتقييم النقدى ، هما ، فى آخر المطاف ، من الصفات الاجتماعية والفكرية العامة المتاحة للجميع ويستطيع كل إنسان غرسها وتنميتها فى ذاته ، وليست من امتيازات طبقة خاصة أو حكرًا على حفنة من " الخبراء" المعتمدين . ومع ذلك فلابد من الدراسة الخاصة إن أراد المرء أن يتعلم اللغة العربية أو الصينية ، أو إذا أراد المرء أن يفهم معنى التيارات الاقتصادية والتاريخية والسكانية . والجامعة هى المكان الذى يتيح مثل تلك الدراسة ، ولا شك عندى فى ذلك على الإطلاق . وأما المتاعب فتنشأ حين تؤدى الدراسة إلى تكوين طوائف مغلقة ، يفقد أعضاؤها الصلة

بحقـائق المجتمـع الواقعيـة ، والحصافـة ، والمسئوليـة الفكرية ، فيعملون على تعزيز الطائفة بأى ثمن أو يجعلونها ، طائعين ودون طرح أسئلة ، فى خـدمة السلطة . وفى كلا الحالين ينتـهى الأمر بالمجتمـعات أو الثقافـات الأجنبية ، مثل الإسلام ، إلـى التغطية بالمعنى الحرفى أكثر مما تنال مـن الإيضاح أو الفهم . بل إننا نواجه هنا خطر اختراع أكاذيب جديدة ، وترويج أنواع لم يسمع بها أحد من "المعلومات" الخاطئة .

لم يتوقف سيـل الأدلة المتاحة للجميع ، فى أى لحـظة تقريبًا على امتداد السنـوات القليلة الماضية ، على أن العالم غـير الغربى بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة ، لم يعودا يلتزمان بالأنساق التى وضعـها علمـاء الاجتمـاع والمستشـرقون وخبـراء المناطق من أمريكيين وأوروبيين فى السنوات التى أعقبت الحـرب العالمية الثانية مباشرة . ومن الصـحيح قطعًا أن العالم الإسلامى بصـفة عامة لا يتخـذ مواقف العداء الكامل لأمـريكا والاتحاد السـوفييتى ولا هو موحّـد فيما يفـعله بل ولا يمكن التنبؤ بما يفـعل . ولم أحاول أن أقدم وصفًا كاملاً لهذه الـتغييرات ولكننى قلت إن معناها هو بروز حقائق واقعـية جديدة 'غير منتظمة' فى العالم الإسلامى . ومن الصحـيح أيضًا أن مظاهر "عدم انتظام" مشـابهة قـد برزت فى المناطق الأخرى التى تحررت من الاستـعمار فى عالم اليوم ، وهو ما عكّر صـفو الهدوء النظرى الذى سـاد الحديث عنه فى السنوات السـابقة . ومن الحـمق ، بطبـيعـة الحال ، إعـادة تأكيـد وترديد

القوالب القديمة عن ''التخلف'' و''العقلية الأفروآسيوية'' ، ولكن ربط هذه القوالب سببيًا (أى إرجاع أسبابها إلى) ما يقال عن التدهور المحزن للغرب ، والنهاية المؤسفة للاستعمار ، والتقلص الذى يؤسى له للقوة الأمريكية ، معناه - ولابد أن أصوغ ذلك بأشد لهجة ممكنة - حمق فاحش . ولنقل وحسب إنه من المحال إرغام مجتمعات تبعد آلاف الأميال مكانًا وهويةً عن عالم الأطلسى أن تلتزم بما نريده منها . ويمكن اعتبار ذلك حقيقةً محايدة حتى دون اعتبارها (كما أعتبرها أنا) من الحقائق المفيدة . وعلى أى حال فإن الخطر المتمثل فى الجمع بين فقدان إيران وتدهور الغرب فى أحاديثنا هون أن نغلق فى وجوهنا إمكانية معظم سبل العمل - إلا صعود نجم الغرب واسترجاع أماكن معينة مثل إيران والخليج. وأما النجاح الذى أصابه فى الآونة الأخيرة أولئك الخبراء الذين ينعون فى غمار عملهم نهاية السيطرة البريطانية أو الأمريكية أو الفرنسية على العالم الإسلامى فيعتبر ، فى رأيى ، شهادةً مخيفة على ما قد يختفى داخل عقول واضعى السياسات ، وعلى ما يغذوه فى الحقيقة هؤلاء ''الخبراء'' ، عن وعى أو دون وعى ، من حاجة عميقة الجذور إلى العدوان وإعادة الغزو[٣٢] . وأما وجود البعض من أبناء تلك البلاد ' المطيعين' الذين يقومون فى العزف فى الفرقة الموسيقية نفسها فينتمى إلى التاريخ البذئ للتعاون مع الغزاة وليس (كما يزعم البعض) من دلائل النضج الجديد فى العالم الثالث .

ولو لم تكن أغـراض الغزو المذكـورة كامنة مـا قيل مـا يقال بصفة عامة عن "الإسلام" في الغرب اليوم . وعلينا فورًا تقديم البديل : فإذا كان تعبير "الإسلام" لا يحمل لنا من الدلالات إلاّ مـا يقل كثـيـرًا عمـا ينبغـى أن يحمله ، وإذا كـانت ' التغـطية' باستخدام هذا التعبير تغطّى ، بمعنى تُخفى ، أكثر مما تظهر ، فأين عـ..انا ، أو بالأحـرى كيف نسـتطيع أن نجد المعلومـات التى لا تَحُضُّ على أحلام جديدة بالقوة أو تُنَمِّى المخاوف وضروب التحيز القديمة ؟ لقد ذكرت فى هذا الكتـاب ووصفت أحيانًا أنواع البحث التى تعود بأجلّ الفائدة فى هذا الصدد ، وقلت إن نقطة الانطلاق فيها جميعًا هى اعتبار أن كلَّ مـعرفةٍ تفسيرٌ ، وأن على التفسير أن يكون شديد الحساسية فيما ينتهجه من مناهج وما يضعه من أهداف حتى يتحـلّى باليقظة وبالتراحم الإنسانى ، وحـتى يصل أيضًا إلى المعرفة . ولكن كل تفسير للثقافات الأخرى ، وخاصة للإسلام ، ينطوى أساسًا على الاختيـار الذى يواجهه الباحث الفرد أو المفكّر الفرد : هل يسخّـر الفكر لخدمة السلطة أم لخدمة النقـد والمجتمع والحسّ الأخلاقى . وهذا الاختـيار يجب أن يكون أولى خطوات التـفسـيـر اليـوم ، ولابد أن يؤدى إلى اتخـاذ قرار مـا ، لا إلى التأجيل وحسب . وإذا كان تاريخ المعـرفة بالإسلام فى الغرب قد ارتبط ارتباطًا وثـيقًا بالغـزو والهيمنة ، فلـقد آن الأوان لقطع هذه الروابط قطعًا مبـرمًا . ولا نستطيع مهما قلنا أن نبـالـغ فـى تأكيد ضرورة ذلك . هذا وإلا فـسوف نجد أننا لا نواجه التـوتر فقط بل

وربما الحـرب أيضًا ، بل سـوف نقدم إلى عـالم المسلمين ، وإلى شتى مجتمعاتهم ودولهم ، احتمال نشوب حروب كثيرة ، ومعاناة لا يتصورها العقل ، وفـورات تأتى بالفواجع ، وليس أقلها خطرًا مولد نوع من ''الإسلام'' المتأهب تمامًا للنهوض بالدور الذى أعدته له قوى الـرجعيـة ، والتزمّت واليـأس . وحتى لو حكمنـا بأشد المعـاييـر إغراقًـا فى التـفاؤل فلـن نجد مـا يثلج الصـدر فى هذا الاحتمال.

❁ ❁ ❁

■ قائمة المراجع الأجنبية ■

Notes

INTRODUCTION

1. Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978; reprint ed., New York: Vintage Books, 1979).

2. Edward W. Said, *The Question of Palestine.* (New York: Times Books, 1979; reprint ed., New York: Vintage Books, 1980).

3. For a reference to this see Robert Graham, "The Middle East Muddle," *New York Review of Books,* October 23, 1980, p. 26.

4. J. B. Kelly, *Arabia, The Gulf, and the West: A Critical View of the Arabs and Their Oil Policy* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1980), p. 504.

5. Thomas N. Franck and Edward Weisband, *Word Politics: Verbal Strategy Among the Superpowers* (New York: Oxford University Press, 1971).

6. See Paul Marijnis, "De Dubbelrol van een Islam-Kennen," *NRC Handelsblad,* December 12, 1979. Marijnis's article is a report of research done on Snouck Hurgronje by Professor van Koningveld of the Theological Faculty at the University of Leiden. I am grateful to Jonathan Beard for bringing this item to my attention, and to Professor Jacob Smit for his help in translating it.

7. For a very full account of the over-all context, see Noam Chomsky and Edward S. Herman, *The Washington Connection and Third World Fascism* and *After the Cataclysm: Postwar Indochina and the Reconstruction of Imperial Ideology,* vols. 1 and 2 of *The Political Economy of Human Rights* (Boston: South End Press, 1979). For a valuable analysis of the nineteenth-century picture see Ronald T. Takaki, *Iron Cages: Race and Culture in 19th Century America* (New York: Alfred A. Knopf, 1979).

8. For a well-presented account of how giant corporations intervene in the university, see David F. Noble and Nancy E. Pfund, "Business Goes Back to College," *The Nation*, September 20, 1980, pp. 246–52.

CHAPTER ONE: ISLAM AS NEWS

1. See Edward W. Said, *Orientalism*, pp. 49–73.

2. See Norman Daniel, *The Arabs and Medieval Europe* (London: Longmans, Green & Co., 1975); also his earlier and very useful *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh: University Press, 1960). There is a first-rate survey of this matter, set in the political context of the 1956 Suez War, by Erskine B. Childers in *The Road to Suez: A Study of Western-Arab Relations* (London: MacGibbon & Kee, 1962), pp. 25–61.

3. I have discussed Naipaul in "Bitter Dispatches From the Third World," *The Nation*, May 3, 1980, pp. 522–25.

4. Maxime Rodinson, *Marxism and The Modern World*, trans. Michael Palis (London: Zed Press, 1979). See also Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," *Race and Class* 21, no. 3 (Winter 1980): 221–37.

5. There is an elegant account of this theme, done by a contemporary Tunisian intellectual: see Hichem Djaït, *L'Europe et l'Islam* (Paris: Éditions du Seuil, 1979). A brilliant psychoanalytic/structuralist reading of one "Islamic" motif in European literature—the seraglio—is to be found in Alain Grosrichard, *Structure du sérail: La Fiction du despotisme asiatique dans l'Occident classique* (Paris: Éditions du Seuil, 1979).

6. See Maxime Rodinson, *La Fascination de l'Islam* (Paris: Maspéro, 1980).

7. Albert Hourani, "Islam and the Philosophers of History," in *Europe and The Middle East* (London: Macmillan & Co., 1980), pp. 19–73.

8. As an instance, see the penetrating study by Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the 16th to the 20th Century and in the ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass & Co., 1977).

9. Not that this has always meant poor writing and scholarship: as an informative general account which answers principally to political exigencies and not mainly to the need for new knowledge about Islam, there is Martin Kramer, *Political Islam* (Washington, D.C.: Sage Publications, 1980). This was written for the Center for Strategic and International Studies, Georgetown University, and therefore belongs to the category of policy, not of "objective," knowledge. Another instance in the January 1980 (vol. 78, no. 453) special issue on "The Middle East, 1980" of *Current History*.

10. *Atlantic Community Quarterly* 17, no. 3 (Fall 1979): 291–305, 377–78.

11. Marshall Hodgson, *The Venture of Islam,* 3 vols. (Chicago and London: University of Chicago Press, 1974). See the important review of this by Albert Hourani, *Journal of Near Eastern Studies* 37, no. 1 (January 1978): 53–62.

12. One index of this is the report "Middle Eastern and African Studies: Developments and Needs" commissioned by the U.S. Department of Health, Education and Welfare in 1967, written by Professor Morroe Berger of Princeton, also president of the Middle East Studies Association (MESA). In this report Berger asserts that the Middle East "is not a center of great cultural achievement . . . and therefore does not constitute its own reward so far as modern culture is concerned. . . . [It] has been receding in immediate political importance to the U.S." For a discussion of this extraordinary document and the context that produced it, see Said, *Orientalism,* pp. 287–93.

13. Quoted in Michael A. Ledeen and William H. Lewis, "Carter and the Fall of the Shah: The Inside Story," *Washington Quarterly* 3, no. 2 (Spring 1980): 11–12. Ledeen and Lewis are supplemented (and supported to a degree) by William H. Sullivan, "Dateline Iran: The Road Not Taken," *Foreign Policy* 40 (Fall 1980): 175–86; Sullivan was United States ambassador to Iran before and during the revolution. See also the six-part series by Scott Armstrong, "The Fall of the Shah," *Washington Post,* October 25, 26, 27, 28, 29, 30, 1980.

14. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the Ulama in Twentieth Century Iran," in Nikki R. Keddie, ed., *Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions Since 1500* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1972), pp. 231–55. See also Ervand Abrahamian, "The Crowd in Iranian Politics, 1905–1953," *Past and Present* 41 (December 1968): 184–210; also his "Factionalism in Iran: Political Groups in the 14th Parliament (1944–46)," *Middle Eastern Studies* 14, no. 1 (January 1978): 22–25; also "The Causes of the Constitutional Revolution in Iran," *International Journal of Middle East Studies* 10, no. 3 (August 1979): 381–414; and "Structural Causes of the Iranian Revolution," *MERIP Reports* no. 87 (May 1980), pp. 21–26. See also Richard W. Cottam, *Nationalism in Iran* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1979).

15. This is especially true of Fred Halliday, *Iran: Dictatorship and Development* (New York: Penguin Books, 1979), which is nevertheless one of the two or three best studies of Iran done since World War II. Maxime Rodinson, in *Marxism and the Muslim World,* has nearly nothing to say about the Muslim religious opposition. Only Algar (note 14 above) seems to have been right on this point—a remarkable achievement.

16. This is the argument put forward in Edward Shils, "The Prospect

for Lebanese Civility," in Leonard Binder, ed., *Politics in Lebanon* (New York: John Wiley & Sons, 1966), pp. 1–11.

17. Malcolm Kerr, "Political Decision Making in a Confessional Democracy," in Binder, ed., *Politics in Lebanon*, p. 209.

18. See the extraordinarily rich material found in the Moshe Sharett *Personal Diary* (Tel Aviv: Ma'ariv, 1979); Livia Rokach, *Israel's Sacred Terrorism: A Study Based on Moshe Sharett's Personal Diary and Other Documents*, intro. by Noam Chomsky (Belmont, Mass.: Association of Arab-American University Graduates [AAZG], 1980). See also the revelations about the CIA role in Lebanon by former CIA advisor Wilbur Crane Eveland, *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East* (New York: W. W. Norton & Co., 1980).

19. Élie Adib Salem, *Modernization Without Revolution: Lebanon's Experience* (Bloomington and London: Indiana University Press, 1972), p. 144. Salem is also the author of "Form and Substance: A Critical Examination of the Arabic Language," *Middle East Forum* 33 (July 1958): 17–19. The title indicates the approach.

20. Clifford Geertz, "The Integrative Revolution: Primordial Sentiments and Civil Politics in the New States," in *The Interpretation of Cultures* (New York: Basic Books, 1973), p. 296.

21. For an interesting description of "expert" illusions about Lebanon on the eve of the civil war, see Paul and Susan Starr, "Blindness in Lebanon," *Human Behavior* 6 (January 1977): 56–61.

22. I have discussed this in *The Question of Palestine*, pp. 3–53 and *passim*.

23. For a brilliant account of this collective delusion see Ali Jandaghi (pseud.), "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34–47. See also Stuart Schaar, "Orientalism at the Service of Imperialism," *Race and Class* 21, no. 1 (Summer 1979): 67–80.

24. James A. Bill, "Iran and the Crisis of '78," *Foreign Affairs* 57, no. 2 (Winter 1978–79): 341.

25. William O. Beeman, "Devaluing Experts on Iran," *New York Times*, April 11, 1980; James A. Bill, "Iran Experts: Proven Right But Not Consulted," *Christian Science Monitor*, May 6, 1980.

26. As opposed to scholars during the Vietnam War who made a stronger case for themselves as "scientists" willingly serving the state: here it would be good to know why Vietnam specialists were consulted (with no less disastrous results) and Iran experts not. See Noam Chomsky, "Objectivity and Liberal Scholarship," in *American Power and the New Mandarins: Historical and Political Essays* (New York: Pantheon Books, 1969), pp. 23–158.

27. See Said, *Orientalism*, pp. 123–66.

28. On the connection between scholarship and politics as it has affected

the colonial world, see *Le Mal de voir: Ethnologie et orientalisme: politique et épistémologie, critique et autocritique*, Cahiers Jussieu no. 2 (Paris: Collections 10/18, 1976). On the way in which "fields" of study coincide with national interests see "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3–4 (Summer–Fall, 1971): 91–168.

29. See Edmund Ghareeb, ed., *Split Vision: Arab Portrayal in the American Media* (Washington, D.C.: Institute of Middle Eastern and North African Affairs, 1977). For the British counterpart see Sari Nasir, *The Arabs and the English* (London: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 140–72.

30. James Peck, "Revolution Versus Modernization and Revisionism: A Two-Front Struggle," in Victor G. Nee and James Peck, eds., *China's Uninterrupted Revolution: From 1840 to the Present* (New York: Pantheon Books, 1975), p. 71. See also Irene L. Gendzier, "Notes Toward a Reading of *The Pasing of Traditional Society*," *Review of Middle East Studies* 3 (London: Ithaca Press, 1978), pp. 32–47.

31. An account of the Pahlevi regime's "modernization" is to be found in Robert Graham, *Iran: The Illusion of Power* (New York: St. Martin's Press, 1979). See also Thierry-A. Brun, "The Failures of Western-Style Development Add to the Regime's Problems," and Eric Rouleau, "Oil Riches Underwrite Ominous Militarization in a Repressive Society," in Ali-Reza Nobari, ed., *Iran Erupts* (Stanford, Calif.: Iran-America Documentation Group, 1978). Also Claire Brière and Pierre Blanchet, *Iran: La Révolution au nom de Dieu* (Paris: Éditions du Seuil, 1979); this book has an interview with Michel Foucault appended to it.

32. There has been an extraordinary reluctance on the part of the press to say anything about the explicitly *religious* formulation of positions and policies inside Israel, especially when these are directed at non-Jews. There would be interesting material found in the Gush Emunim literature, or the pronouncements of the various rabbinic authorities, and so on.

33. See Garry Wills, "The Greatest Story Ever Told," subtitled "Blissed out by the pope's U.S. visit—'unique,' 'historic,' 'transcendent'—the breathless press produced a load of papal bull," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January–February 1980): 25–33.

34. See the excellent and exhaustive study by Marwan R. Buheiry, *U.S. Threats Against Arab Oil*: 1973–1979, IPS Papers no. 4 (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1980).

35. This is a peculiarly American syndrome. In Europe, the situation is considerably more fair, at least as far as journalism on the whole is concerned.

36. Fritz Stern, "The End of the Postwar Era," *Commentary*, April 1974, pp. 27–35.

37. Daniel P. Moynihan, "The United States in Opposition," *Commentary*, March 1975, p. 44.

38. Robert W. Tucker, "Oil: The Issue of American Intervention," *Commentary*, January 1975, pp. 21–31.

39. Tucker, "Further Reflections on Oil and Force," *Commentary*, January 1975, p. 55.

40. In *Encounter*, 54, no. 5 (May 1980): 20–27.

41. Gerard Chaliand, *Revolution in the Third World: Myths and Prospects* (New York: Viking Press, 1977).

42. See Christopher T. Rand, "The Arabian Fantasy: A Dissenting View of the Oil Crisis," *Harper's Magazine*, January 1974, pp. 42–54, and his *Making Democracy Safe for Oil: Oilmen and the Islamic East* (Boston: Little, Brown & Co., 1975). For authoritative work on the true oil picture see John M. Blair, *The Control of Oil* (New York: Pantheon Books, 1976), and Robert Engler, *The Brotherhood of Oil: Energy Policy and the Public Interest* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1977).

43. *Ayatollah Khomeini's Mein Kampf: Islamic Government by Ayatollah Ruhollah Khomeini* (New York: Manor Books, 1979), p. 123. For a careful, prorevolutionary critique of repression in Khomeini's Iran, see Fred Halliday, "The Revolution Turns to Repression," *New Statesman*, August 24, 1979, pp. 260–64; also his comments in *The Iranian*, August 22, 1979. See also Nikki R. Keddie, *Iran, Religion, Politics, and Society: Collected Essays* (London: Frank Cass & Co., 1980).

44. C. Wright Mills, "The Cultural Apparatus," in *Power, Politics and People: The Collected Essays of C. Wright Mills*, ed. Irving Louis Horowitz (London, Oxford, New York: Oxford University Press, 1967), pp. 405–6.

45. See Herbert I. Schiller, *The Mind Managers* (Boston: Beacon Press, 1973), pp. 24–27.

46. Herbert Gans, *Deciding What's News: A Study of "CBS Evening News," "NBC Nightly News," "Newsweek," and "Time"* (New York: Pantheon Books, 1979).

47. Gay Talese, *The Kingdom and the Power* (New York: New American Library, 1969); Harrison Salisbury, *Withour Fear or Favor: The New York Times and Its Times* (New York: Times Books, 1979); David Halberstam, *The Powers That Be* (New York: Alfred A. Knopf, 1979); Gaye Tuchman, *Making News: A Study in the Construction of Reality* (New York: Fr[illegible] Press, 1978); Herbert I. Schiller, *Mass Communications an[illegible] American Empire* (Boston: Beacon Press, 1969), *Communication and Cultural Domination* (White Plains, N.Y.: International Arts and Sciences, 1976), *The Mind Managers*; Michael Schudson, *Discovering the News: A Social History of American Newspapers* (New York: Basic Books, 1978); Armand Mattelart, *Multinational Corporations and the Control of Culture: The Ideological Apparatus of Imperialism*, trans. Michael Chanan (Brighton, Sussex: Harvester Press, 1979).

48. Robert Darnton, "Writing News and Telling Stories," *Daedalus* 104, no. 2 (Spring 1975): 183, 188, 192.

49. This is convincingly demonstrated by Todd Gitlin, *The Whole World Is Watching: Mass Media in the Making and Unmaking of the New Left* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1980).

50. See in particular Sacvan Bercovitch, "The Rites of Assent: Rhetoric, Ritual, and the Ideology of American Consensus," in Sam Girgus, ed., *Myth, Popular Culture, and the American Ideology* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1980), pp. 3–40.

51. This is well described by Raymond Williams, "Base and Superstructure in Marxist Cultural Theory," *New Left Review* 82 (November–December 1973): 3–16.

52. A series of recent studies dealing with American experiences involving Indians, various foreign groups, and "empty" territory make this point tellingly: see Michael Paul Rogin, *Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian* (New York: Alfred A. Knopf, 1975); Ronald T. Takaki, *Iron Cages*; Richard Drinnon, *Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating and Empire-Building* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1980); Frederick Turner, *Beyond Geography: The Western Spirit Against the Wilderness* (New York: Viking Press, 1980).

53. See the recent account of this dissimulation by Chomsky and Herman, *After the Cataclysm*.

54. In particular see the works by Herbert Schiller and Armand Mattelart cited above, note 47.

55. For a description of the same verbal action-reaction paradigm, see Franck and Wiesband, *Word Politics*.

56. On the role of Western-style elites in Muslim/Arab societies, see John Waterbury and Ragaei El Mallakh, *The Middle East in the Coming Decade: From Wellhead to Well-Being?* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1978).

57. Rodinson, "Islam and the Modern Economic Revolution," in his *Marxism and the Muslim World*, p. 151.

58. *Ibid.*, pp. 154–55.

59. As a particularly noteworthy example see the recent work of Mohammed Arkoun: *Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVe/Xe siècle: Miskawayh, philosophe et historien* (Paris: J. Vrin, 1970); also *Essais sur la pensée islamique* (Paris: Maisonneuve & Larose, 1973); and "La pensée" and "La vie," in Mohammed Arkoun and Louis Gardet, *L'Islam: Hier. Demain* (Paris: Buchet/Chastel, 1978), pp. 120–247.

60. Albert Hourani, "History," in Leonard Binder, ed., *The Study of the Middle East: Research and Scholarship in the Humanities and the Social Sciences* (New York: John Wiley & Sons, 1976), p. 117.

61. See the very useful analysis of this subject as an aspect of the State in dependent societies, by Eqbal Ahmad, "Post-Colonial Systems of Power," *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 350–63.

62. A good sense of this activity is provided for Iran by Michael M. G. Fischer, *Iran: From Religious Dispute to Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1980). But see also Marshall Hodgson, *The Venture of Islam*.

63. The key ideological document is Bernard Lewis, "The Return of Islam," *Commentary*, January 1976, pp. 39–49; see my discussion of this in *Orientalism*, pp. 314–20. In comparison with Élie Kedourie, however, Lewis is mild indeed: see Kedourie's extraordinary attempt to show that Islamic resurgence is principally a variant of "Marxism-Leninism" in his *Islamic Revolution, Salisbury Papers* no. 6 (London: Salisbury Group, 1979).

64. W. Montgomery Watt, *What Is Islam?* 2nd ed. (London and New York: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 9–21.

65. There is an especially cogent description of this in Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798–1939 (1962; reprint ed., London and Oxford: Oxford University Press, 1970).

66. For a recent, albeit partisan, instance see Adonis (Ali Ahmad Said), *Al-Thabit wal Mutahawwil*, vol. 1, Al-Usul (Beirut: Dar al Awdah, 1974). See also Tayyib Tizini, *Min al-Turath ilal-Thawra: Hawl Nathariya Muqtaraha fi Qadiyyat al-Turath al-'Arabi* (Beirut: Dar Ibu Khaldum, 1978). There is a good account of Tizzini's work by Saleh Omar, *Arab Studies Quarterly* 2, no. 3 (Summer 1980): 276–84. For a recent European view of the matter see Jacques Berque, *L'Islam au défi* (Paris: Gallimard, 1980).

67. Hodgson, *Venture of Islam*, 1: 56 ff.

68. Ali Shariati, "Anthropology: The Creation of Man and the Contradiction of God and Iblis, or Spirit and Clay," in *On the Sociology of Islam: Lectures by Ali Shari'ati*, trans. Hamid Algar (Berkeley, Calif.: Mizan Press, 1979), p. 93.

69. Shariati, "The Philosophy of History: Cain and Abel" in *On the Sociology of Islam*, pp. 97–110.

70. See Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," and Adonis, *Al-Thabit wal Mutahawwil*, on the conflict between official cultures and countercultures.

71. Said, *Orientalism*, pp. 41 ff.

72. Until recently the situation was no different in the representation of other "Oriental" groups: see Tom Engelhardt, "Ambush at Kamikaze Pass," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, no. 1 (Winter–Spring 1971): 65–84.

73. Eric Hoffer, "Islam and Modernization: Muhammad, Messenger of Plod," *American Spectator* 13, no 6 (June 1980): 11–12.

74. According to L. J. Davis, "Consorting with Arabs: The Friends Oil Buys," *Harper's Magazine*, July 1980, p. 40.

CHAPTER TWO: THE IRAN STORY

1. Salisbury, *Without Fear or Favor*, p. 158.
2. *Ibid.*, p. 163.
3. *Ibid.*, p. 311.
4. *Ibid.*, pp. 560–61.
5. Kedourie, *Islamic Revolution*.
6. These articles are conveniently found in translation: Rodinson, "Islam Resurgent?" *Gazelle Review* 6, ed. Roger Hardy (London: Ithaca Press, 1979), pp. 1–17.
7. Quoted in Roy Parriz Mottahedeh, "Iran's Foreign Devils," *Foreign Policy* 38 (Spring 1980): 28. See also Eqbal Ahmad, "A Century of Subjugation," *Christianity and Crisis* 40, no. 3 (March 3, 1980): 37–44.
8. See Robert Friedman, "The Gallegos Affair," *Media People*, March 1980, pp. 33–34.
9. William A. Dorman and Ehsan Omeed, "Reporting Iran the Shah's Way," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January–February 1979): 31.
10. Fazlur Rahman, *Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1979), p. 37.
11. Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1979).
12. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the 'Ulama in Twentieth-Century Iran," in Keddie, *Scholars, Saints, and Sufis*, pp. 231–55.
13. See Richard Deacon, *The Israeli Secret Service* (New York: Taplinger Publishing Co., 1978), pp. 176–77.
14. For alternative views of *Le Monde*, see Aimé Guedj and Jacques Girault, *"Le Monde": Humanisme, objectivité et politique* (Paris: Éditions Sociales, 1970), and Philippe Simonnot, *"Le Monde" et le pouvoir* (Paris: Les Presses d'aujourd'hui, 1977).
15. See Clark's proposal for solving the Iran-American crisis: "The Iranian Solution," *The Nation*, June 21, 1980, pp. 737–40.
16. Almost alone, the Middle East Research and Information Project (MERIP) has attempted to do this: see *MERIP Reports*, no. 88 (June 1980), "Iran's Revolution: The First Year," pp. 3–31, or the study of Afghanistan in no. 89 (July–August 1980), pp. 3–26.

CHAPTER THREE: KNOWLEDGE AND POWER

1. Giambattista Vico, *The New Science*, trans. T. G. Bergin and Max Fisch (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1968), p. 96.

2. Quoted in Raymond Schwab, *Le Renaissance orientale* (Paris: Payot, 1950), p. 327.

3. Ernest Renan, "Mahomet et les origines de l'islamisme," in *Études d'histoire religieuse* (Paris: Calmann-Lévy, 1880), p. 220.

4. Bernard Lewis, "The State of Middle East Studies," *American Scholar* 48, 3 (Summer 1979), 366–67; emphasis added. It is interesting to compare Lewis's disingenuous assertions with Bryan S. Turner, *Marx and the End of Orientalism* (London: George Allen & Unwin, 1978).

5. See, for example, Donald F. Lach and Carol Flaumenhaft, eds., *Asia on the Eve of Europe's Expansion* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1965); Donald F. Lach, *Asia in the Making of Europe*; vol. 1, *The Century of Discovery* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1965), and vol. 2, *A Century of Wonder* (1977); J. H. Parry, *Europe and a Wider World* (London: Hutchinson & Co., 1949), and *The Age of Reconnaisance* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1963). Certainly one should also consult K. M. Panikkan, *Asia and Western Dominance* (London: George Allen & Unwin, 1959). For interesting accounts of Asians "discovering" the West in modern times, see Ibrahim Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), and Masao Miyoshi, *As We Saw Them: The First Japanese Embassy to the United States (1860)* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1979).

6. There are numerous examples of this, from the career of William Jones, to the Napoleonic expedition to Egypt, to a whole series of nineteenth-century scholar-traveler-agent types: see Said, *Orientalism*, *passim*. See also the revelations about Snouck Hurgronje, note 6, Introduction.

7. See the penetrating review of the work by Bryan S. Turner, *MERIP Reports* no. 68 (June 1978), pp. 20–22. Following Turner's review, in the same issue of *MERIP Reports*, James Paul estimates the cost of the MESA volume at $85.50 per page.

8. See Said, *Orientalism*, pp. 288–90.

9. Leonard Binder, "Area Studies: A Critical Assessment," in Binder, ed., *Story of the Middle East*, p. 1.

10. *Ibid.*, p. 20.

11. *Ibid.*, p. 21.

12. *Proposal to the Ford Foundation for Two Seminar-Conferences*, Program in Near Eastern Studies, Princeton University (1974–75), pp. 15–16.

13. *Ibid.*, p. 26.

14. L. Carl Brown and Norman Istkowitz, *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1977).

15. Ali Banuazizi, "Iranian 'National Character': A Critique of Some Western Perspectives," in Brown and Istkowitz, eds., *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies*, pp. 210–39. For similar work on a directly related

subject, see the important articles by Benjamin Beit-Hallahmi, "National Character and National Behavior in the Middle East: The Case of the Arab Personality," *International Journal of Group Tensions* 2, no. 3 (1972): 19–28; and Fouad Moghrabi, "The Arab Basic Personality," *International Journal of Middle East Studies* 9 (1978): 99–112; also Moghrabi's "A Political Technology of the Soul," *Arab Studies Quarterly* 3, no. 1 (Winter 1981).

16. See "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3–4 (Summer–Fall 1971).

17. Dwight Macdonald, "Howtoism," in *Against the American Grain* (New York: Vintage Books, 1962), pp. 360–92.

18. Christopher Lasch, *The New Radicalism in America, 1889–1963: The Intellectual as Social Type* (New York: Vintage Books, 1965), p. 316.

19. For an instance of how ethnic origins are cited as "credentials" by a typical Middle East studies expert, see J. C. Hurewitz, "Another View on Iran and the Press," *Columbia Journalism Review* 19, no. 1 (May–June 1980): 19–21. For a response, see Edward W. Said, "Reply," *Columbia Journalism Review* 19 no. 2 (July–August 1980): 68–69.

20. See my comments on recent books by Rodinson and Hourani in *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 386–93.

21. Irène Ferrera-Hoechstetter, "Les Études sur le moyen-orient aux États-Unis," *Maghreb-Mashrek* 82 (October–November 1978): 34.

22. Richard H. Nolte, *Middle East Centers at U.S. Universities*, June 1979, p. 2 (courtesy of Mr. Don Snook of Esso Middle East, who very kindly sent me a copy of Nolte's report).

23. *Ibid.*, pp. 40, 46, 20.

24. *Ibid.*, pp. 43, 24.

25. Michel Foucault, *The History of Sexuality, Volume One: An Introduction*, trans. Robert Hurley (New York: Pantheon Books, 1978), p. 34.

26. The phrase is partly Harold Bloom's, although of course he uses it in a very different context and calls it "antithetical criticism": see his book *The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry* (New York: Oxford University Press, 1973), pp. 93–96.

27. The work of Peter Gran, Judith Tucker, Basem Musallem, Eric Davis, and Stuart Schaar, among others, is representative of this group.

28. See notes 14, 15, and 62, Chapter One.

29. I have discussed the notion of *affiliation* in "Reflections on Recent American 'Left' Literary Criticism," *Boundary* 2 8, no. 1 (Fall 1979): 26–29.

30. Hans-Georg Gadamer, *Truth and Method* (New York: Seabury Press, 1975), p. 238.

31. See Ali Jandaghi's comments on Marvin Zonis's study of the Iranian elite, in "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34–47.

32. As instances, there is J. B. Kelly, *Arabia, the Gulf and the West*,

who bewails the departure of the British east of Suez; there is Élie Kedourie, who attacks de Gaulle for having "given up" Algeria—see his review of Alistair Horne, *A Savage War of Peace: Algeria, 1954–1962* in the *Times Literary Supplement*, April 21, 1978, pp. 447–50; and there is Robert W. Tucker and a whole string of followers who have been advocating an American invasion of the Gulf for at least five years (see notes 34 and 38, Chapter One). Behind much of this is the work of Edward N. Luttwak: see the model presented in his book *The Grand Strategy of the Roman Empire: From the First Century A.D. to the Third* (Baltimore and London: Johns Hopkins University Press, 1976).

■ محتوى الكتاب ■

الصفحة

الصفحة